

هكذا غنى

**



ترجمة

المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر



المركز العربي للكتاب
ليبيا - تونس

هَكَذَا خَتَمُ طَائِفُور

هكذا تخفى طاعن الغور

ترجمة
خليفة محمد التليسي

المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر

الدار العربية للكتاب
تونس

رقم الايداع بدار الكتب الوطنية

89/673

الجمهورية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

جميع الحقوق محفوظة - دار العربية للكتاب

1989



تواريخ هامة في حياة طاغور

1861 في يوم 6 مايو من هذا العام ولد الشاعر بمدينة كلكتا في أسرة معروفة بالعراقية والوجاهة والمكانة العلمية الأدبية . فقد كانت لوالده مكانة دينية واجتماعية بارزة في إقليم البنغال ، كما تميز إخوته وأخواته بالنبوغ الأدبي والفني والموسيقى ، مما هيا له الفرصة لأن يترعرع في بيئة غنية بالثقافة مفتوحة على مختلف التيارات والاتجاهات الأدبية والفلسفية الهندية والشرقية والغربية .

1875 وفاة والدته . وكان حينذاك في الخامسة عشرة من عمره . نشر يواكيره الشعرية الأولى في احدى المجلات الأدبية التي كانت تصدر بكلكتا .

وحين قارب العشرين من عمره نشر أولى مجاميعه الشعرية بعنوان (أغاني الصباح) ثم أتبعها (بأغاني المساء) فكان بذلك ي دشّن عهدا جديدا في مسار الشعر البنغالي الحديث .

1877 أرسله والده إلى إنجلترا لدراسة القانون . فلم يوفق إلى التخرج فيما أراد له والده من اختصاص ولم يلبث أن عاد إلى بلاده دون شهادة . ولكنه عاد بمحصيلة وافرة من المعلومات والتجارب التي غذت اهتماماته في مجالات الأدب

• انظر المقدمة في الجزء الأول من المجموعة .

والموسيقى . وبعد إقامة استمرت أربعة عشر شهرا عاد إلى بلاده مواصلا نظم الشعر وكتابة الدراسات الأدبية .

1883 وفي 9 ديسمبر من هذا العام تزوج مريتا ليني ديي .

1890 قام برحلة ثانية إلى أوروبا زار فيها إنجلترا مارا بفرنسا وإيطاليا . وذكر الرحلات هنا أمر هام في حياة طاغور ، وما حققه من شهرة عالمية ، وقد اتخذ من هذه الرحلات جسرا يوصله بكبار الأدباء في العالم والتعريف بأدبه ورسائله في أرجاء المعمورة .

1891 عين نائبا لرئيس أكاديمية الآداب في البنغال ومن ذلك الحين انصرف انصرافا كاملا إلى النشاط الأدبي وكرس جهوده لخدمة الحركة الأدبية والعلمية في بلاده التي أخذ يعني بشئونها السياسية .

1901 أسس بشأنني نيكان مدرسة صارت فيما بعد الجامعة الدولية فسفاهاراني .

1902 وفاة زوجته .

1904 وفاة ابنته .

1905 وفاة والده .

1907 وفاة ابنه الأكبر .

وقد كان لهذه الأحداث المحزنة أثر عميق في نفسه ، وشعره ينعكس بشكل حاد في كثير من قصائده . وفي وفاة ابنته كتب ديوانه الطفل الذي ترجمه إلى الإنجليزية بعنوان الهلال .

1909/1912 كتب خلال هذه الفترة ديوانه جتتجالي (قربان الأغاني) ونشره باللغة البنغالية 1910 وهو العمل الذي صنع له شهرته العالمية ونال به جائزة نوبل للآداب فكان أول شاعر شرقي يظفر بها .

1912 قام بزيارته الأولى للولايات المتحدة ألقى فيها جملة من المحاضرات تحول إلى إنجلترا في زيارة ثانية حيث التقى بالشاعر عزرا باوند ووليام بتلر ريتس وهما الشاعران اللذان نهضا بعبء تعريف الغربيين به وكان طاغور قد قام أثناء الرحلة بترجمة

بعض أشعاره إلى الإنجليزية وحين اطلع عليها الشاعر الإنجليزي يتس تمسح لها .

1912 في نوفمبر من هذا العام نشر ديوان جتنجالي بالإنجليزية بتقديم الشاعر الإيرلندي يتس .

1914 منح طاغور جائزة نوبل على هذا الديوان وقد خصص ربع الجائزة لتطوير جامعتة المعروفة ومنحته جامعة كلكتا لقب الدكتوراه الفخرية .

1915 منحه الحكومة البريطانية لقب (سير) وهو اللقب الذي أعاده إلى الحكومة البريطانية عقب الأعمال القمعية التي قامت بها في سنة 1919 بإقليم البنجاب .

1916 زار اليابان .

1917 زار الولايات المتحدة مرة ثانية وألقى سلسلة من المحاضرات . كما انتخب في هذه السنة رئيسا للمؤتمر الوطني بكلكتا .

وعني في هذه الفترة بالعمل على تطوير جامعتة وتوسيعها، فلم يكتف برصد ربع جائزة نوبل والحقوق العائدة فقام بجولة جديدة حول العالم استغرقت أربعة عشر شهرا لجمع التبرعات لهذه الجامعة .

1921 تمكن طاغور بعد جهد كبير من افتتاح جامعتة العالمية فيسفاباراتي وهي تسمية استوحاها طاغور من أحد الأبيات الشعرية السانسكريتية وتعني المكان الذي يتحد فيه العالم في وكر واحد .

1922 زار فرنسا وانجلترا والدانمرك والسويد وألمانيا .

1924 زار ماليزيا والصين واليابان .

1925 حل ضيفا على الحكومة الفاشية الإيطالية وحسبت عليه تصريحاته السياسية التي تتسم بالسذاجة وطنية النفس أكثر مما تعبر عن الموقف السياسي المناصر .

كما عين في هذه السنة رئيسا للمؤتمر الفلسفي بالهند .

1926 قام خلال هذه الفترات بعدة رحلات حول العالم زار خلالها سويسرا ، النمسا ،
فرنسا حيث كان ضيف الكاتب الفرنسي الشهير رومان رولاند ، ثم زار
أيضا إنجلترا والنرويج ، ويوغسلافيا ، بلغاريا ورومانيا ، وتركيا ، واليونان
ومصر حيث كان موضع حفاوة من الأوساط السياسية والأدبية واحتفى به
الشاعر أحمد شوقي في بيته كرمة بن هاني ، وزار أيضا ماليزيا والصين
واليابان وكندا والهند الصينية والدمترك وروسيا والولايات المتحدة .

وكان خلال هذه الرحلات يقوم بالتبشير بمبادئه وقرأ شعره ، ويجمع التبرعات
لجامعته ، ويقم العلاقات مع أبرز الشخصيات الأدبية والفكرية والسياسية في
عصره . وعرض في أوروبا وأمريكا بعض لوحاته مقدما بذلك وجهاً آخر من وجوه
مواهبه المتعددة .

1928 بدأ في ممارسة هواية الرسم .

1929 رحلات إلى كندا واليابان وسايجون .

1930 عودة إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وسويسرا وروسيا .

عرض رسومه في برمنجهام ولندن وبعض العواصم الأوروبية .

1932 رحل إلى العراق وإيران بطريق الجو . وفاة حفيده الوحيد .

1933 وكان في هذه المرحلة قد تجاوز السبعين من العمر فاستراح إلى الإقامة في بلاده
وكف عن التجوال سوى رحلة قصيرة قام بها إلى سيلان .

1940 آخر لقاءات طاغور مع غاندي في ساني نكتان . جامعة أكسفورد تعقد اجتماعاً
في سانتينيكتان لمنحه درجة الدكتوراه الفخرية . وهو شرف لم يحظ به غيره
من قبل ، فالمعروف أن الجامعات تمنح هذا التكريم في مقارها التاريخية .

1941 في يوم 17 أغسطس من هذا العام توفي الشاعر العظيم في الثمانين من عمره في
البيت الذي ولد فيه فبكاه العالم وفقد فيه شاعراً من شعراء الإنسانية الكبار .

1948 اغتيال غاندي .

1949 إعلان استقلال الهند .

جَنِّي الثَّمَار

2

عِنْدَمَا كُنْتُ شَابًا
كَانَتْ حَيَاتِي كَالزُّهْرَةِ
تُسْقِطُ قِطْعَةً أَوْ قِطْعَتَيْنِ
مِمَّا تَمْلِكُ مِنْ أَفْوَافِهَا
دُونَ أَنْ تَشْعُرَ بِفَقْدَانِهَا
حِينَ يَأْتِي الرَّبِيعُ وَيَقِفُ
مُسْتَعْطِيًا عِنْدَ بَابِهَا.

وَالآنَ

وَعِنْدَ نِهَايَةِ الشَّبَابِ
صَارَتْ حَيَاتِي كَالثَّمَرَةِ
الَّتِي لَيْسَ لَهَا مَا تُؤْفِقُهُ

وَتَنْتَظِرُ أَنْ تَمْنَحَ نَفْسَهَا كُلَّهَا
بِكُلِّ حَلَاوَتِهَا الْخَاصَّةِ . .

④

اسْتَيْقَظْتُ
فَوَجَدْتُ رِسَالَتَهُ تَأْتِينِي مَعَ الصَّبَاحِ
لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ الرُّسَالَةُ
لَأَنِّي لَا أَعْرِفُ الْقِرَاءَةَ
سَادَعُ الْعَالِمَ الْحَكِيمَ مُنْصَرِّفًا إِلَى كُتُبِهِ
وَلَسْتُ أَرْغَبُ فِي مُضَايَقَتِهِ
مَنْ يَلْدِرِي إِذَا كَانَ سَعِيفُ مَا تَقُولُهُ الرُّسَالَةُ
سَأَطْبَعُهَا عَلَى جَبِينِي
وَأَشْدُّهَا إِلَى صَدْرِي
وَحِينَ يَشِيعُ السُّكُونُ فِي اللَّيْلِ
وَتَسْطَعُ النُّجُومُ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى

سَأَنْشُرُهَا فِي حِضْنِي
وَأَظْلُ صَامِتًا .
إِنْ حَفِيفَ الْأَوْرَاقِ
سَيَتَلَوْنَهَا عَلَيَّ بِصَوْتِ عَالٍ .
وَالْجَدُولُ حِينَ يَنْسَابُ سِيرُدُّهَا فِي أَغْنِيَةٍ .
وَتُجُومُ الثُّرَيَّا السَّبْعِ
سَتُغْنِيهَا لِي مِنَ السَّمَاءِ .
لَا أَجْرِفُ كَيْفَ أُعْثِرُ عَلَى مَا أُنَبِّحُ عَنْهُ
وَلَا أَدْرِي مَا الَّذِي يَتَّبِعِي عَلَيَّ مَعْرِفَتُهُ وَتَعْلُمُهُ
وَلَكِنْ هَذِهِ الرُّسَالَةُ
خَفَّفَتْ أَعْبَائِي
وَأَحَالَتْ أَفْكَارِي إِلَى أَغْنِيَاتٍ .

كَانَتْ تُخْفِي عَنِّي إِشَارَتَكَ

حِينَ كُنْتُ لَا أَفْقَهُ مَعْنَاهَا .

أَمَّا الْآنَ وَقَدْ صِرْتُ أَعْقِلُ وَأَفْهَمُ

فَلِئَنِّي أَقْرَأُهَا فِي كُلِّ مَا كَانَ يُخْفِيهَا

إِنَّهَا مَرْسُومَةٌ عَلَى أَفْوَافِ الزُّهْرِ

وَيَسْطَعُ بِهَا زَبَدُ الْأَمْوَاجِ .

وَتَرْفَعُهَا الْهَضَابُ عَالِيَةً فَوْقَ الْقِمَمِ .

لَقَدْ نَحَيْتُ وَجْهِي عَنْكَ

فَأَسَاتُ قِرَاءَةَ رَسَائِلِكَ

وَلَمْ أَفْهَمْ مَعْنَاهَا . .

6

حَيْثُ الدُّرُوبُ الْمَطْرُوقَةُ

أَضِلُّ طَرِيقِي

وَفِي الْبَحْرِ الْهَائِلِ .

والسَّمَاءِ الزَّرْقَاءِ
 لَا أَثَرَ لَأَيِّ طَرِيقٍ
 وَالذُّرُوبُ تُخَجِّبُهَا أَجْنِحَةُ الطُّيُورِ
 وَبَرِيقِ النُّجُومِ
 وَزُهُورِ الْفُصُولِ الْمُتَقَلِّبَةِ .
 وَأَسْأَلُ قَلْبِي
 إِذَا كَانَ الدَّمُ الَّذِي يَتَدَفَّقُ فِيهِ
 يَحُولُ حِكْمَةَ الْبَصَرِ
 بِالطَّرِيقِ اللَّامَنْظُورَةِ . .

7

أَوَاهُ ، لَمْ أَعُدْ قَادِرًا عَلَى الْبَقَاءِ فِي الْبَيْتِ
 وَالْبَيْتُ لَمْ يَعُدْ بَيْتِي
 بَعْدَ أَنْ أَخَذَ الْغَرِيبُ الْأَبْلِيَّ
 يَدْعُونِي إِلَيْهِ

وَيَتَقَدَّمُنِي فِي الطَّرِيقِ .
 إِنْ صَدَى خُطَوَاتِهِ يَخْفِقُ فِي صَدْرِي
 وَيُؤَلِّمُنِي
 وَالرَّيْحُ تَرْتَفِعُ
 وَالْبَحْرُ يَهيجُ
 سَأَتُرْكُ جَمِيعَ شُكُوكِي وَاهْتِمَامَاتِي
 لِأَتَّبِعَ هَذَا الْمَدَّ الَّذِي لَا مُسْتَقَرَّ لَهُ
 ذَلِكَ أَنْ هَذَا الْغَرِيبَ
 يَدْعُونِي
 وَيَتَقَدَّمُنِي فِي الطَّرِيقِ . . .

8

يَا قَلْبِي
 كُنْ مُتَحَفِزًا لِلْإِفْلَاحِ
 وَدَعْ عَنْكَ مَنْ أَرَادَ التَّخَلُّفَ

لَقَدْ تَعَالَى النَّدَاءُ بِاسْمِكَ

فِي سَمَاءِ الْفَجْرِ

فَلَا تَتَرَقَّبْ أَحَدًا .

إِنْ تَوَقَّ الْبُرْعَمَ يَتَّجِهْ إِلَى اللَّيْلِ وَالنَّدى

وَلَكِنَّ الزُّهْرَةَ النَّائِمَةَ

تَتَوَقَّ إِلَى حُرِيَّةِ النُّورِ

فَحَطَّمْ غِلَافَكَ

يَا قَلْبِي

وَاخْرُجْ إِلَى الْعَرَاءِ .

9

حِينَ كُنْتُ اسْتَعْرِضُ عَلَى مَهَلٍ

كُنُوزِي الَّتِي جَمَعْتُهَا

كُنْتُ أَشْعُرُ كَأَنِّي دُودَةٌ

تَتَغَدَّى مِنَ الْفَاكِهَةِ الَّتِي وُلِدَتْ فِيهَا

سَأَتْرُكُ سِجْنَ الْأُنْجِلَالِ هَذَا
وَلَنْ أَهْتَمُّ بِغِشْيَانِ أَجَوَاءِ الْهُلُوءِ الْمُتَعَفِّنِ .
وَلَا تُنْيِ ذَاهِبُ لِلْبَحْثِ
عَنِ الشَّبَابِ الْخَالِدِ
فَإِنِّي سَأَطْرَحُ كُلَّ مَا لَا يَنْسَجِمُ
مَعَ حَيَاتِي
وَمَا لَيْسَ خَفِيفًا خِفَّةَ الْإِيسَامَةِ الْهَائِثَةِ
سَأَعْدُو مَعَ الزَّمَنِ
يَا قَلْبِي
فَعَلَى مَرْكَبِكَ
يَرْقُصُ الشَّاعِرُ الَّذِي يُغْنِي
وَهُوَ يَجُوبُ الْأَفَاقَ . .

وَسَحَبْتَنِي إِلَى جَوَارِكِ
 وَأَجْلَسْتَنِي أَعْلَى الْكَرَاسِي أَمَامَ النَّاسِ
 حَتَّى صِرْتُ خَجِلاً
 غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى الْحَرَكَةِ
 وَمُتَابِعَةِ طَرِيقِي .
 وَيَسْتَوْلِي عَلَيَّ الشَّكُّ وَالتَّرَدُّدُ
 فِي كُلِّ خُطْوَةٍ أَخْطُوهَا
 حَذِيراً أَنْ أَدُوسَ شَوْكَةً
 مِنْ أَشْوَالِكِ سُخْطِهِمْ .
 وَأَخِيراً تَحَرَّرْتُ
 وَجَاءَتِ الضَّرْبَةُ الْقَاضِيَةُ
 وَدَقَّ طَبْلُ الْإِهَائَةِ
 وَسُجِبَ عَرْشِي فَوْقَ الثَّرَابِ
 وَأَمَامِي
 انْفَتَحَتْ كُلُّ الدُّرُوبِ

إِن أَجْنَحْتِي عَامِرَةٌ بِالرُّعْبَةِ فِي السَّمَاءِ
 سَأَذْهَبُ لِبُلُوغِ النُّجُومِ الْمُسَافِقَةِ
 وَأَغْرِقُ نَفْسِي فِي الظِّلِّ الْعَمِيقِ
 إِنَّنِي كَالسَّحَابَةِ الصَّيْفِيَّةِ
 الَّتِي تَذْفَعُهَا الْعَاصِفَةُ
 حَتَّى إِذَا أَلْقَتْ عَنْهَا تَاجَهَا الذَّهَبِيَّ
 عُلِقَتْ حُرَّتَيْهَا كَالسَّيْفِ
 فَوْقَ سِلْسِلَةٍ مِنَ الْبُرُوقِ .
 وَفِي بَهْجَةٍ يَأْتِسُو
 أَرْكُضُ فِي دَرْبِ الْإِهَانَةِ الْمُتَرَبِّ
 مُقْتَرِبًا مِنْ تَرْجِيكِ الْأَخِيرِ .
 إِنْ الطُّفْلَ يَجِدُ أُمَّهُ
 حِينَ يُغَادِرُ حِضْنَهَا .
 وَحِينَ انْفَصَلْتُ عَنْكَ
 وَطُرِدْتُ مِنْ بَيْتِكَ

صِرْتُ حُرًّا فِي أَنْ أَرَى وَجْهَكَ.

11

هَذِهِ السِّلْسِلَةُ الْمُرَصَّعَةُ بِالْجَوَاهِرِ

لِئَلَّا تُزَيِّنَنِي

لِتَسْخَرَ مِنِّي

وَحِينَ تَطُوقُ عُنُقِي

تُؤْلِمَنِي

وَتَحْتَفِنِي حِينَ أَحَاوِلُ نَزْعَهَا.

لِئَلَّا تَقْبِضَ عَلَى حَلْقِي

وَتَحْنُقَ غِنَائِي

لَوْ كَانَ فِي وَسْطِي أَنْ أَهْبَهَا لَكَ

يَا مَوْلَايَ

حِينَئِذٍ لَفَقَطَ سَاكُونٌ حُرًّا

فَانْزَعَهَا عَنِّي

وَعَوَضاً عَنْهَا شُدَّنِي إِلَيْكَ

بِإِكْلِيلٍ مِنْ أَكَالِيلِكَ

لَأَنْيَ أَشْعُرَ بِالْحَجَلِ

لأنَّ أَقْفَ أَمَامَ سُدَّتِكَ

بِهَذِهِ السَّلْسَلَةِ الْمُرَصَّعَةِ بِالْجَوَاهِرِ

الَّتِي تُطَوِّقُ عُنُقِي .

12

فِي أَسْفَلِ الْوَادِي

كَانَ نَهْرٌ (جُومَنَّا)

يَتَدَفَّقُ مُسْرِعاً صَافِياً

وَمِنْ كُلِّ جَانِبٍ، تَنْظُرُ إِلَيْهِ الضُّفَافُ

الْمُتَجَهِّمَةُ بِغَابَاتِ الْهَضَابِ الْكَثِيفَةِ

الَّتِي تَعْلُوهَا وَأَخَادِيدُ السَّيُولِ .

كَانَ الْمُعَلِّمُ الْأَكْبَرُ (جُوفَنَدَا) جَالِساً

فَوْقَ صَخْرَةٍ يَقْرَأُ صَفْحَةً
 حِينَ جَاءَهُ تَلْمِيذُهُ (رَاجُونَات)
 الْمُعْتَرُ بِثَرْوَتِهِ الطَّائِلَةِ
 وَانْحَنَى أَمَامَهُ قَائِلًا:
 لَقَدْ جِئْتُ إِلَيْكَ بِهَدِيَّتِي
 الْمُتَوَاضِعَةِ، وَهِيَ أَقْلٌ مِنْ أَنْ
 تَحْطَى بِالْقَبُولِ مِنْ مَقَامِكَ
 وَحِينَ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ
 أَلْقَى أَمَامَ الْمُعَلِّمِ
 سِوَارِينَ مِنْ الذَّهَبِ الْمُرْصَعِ بِالْجَوَاهِرِ
 فَتَنَاولَ الْمُعَلِّمُ وَاحِدًا مِنْهَا
 وَأَخَذَ يَدِيرُهُ فَوْقَ إصْبَعِهِ
 فَتَلَأَلَّتِ الْجَوَاهِرُ بِأَنْوَارِهَا الَّتِي تَخْطَفُ الْأَبْصَارَ
 وَفُجْأَةً،، انْزَلَقَ مِنْ يَدِهِ وَتَدَحَّرَجَ

فَوْقَ الضِّفَّةِ ثُمَّ وَقَعَ فِي الْمَاءِ
 فَصَرَخَ (رَاجُونََات) مُتَحَسِّرًا (أَوَاه)
 وَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي النَّهْرِ
 وَصَوَّبَ الْمُعَلِّمُ بَصَرَهُ نَحْوَ الْكِتَابِ
 وَأَخْفَى النَّهْرَ مَا كَانَ قَدْ سَرَقَهُ
 وَتَابَعَ جَرَيَانَهُ
 كَانَ النَّهَارُ يَشْحَبُ وَيَقْتَرِبُ
 مِنَ الْأُفُولِ
 حِينَ عَادَ (رَاجُونََات)
 إِلَى أَسْتَاذِهِ مُتَعَبًا مَهْدُودًا يَقْطُرُ مَاءٌ
 وَقَالَ لَهُ وَهوَ يَلْهَثُ:
 يَمَكِّنُنِي الْعُثُورَ عَلَيْهِ
 إِذَا بَيَّنَّتْ لِي مَكَانَ وُقُوعِهِ
 فَتَنَاولَ الْأَسْتَاذُ السُّوَارَ الثَّانِي

وَأَلْقَى بِهِ فِي الْمَاءِ

قَائِلًا:

إِنَّهُ هُنَاكَ .

13

إِن السَّيْرَ هُوَ اللَّقَاءُ بِكَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ

يَا رَفِيقَ السَّفَرِ

وَهُوَ الْغِنَاءُ عَلَى وَقْعِ خُطَوَاتِكَ

إِنَّ مَنْ لَمْ يَمْسَسْهُ أَنْفَاسُكَ

لَا يُلَوِّذُ بِالضُّفَّافِ لِلْإِحْتِمَاءِ بِهَا

وَلَكِنَّهُ يَنْشُرُ أَشْرَعَةً مُتَحَدِّيًا

وَيُشَقُّ الْعُبَابَ الْهَائِجَ

ذَلِكَ أَنْ الَّذِي يَفْتَحُ أَبْوَابَهُ

وَيَقْدِمُ نَحْوَكَ يَظْفَرُ بِرِضَاكَ

إِنَّهُ لَا يَجْلِسُ لِكَيْ يُخَصِّي أَرْبَاحَهُ

أَوْ يَكْبِي خَسَائِرَهُ
 إِنْ قَلْبُهُ يَلْقُ طَبْلَ زَحْفِهِ
 وَذَلِكَ مَعْنَى السَّيْرِ مَعَكَ
 فِي كُلِّ خُطْوَةٍ
 يَا رَفِيقَ السَّفَرِ

14

إِنْ نَصِيبِي
 مِنْ خَيْرِ هَذَا الْعَالَمِ
 سَيَاتِي مِنْ يَدَيْكَ
 ذَلِكَ هُوَ وَعْدُكَ
 وَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ يَلْمَعُ نُورُكَ
 فِي دُمُوعِي .
 أَخْشَى أَنْ يَقُودَنِي الْآخَرُونَ
 فَأُفَوِّتَكَ

وَأَنْتَ الَّذِي تَنْتَظِرُنِي
 فِي زَاوِيَةِ إِحْدَى الطُّرُقِ
 لِتَكُونَ مُرْشِدِي
 وَأَقْطَعُ طَرِيقِي بِإِصْرَارٍ
 حَتَّى يَجْذِبَكَ جُنُونِي
 إِلَى بَابِي
 لِأَنَّكَ وَعَدْتَنِي
 بِأَنْ نَصِيبِي مِنْ خَيْرِ هَذَا الْعَالَمِ
 سَيَكُونُ عَلَيَّ يَدَيْكَ .

15

بَسِيطَةً كَلِمَاتِكَ ، أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ
 بِسَاطَةً لَا يَمْلِكُهَا أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْكَ
 إِنِّي أَفْهَمُ صَوْتَ نُجُومِكَ
 وَصَمْتُ أَشْجَارِكَ

وَأَعْرِفُ أَنْ قَلْبِي سَيَنْتَفَحُ كَالزُّهْرَةِ
وَأَنْ حَيَاتِي قَدْ أَفْعَمَهَا نَبْعُ خَفِيِّ.
وَأَغْنِيَاكَ
مِثْلَ طُيُورِ قَرْيَةِ الثَّلَجِ الْمَهْجُورَةِ
نَظِيرِ
لِتُبْنِي عُشَّهَا فِي قَلْبِي
هَرَباً مِنْ جَوِّ إِبْرِيلِ الْفَاتِرِ.
وَلِأَنِّي لَسَعِيدٌ
بِانتِظَارِ الْمَوْسِمِ الْجَمِيلِ . .

16

كَأَنَّا بَعْرِفُونَ الطَّرِيقَ
فَجَاءُوا لِلْبَحْثِ عَنْكَ
عَبْرَ الدَّرْبِ الضَّيِّقِ
وَلَكِنِّي كُنْتُ أَجُوبُ آفَاقاً بَعِيدَةً

وَأَضْرِبُ فِي غَيَاطِ اللَّيْلِ
لَأُنِّي جَاهِلٌ
وَلَمْ أَتَلَقْ عِلْمًا كَافِيًا
حَتَّى أَخْشَاكَ فِي الظُّلَامِ
وَبِذَلِكَ بَلَغْتُ بَابَكَ
دُونَ أَنْ أَدْرِي
وَقَدْ لَأَمَنِي الْحَكِيمُ وَطَرَدَنِي
لَأُنِّي لَمْ أَسْأَلْكَ إِلَّاكَ الدَّرَبَ الضَّيِّقَ
وَكَيْدْتَ أَنْصَرِفُ
وَالشُّكُوكُ تُسَاوِرُ نَفْسِي
وَلَكِنَّكَ أَمْسَكْتَ بِي
فَكَانَ عُنْفُ احْتِجَاجَاتِهِمْ ضِدِّي
يَزْدَادُ كُلَّ يَوْمٍ

قَالَتْ لِي الْغَمَامَةُ

إِنِّي أَتَبَدُّ

وَقَالَ لِي اللَّيْلُ:

إِنِّي أَغْرُصُ فِي أَعْمَاقِ الْفَجْرِ الْمُتَهَبِ

وَقَالَ لِي الْأَلَمُ:

إِنِّي أَظِلُّ عِنْدَ قَدَمَيْكَ فِي صَمْتٍ عَمِيقٍ .

وَقَالَتْ لِي الْحَيَاةُ:

إِنِّي أَمُوتُ عِنْدَ مُنْتَهَى الْكَمَالِ

وَقَالَتْ لِي الْأَرْضُ:

إِنْ أَنْوَارِي تُقْبَلُ أَفْكَارَكَ كُلَّ حِينٍ

وَقَالَ الْحُبُّ:

إِنْ الْأَيَّامُ تَمْضِي وَلَكِنِّي أَنْتَظِرُكَ

وَقَالَ الْمَوْتُ:

إِنِّي أَذْفَعُ بِزُورَقٍ حَيَاتِكَ عَبْرَ الْبَحْرِ..

18

كَلَّا.. لَيْسَ مِنْ أَجْلِكَ

يَتَفَتَّحُ الْبُرْعَمُ

هُزَّةً

اضْرِبُهُ

فَلَنْ يَكُونَ فِي وَسْعِكَ أَنْ تَجْعَلَهُ يَتَفَتَّحُ

إِنْ لَمْ سَتَكَ تُشَوِّهُهُ

فِي وَسْعِكَ أَنْ تُمَزَّقَ أَفْوَاهُهُ

وَتَرْمِيهَا قِطْعَةً قِطْعَةً فَوْقَ التُّرَابِ

وَلَكِنْ الْأَلْوَانُ لَنْ تَظْهَرَ

وَلَنْ يَضُوعَ الْأَرِيحُ

آه، لَيْسَ مِنْ أَجْلِكَ يَتَفَتَّحُ الْبُرْعَمُ

فَيَصِيرُ زَهْرَةً

إِنْ الَّذِي يُفْتَحُ الْبُرْعَمَ
 يَفْعَلُ ذَلِكَ بِسُرٍّ وَبَسَاطَةٍ
 إِنَّهُ يُلْقِي عَلَيْهِ نَظْرَةً
 فَيَجْرِي لَهَا نَسْغُ الْحَيَاةِ فِي عُرْوَةٍ
 وَعَلَى أَنْفَاسِهِ
 تَبْسُطُ الزُّهْرَةُ أَجْنِحَتَهَا
 وَتَتَمَازِلُ مَعَ الرِّيحِ
 وَتَتَبَيَّقُ الْأَلْوَانُ عَفْوًا
 مِثْلَ الرُّغَبَاتِ الْحَيَّةِ
 وَالشُّدَى يَشِي بِسِرِّهِ الْجَوِيلِ
 إِنْ الْقُدْرَةُ الَّتِي تَفْتَحُ الْبُرْعَمَ
 تَفْعَلُ ذَلِكَ بِسَاطَةٍ وَيُسْرٍ.

مِنْ حَوْضِهِ
 آخَرَ أَزْهَارِ اللُّوتُسِ الْبَاقِيَةِ
 مِنْ اجْتِيَاكِ الشَّتَاءِ
 وَتَوَجَّهَ إِلَى الْقَصْرِ الْمَلِكِيِّ
 لِيَبْعَهَا لِلْمَلِكِ
 قَابَلَ فِي طَرِيقَةِ مُسَافِرٍ قَالَ لَهُ :
 حَدِّثْ سِعْرَكَ لِأَخِيرِ زَهْرَاتِ اللُّوتُسِ
 إِنِّي أُرِيدُ تَقْدِيمَهَا
 إِلَى الْإِلَهِ بُوَذَا
 فَقَالَ سُودَاسُ .
 إِذَا نَقَدْتَنِي (مَا شَأْنُ) ذَهَبِيَّةٍ
 فَإِنَّهَا سَتَكُونُ لَكَ
 وَدَفَعَ الْمُسَافِرُ الثَّمَنَ
 وَفِي يَدِهِ اللَّحْظَةُ خَرَجَ الْمَلِكُ
 وَأَبْدَى الرُّعْبَةَ فِي شِرَاءِ الزُّهْرَةِ

إِذْ كَانَ مُتَوَجِّهًا هُوَ الْآخِرُ لِزِيَارَةِ بُودَا
 وَقَدْ قَدَّرَ أَنَّهُ سَيَكُونُ جَمِيلًا
 أَنْ يَضَعَ عِنْدَ قَدَمِي بُودَا
 هَذِهِ الزُّهْرَةُ النَّادِرَةُ الَّتِي نُوِّرَتْ فِي الشِّتَاءِ
 وَعِنْدَمَا قَالَ لَهُ الْبُسْتَانِيُّ إِنَّهُ عَرَضَ
 مَاشَا ذَهَبِيَّةً ، عَرَضَ الْمَلِكُ
 عَشْرَ مَاشَاتٍ ، وَلَكِنْ الْمُسَافِرَ
 ضَاعَفَ الثَّمَنَ
 وَحِينَئِذٍ فَكَّرَ الْبُسْتَانِيُّ الْجَشِيعُ
 فِي أَنَّهُ سَيَنَالُ رِبْحًا أَوْفَرَ
 مِنْ ذَلِكَ الرَّبِّ الَّذِي تَنَافَسَا
 عَلَى إِهْدَائِهِ الزُّهْرَةَ
 فَأَنَحَنَى الْبُسْتَانِيُّ وَقَالَ :
 لَا أَسْتَطِيعُ بَيْعَ زَهْرَةِ اللُّوتُسِ .
 وَفِي الظِّلِّ الصَّامِتِ لِغَابَةِ الْمَآئِجَا

الْوَاقِعَةَ خَلْفَ أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ
 كَانَ سُودَاسَ وَاقِفًا أَمَامَ بُودَا
 الَّذِي كَانَ يَجُثُّ فَوْقَ شَفَتَيْهِ
 صَمَتُ الْحُبِّ
 وَفِي عَيْنَيْهِ كَانَ يُشِيعُ السَّلَامُ
 مِثْلَ نَجْمَةِ الصَّبَاحِ الْوَضِيئَةِ
 فِي الْخَرِيفِ الَّذِي بَلَّلَهُ النَّدى
 وَحَلَّقَ سُودَاسُ فِي وَجْهِ بُودَا
 وَوَضَعَ زَهْرَةَ اللُّوتسِ عِنْدَ قَدَمَيْهِ
 وَسَجَدَ فَوْقَ التُّرَابِ
 فَابْتَسَمَ بُودَا وَسَأَلَهُ
 مَا هِيَ أُمْنِيَّتُكَ يَا بُنَيَّ؟
 فَهَتَفَ سُودَاسُ قَائِلًا:
 آخِرَ لَمْسَةٍ مِنْ قَدَمَيْكَ

أَيُّهَا اللَّيْلُ
 أَيُّهَا اللَّيْلُ الْمُحَجَّبُ
 اجْعَلْنِي شَاعِرَكَ
 لَقَدْ لَبِثْتُ أَنَاسُ أَحْقَاباً طَوِيلَةً
 مُعْتَصِمِينَ بِالصُّمُتِ تَحْتَ ظِلَالِكَ
 فَدَعْنِي أَغْنِي أَغْنِيَاتِهِمْ
 وَلْتُرْكِبْنِي عَرَبَتَكَ الْخَالِيَةَ مِنَ الْعَجَلَاتِ
 تِلْكَ الَّتِي تَقْطَعُ هَذِهِ الْعَوَالِمَ دُونَ صَوْتِ
 أَيُّهَا اللَّيْلُ
 أَيُّهَا الْمَلِكُ عَلَى قَصْرِ الزَّمَنِ
 أَيُّهَا الْغُمُوضُ الْجَوِيلُ
 كَثِيرَةٌ هِيَ الْعُقُولُ الْمُتَطَلِّعَةُ
 الَّتِي تَسْلُكُتْ خِلْسَةً إِلَى رِحَابِكَ

وَجَابَتْ أَرْكَانَ بَيْتِكَ الْمُظْلِمِ
 بَحْثًا عَنْ جَوَابِ
 وَكَثِيرَةٌ هِيَ الْقُلُوبُ الَّتِي أَصَابَتْهَا
 أَيْدِي الْمَجْهُولِ
 بِسِيْهَامِ الْفَرْحَةِ
 فَتَفَجَّرَتْ بِالْأَغْنِيَاءِ الْبَهِيْجَةِ
 وَهَزَّتْ أَرْكَانَ الظَّلَامِ
 إِنَّهَا تِلْكَ الْأَرْوَاحُ الْمُؤَرَّقَةُ الَّتِي تُحَلِّقُ
 فِي نُورِ النُّجُومِ
 مُنْبَهَرَةً
 بِالْكُنُوزِ الَّتِي عَثَرَتْ عَلَيْهَا فَجَاءَتْ
 لِجَعَلَنِي شَاعِرُكَ أَيُّهَا اللَّيْلُ
 شَاعِرَ صَمْتِكَ الْعَمِيقِ . .

(21)

فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ

سَأَلْتَنِي (بِالْحَيَاةِ) فِي أَعْمَاقِي
 بِالْبَهْجَةِ الَّتِي تَخْتْفِي فِي حَيَاتِي
 وَرَغَمَ أَنَّ الْأَيَّامَ
 تُعْرِقُ خُطَايَ
 بِغُبَارِهَا الْخَامِلِ
 فَقَدْ عَرَفْتُهَا فِي رُؤْيٍ خَاطِفَةٍ
 وَنَفْسُهَا الْمُتَقَطِّعُ نَزَلَ عَلَيَّ
 جَاعِلًا أَفْكَارِي لِإِبْرَاهِيمَ قَصِيرَةً
 مُعْطَرَةً .

سَأَلْتَنِي فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ
 بِالْبَهْجَةِ الَّتِي تَسْكُنُ لَدُونِ صُحْبَتِي
 خَلْفَ حِجَابِ النُّورِ
 وَسَوْفَ أَظِلُّ فِي وَحْدَتِي الْفَيَّاضَةِ
 حَيْثُ تُرَى كُلُّ الْأَشْيَاءِ
 كَمَا يَرَاهَا الْخَالِقُ نَفْسُهُ .

الَلَّيْلُ حَالِكٌ

وَنَوْمُكَ عَمِيقٌ

فِي صَمْتٍ وَجُودِي

اسْتَيْقِظْ

يَا عَذَابَ الْحُبِّ

لَأَنِّي لَا أَعْرِفُ كَيْفَ أَفْتَحُ الْبَابَ

وَأَقِفُ خَارِجَهُ

إِن السَّاعَاتِ لَمُنْتَظِرَةٌ

وَالنُّجُومُ سَاهِرَةٌ

وَالرِّيحُ سَاكِنَةٌ

وَالصَّمْتُ ثَقِيلٌ عَلَى قَلْبِي

فَاسْتَيْقِظْ

يَا عَذَابَ الْحُبِّ

وَأَمْلَأْ كَأْسِي الْفَارِغَةَ
 وَدَعْدِغِ اللَّيْلَ
 بِسَمَاتٍ أُغْنِيهِ .
 عَصْفُورِ الصَّبَاحِ يُغْنِي
 فَمِنْ أَيْنَ جَاءَتْهُ أَنْبَاءُ الصَّبَاحِ
 قَبْلَ بُرُوعِهِ ، حِينَ مَا يَزَالُ مَارِدُ اللَّيْلِ
 يُلْفُ السَّمَاءِ فِي أَرْدِيَّتِهِ
 الْبَارِدَةِ السَّوْدَاءِ ؟
 خَبِّرْنِي يَا عَصْفُورَ الصَّبَاحِ
 كَيْفَ يَسْتَطِيعُ رَسُولُ الشَّرْقِ
 أَنْ يَتَغَلَّغَلَ فِي أَحْلَامِكَ
 عَبْرَ لَيْلَيْنِ مُضَاعَفَيْنِ
 لَيْلِ السَّمَاءِ وَلَيْلِ الْأُورَاقِ

إِنَّ الْكَوْنَ لَا يُصَدِّقُكَ حِينَ تُغْنِي

إِن الشَّمْسُ تَرْحَفُ وَاللَّيْلُ يُؤَلِّي
 فَاسْتَيْقِظْ أَيُّهَا النَّائِمُ
 وَاكْشِفْ جَبْهَتَكَ
 انْتَظِرَا لِقُبْلَةِ الثَّورِ الْأُولَى
 وَلَتَغْنَنَّ مَعَ عُصْفُورِ الصَّبَاحِ
 فِي أَمَلٍ بِهِجٍ .

(26)

الْمُتَسَوِّلُ الَّذِي فِي أَعْمَاقِي
 رَفَعَ يَدَيْهِ الْمُتَوَاضِعَتَيْنِ
 إِلَى السَّمَاءِ الْخَالِيَةِ مِنَ النُّجُومِ
 وَصَرَخَ فِي أُذُنِ اللَّيْلِ
 بِصَوْتِهِ الْوَاهِنِ الضَّعِيفِ
 مُتَوَجِّهًا بِصَلَوَاتِهِ
 إِلَى الظُّلْمَةِ الْعَمِيَاءِ الَّتِي تَمْتَدُّ

مِثْلَ إِلَه سَقَطَ فِي سَمَاءٍ مُوحِشَةٍ
 بِأَمَالِهَا الضَّائِعَةِ
 وَأَخَذَ صَوْتُ الرُّغْبَةِ
 يَحُومُ حَوْلَ هَاوِيَةِ الْيَأْسِ
 مِثْلَ طَائِفٍ مُرْتَعِشٍ
 يُحَلِّقُ حَوْلَ عُشِّ الْمَهْجُورِ
 وَلَكِنْ، حِينَ أَلْقَى الصَّبَاحُ مَرَاسِيَهُ
 عَلَى حَافَةِ الشَّرْقِ
 قَفَزَ الْمُتَسَوِّلُ الَّذِي فِي أَعْمَاقِي
 صَارِخًا:
 مَا أَسْعَدَنِي بِحَظِّي!
 لَقَدْ رَفَضَنِي اللَّيْلُ الْأَصَمُّ
 وَتَكَشَّفَتْ خَزَائِنُهُ عَنِ خُوءٍ.
 وَصَرَخَ:
 أَيَّتُهَا الْحَيَاةُ

أَيُّهَا الثُّورُ

مَا أَغْلَاكُمْ!

وَمَا أَغْلَى الْفَرْحَةَ الَّتِي عَرَفْتُهَا

فِي النَّهَائِيَةِ! ..

(27)

كَانَ النَّاسِكُ سَنَاتَانِ

يَسْبَحُ عِنْدَ ضِفَّةِ نَهْرِ الْكِنجِ

حِينَ اقْتَرَبَ مِنْهُ بَرَّهْمِيُّ رَثُ الثِّيَابِ قَائِلًا:

إِنِّي فَقِيرٌ . سَاعِدْنِي

قَالَ سَنَاتَانِ:

كُلُّ مَا أَمْلِكُهُ هُوَ هَذَا الْوِعَاءُ الَّذِي أَجْمَعُ

فِيهِ الصَّدَقَاتِ . وَقَدْ أُعْطِيتُ كُلُّ مَا عِنْدِي

قَالَ الْبَرَّهْمِيُّ:

لَقَدْ بَدَأَ الْإِلَٰهَ (شَيْفَا) فِي حُلْمِي وَنَصَحَنِي

بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْكَ
 وَتَذَكُّرِ النَّاسِكِ سَنَاتَانِ فَجَاءَهُ
 أَنَّهُ قَدْ التَّقَطَّ حَجَرًا نَفِيسًا لَا يَقْدَرُ بِشَمَنِ
 بَيْنَ صُخُورِ ضِيقَةِ النَّهْرِ
 وَأَخْفَاهُ فِي التُّرَابِ تَوَقُّعًا لِحَاجَةٍ
 بَعْضِ النَّاسِ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ
 وَأَرْشَدَ الْبَرَّهَمِيُّ إِلَى الْمَكَانِ
 حَيْثُ حَفَرَ، وَفِي دَهْشَةٍ
 عَثَرَ عَلَى الْحَجَرِ الثَّمِينِ
 وَجَلَسَ الْبَرَّهَمِيُّ عَلَى الْأَرْضِ
 يَتَأَمَّلُ فِي صَمْتٍ وَسُكُونٍ
 حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ خَلْفَ أَعْصَانِ الشَّجَرِ
 وَعَادَ الرُّعَاةُ إِلَى بُيُوتِهِمْ
 يُسَوِّقُونَ قُطْعَانَهُمْ
 وَجِيئَتْ نَهْضُ، وَأَقْبَلَ يَهْلُوهُ

عَلَى سَنَانٍ وَقَالَ لَهُ:
 أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ ، أَعْطِنِي قَلِيلاً مِنَ الثَّرْوَةِ
 الَّتِي تَحْتَضِرُ ثُرَوَاتِ الْعَالَمِ ،
 قَالَ ذَلِكَ ، وَأَلْقَى ذَلِكَ الْحَجَرَ
 الثَّمِينِ فِي الْمَاءِ .

(28)

مَرَّاتٍ عَدِيدَةً
 وَقَفْتُ عِنْدَ بَابِكَ
 مُلْتَمِساً الْمَزِيدَ ، ثُمَّ الْمَزِيدَ مِنْ عَطَائِكَ
 وَلَقَدْ أَعْطَيْتَنِي
 وَمَنْحَتَنِي
 أَحْيَاناً بِمُقْدَارٍ
 وَأَحْيَاناً بِكَرَمٍ بَاهٍ
 وَتَنَاوَلْتُ بَعْضَ مَا مَنْحَتَنِي

وَتَرَكْتُ الْبَعْضَ الْآخَرَ يَتَسَاقَطُ
فَبَعْضُ هَذِهِ الْعَطَايَا أَنْقَلَتْ يَدَيَّ
وَصَنَعَتْ مِن بَعْضِهَا الْآخَرَ
دُمَى حَطْمَتُهَا حِينَ بَرِمْتُ بِهَا
وَقَامَتْ مِنَ الْحُطَامِ
وَمِن عَطَايَاكَ الْوَافِرَةِ
أَكْوَامُ ضَحْمَةٍ
حَجَبَتْكَ عَنِّي
وَالْآنَ نَيْطَارُ الْمُرْهَقُ مَرْقَ قَلْبِي
وَتَعَالَتْ صَرَخَتِي
خُذْ عَنِّي خُذْ
وَالْآنَ فَوْرًا
دَمْرٌ قَدْحَ الشَّحَاذِ الْمُتَسَوِّلِ
وَاطْفِئْ هَذَا الْمَصْبَاحَ الْوَلْحَاحَ
السَّاهِرَ بِلاَ مَعْنَى

وَأَمْسِكَ بِبَيْدِي

وَاخْرُجْنِي مِنْ هَذَا الرُّكَّامِ الْمُتَزَايِدِ

مِنْ عَطَايَاكَ

وَارْفَعْنِي إِلَى اللَّائِنَهَائِيَّةِ الْمُجَرَّدَةِ

لِحُضُورِكَ غَيْرِ الْمُتَوَجِّهِ . .

(29)

لَقَدْ وَضَعْتَنِي ضِمْنَ الْمَهْزُومِينَ

وَإِنِّي لِأَعْرِفُ أَنَّ النُّصْرَ لَيْسَ قَدَرِي

وَلَا التَّوَكُّفُ عَنْ الْمُقَامَرَةِ

سَأَلْتَنِي بِنَفْسِي فِي الرَّحْلِ

مَنْ أَجَلٍ أَنْ الْمُسَّ الْقَاعُ

وَأَرَاهِنَ عَلَى دِمَارِي

وَسَارَاهِنُ بِكُلِّ مَا أُمْلِكُ

وَحِينَ أَتَقَبَّدُ الْفُلْسَ الْأَخِيرَ

سَأَوْقِنَ حِينَئِذٍ

بَأَنِّي انتَصَرْتُ
بِفَضْلِ هَزِيمَتِي الثَّامَةِ .

30

ابْتِسَامَةً مِنَ الْبَهْجَةِ عَمَّتْ أَرْجَاءَ السَّمَاءِ
حِينَ كَسَوْتَ قَلْبِي ، أَسْمَالاً بَالِيَةً
وَأَرْسَلْتَهُ لِيَسْتَجْلِي فِي الطُّرُقَاتِ .
لَقَدْ تَنَقَّلَ مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ
وَلَكِنْ مَا يَكَادُ وَعَاؤُهُ يَمْتَلِئُ
حَتَّى يُسْرِقَ .
وَفِي نِهَايَةِ الْيَوْمِ الطَّوِيلِ
وَصَلَ إِلَى بَابٍ قَصِيرٍ

رَافِعاً وَعَاءَهُ الْحَقِيرَ
وَحِينَئِذٍ نَزَلَتْ مِنْ عَلَيَّاكَ
وَأَخَذْتَ بِيَدِي
ثُمَّ أَجْلَسْتَهُ عَلَى الْعَرْشِ .
حِينَ فَكَّرْتُ فِي أَنْ أَصُورَ لَكَ
نُمُودَجًا مُقْتَبَسًا مِنْ حَيَاتِي
يَعْبُدُكَ النَّاسُ فِيهِ
تَنَاولْتُ تُرَابِي وَرَعْبَاتِي
وَكُلُّ أَوْهَامِي وَأَحْلَامِي الزَّاهِيَةِ الْمُلَوَّنَةِ
وَحِينَ طَلَبْتُ إِلَيْكَ
أَنْ تَصُورَ مِنْ حَيَاتِي نُمُودَجًا مُقْتَبَسًا مِنْ قَلْبِكَ
رَأَيْتُكَ تَتَنَاولُ نَارَكَ وَقُوَّتَكَ
وَحَقِيقَتَكَ وَنِعْمَتَكَ وَسَلَامَكَ .

31

حِينَ اجْتَاكَتِ الْمَجَاعَةُ بِلَدَةَ شَارَفُسْتِي

سَأَلَ بُوْذَا أَتْبَاعَهُ :

مَنْ مِنْكُمْ سَيُطْعِمُ الْجَائِعِينَ؟

فَحَنَى الثَّرِيُّ (راتناكار) رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ :

إِنْ ثَرَوَتِي كُلُّهَا لَا تَكْفِي لِإِطْعَامِ الْجَائِعِينَ

أَمَّا (جَايس) فَابْتَدَأَ جَيْشُ الْمَلِكِ فَقَالَ :

وَدِدْتُ لَوْ بَذَلْتُ دَمِي ، وَلَكِنْ لَا يَتَوَقَّرُ

طَعَامٌ كَافٍ فِي بَيْتِي .

وَتَنَهَّدَ (دارما بال) الَّذِي يَمْلِكُ أَرْضِي شَاسِعَةً :

إِنْ شَيْطَانُ الْجَفَافِ قَدْ أَصَابَ حُقُولِي

كُلُّهَا بِالْجَفَافِ . وَلَا أَدْرِي كَيْفَ أَسَدُّ

الضَّرَائِبَ لِلْمَلِكِ

وَعِنْدَيْهِ نَهَضَتْ (سوبريا) ، ابْنَةُ الْمُتَسَوِّلِ

وَقَالَتْ بِلُطْفٍ . . أَنَا سَأُطْعِمُ الْجَوْعَى

وَاسْتَغْرَبَ الْجَمِيعُ قَوْلَهَا وَهَتَفُوا

بِهَا مُتَسَائِلِينَ . . كَيْفَ يُمَكِّنُكَ تَحْقِيقُ

هَذَا التَّنْذِرُ؟

قَالَتْ (سُوْبِرِيَا) :

إِنِّي أَفْقَرُكُمْ جَمِيعًا . . وَتِلْكَ هِيَ قُوَّتِي
أَمَّا الْمَالُ وَمَخَازِنُ الْقَمْحِ فَسَاجِدُهَا
فِي بَيْتِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ .

(32)

لَمْ أَعْرِفْ مَلِيكِي
وَجِئْتُ طَلَبَ مِنِّي زَكَاتُهُ
ظَنَنْتُ أَنَّهُ يُمَكِّنُنِي الْإِخْتِفَاءُ
وَتَرَكْتُ دُيُونِي قَائِمَةً
وَإِخْتِبَاتٌ وَأَمَعَنْتُ فِي الْإِخْتِبَاءِ
خَلَفَ الْعَمَلُ الْيَوْمِيَّ
وَسِرْتُ وَرَاءَ أَحْلَامٍ لَيْلِي
وَلَكِنْ طَلَبَاتِهِ كَانَتْ تُلَاحِظُنِي

وَتَتَابِعُ كُلَّ نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِي
وَهَكَذَا أَدْرَكْتُ أَنَّهُ يَعْرِفُنِي
وَأَنَّهُ لَيْسَ لِي مَكَانٌ أَدْعِيهِ
وَالآنَ فَلْيَأْتِي أَرْغَبُ فِي أَنْ أَضَعَ
كُلَّ مَا أَمْلِكُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ
لِكَيْ أَظْفِرَ بِحَقِّ الْحُصُولِ
عَلَى مَكَانٍ فِي مَمْلَكَتِهِ . .

(34)

أَعْلَنَ خَادِمُ الْمَلِكِ :
يَا مَوْلَايَ . . إِنْ الْقَدِيسَ (نُورًا تَامًا)
لَمْ يَتَنَزَّلْ يَوْمًا لِلدُّخُولِ فِي مَعْبَدِكَ الْمَلِكِيِّ
إِنَّهُ يُرْتَلُّ صَلَوَاتُهُ الْمَرْفُوعَةَ إِلَى اللَّهِ
تَحْتَ الْأَشْجَارِ الَّتِي تَحْفُ بِطُولِ الطَّرِيقِ
وَالْمَعْبَدُ خَالٍ مِنَ الْعَابِدِينَ

وَهُمْ يَتَجَمَّعُونَ حَوْلَهُ كَمَا يَتَجَمَّعُ النَّحْلُ
 حَوْلَ زَهْرَةِ اللُّوتِ الْبَيْضَاءِ
 غَيْرِ عَابِي. بِجَرَّةِ الْعَسَلِ الدَّهْيِيَّةِ.
 وَأَحْسُ الْمَلِكُ يَهْدِيهِ الْمُعَارَضَةُ
 فَذَهَبَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَجْلِسُ فِيهِ
 نُورَاتَامُ، فَوْقَ الْأَعْشَابِ، وَسَأَلَهُ:
 أَيُّهَا الْآبُ
 لِمَاذَا تَتَخَلَّى عَنْ مَعْبَدِي ذِي الْقُبَّةِ
 الدَّهْيِيَّةِ، وَتَجْلِسُ هُنَا فَوْقَ التَّرَابِ
 لِتُصَلِّيَ حُبًّا لِلَّهِ؟
 فَأَجَابَ نُورَاتَامُ:
 لِأَنَّ اللَّهَ لَا يُوجَدُ فِي مَعْبَدِكَ
 فَظَنَرُ إِلَيْهِ الْمَلِكُ مُتَجَهِّمًا وَقَالَ:
 أَتَعْلَمُ أَنَّهُ كَلَّفَنِي عِشْرِينَ مِليونَ
 قِطْعَةٍ دَهْيِيَّةٍ بِنَاءِ ذَلِكَ الْعَمَلِ الرَّائِعِ؟

وَأَنَّهُ قَدْ كُرِّسَ لِلَّهِ بِمَرَامِسٍ غَالِيَةٍ .

قَالَ نُورَانًا :

أَجَلٌ . . إِنِّي أَعْرِفُ ، وَأَعْرِفُ أَنَّهُ

فِي ذَلِكَ الْعَامِ كَانَ آلاَفُ مِنْ رَعَايَاكَ

الَّذِينَ حُرِّقَتْ بُيُوتُهُمْ يَطْلُبُونَ الْعَوْنَ

عَبْدًا أَمَامَ بَابِكَ

وَقَالَ اللَّهُ حِينَئِذٍ :

إِنَّ الْمَخْلُوقَ الضَّعِيفَ الَّذِي لَمْ يَسْتَطِعْ

أَنْ يُقَلِّمَ مَأْوَى لِإِخْوَانِهِ ، يُرِيدُ الْيَوْمَ

أَنْ يَنْبِيَّ مَعْبِيَّي ؟

وَأَقَامَ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتُ مَعَ النَّاسِ

الَّذِينَ لَا مَأْوَى لَهُمْ ، تَحْتَ الْأَشْجَارِ

الْمُمْتَدَّةِ عَلَى الطَّرِيقِ .

إِنَّ تِلْكَ الْقُبَّةَ الذَّهَبِيَّةَ مُنْتَضِحَةٌ

بِكِبْرِيَاكَ الْفَارِغَةِ !

وَصَرَخَ الْمَلِكُ غَاضِياً
أَتْرَكَ بَلَدِي
فَأَجَابَهُ الْقَدِيسُ بِهُدُوءٍ:
أَجَلْ ، سَرُدْنِي أَنَا الْآخَرُ
كَمَا سَرُدْتَ إِلَهِي .

(35)

الْبُوقُ جَائِمٌ فَوْقَ التُّرَابِ
وَالرِّيحُ مُتَعَبَةٌ
وَالثُّورُ قَدْ مَاتَ
آه يَا لَهُ مِنْ يَوْمٍ فَطِيعٍ
تَعَالَوْا أَيُّهَا الْمُحَارِبُونَ
حَامِلِينَ أَعْلَامَكُمْ
وَتَعَالَوْا أَيُّهَا الْمُنْشِدُونَ
بِأَنَاشِيدِكُمُ الْحَرْبِيَّةِ

تَعَالَوْا يَا حُجَّاجَ الزُّحْفِ
وَعَجِّلُوا فِي خَطْوِكُمْ
فَإِنَّ الْبُوقَ الْجَائِمَ فَوْقَ الْأَرْضِ
فِي انْتِظَارِكُمْ
كُنْتُ مُتَوِّجَهَا إِلَى الْمَعْبَدِ
حَامِلًا هِبَاتِي الْمَسَائِيَّةَ
بَاجِئًا عَنْ مَكَانٍ أُسْتَرِيعُ إِلَيْهِ
بَعْدَ عَنَاءِ الْعَمَلِ الْيَوْمِيِّ
أَمِلًا أَنْ تُشْفَى جِرَاحِي
وَتُغْسَلَ اللَّطَخَاتُ عَنْ ثِيَابِي
حِينَ صَادَفَنِي بُوقُكَ
الْجَائِمُ فَوْقَ التُّرَابِ
أَلَمْ تَجِنِّ بَعْدَ السَّاعَةِ الَّتِي
أَوْقَدَ فِيهَا عَادَةٌ شَمْعَتِي الْمَسَائِيَّةَ ؟
أَلَمْ يُغْنِ اللَّيْلُ بَعْدَ تَرْيِمَةِ

النُّومِ لِلنُّجُومِ ؟
 آه ، أَنْتِ أَيْتَهَا الْوَرْدَةُ الْحَمراءِ
 مِثْلَ الدَّمِ
 إِنْ أَحْلَامَ نَوْمِي
 قَدْ ذُبُلْتَ وَشَجُبْتَ
 إِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ
 بِأَنْ طَوَافِي قَدْ انْتَهَى
 وَأَنْ دُيُونِي قَدْ سُدَّتْ
 حِينَ وَقَعْتُ صُدْفَةً عَلَى ذَلِكَ
 الْبُوقِ الْجَائِمِ فَوْقَ التُّرَابِ .
 فَهَزُّ قَلْبِي النَّاعِسِ
 يَسْحَرُكَ الشَّابِ
 لِيَسْتَقِظَ بِهَجَّةِ الْحَيَاةِ فِي نَفْسِي
 وَتَتَأَجَّجُ .
 وَمِهِامُ الْيَقْظَةِ تَطِيرُ عَبْرَ قَلْبِ اللَّيْلِ

ورعشة من الرعب تُهزُّ العمى
والشللَ .

لقد جئتُ لِكَي أرفعَ
بُوقَكَ الجَائِمَ في الترابِ
فالنَّوْمُ لَمْ يَعدْ مُلائِماً لي
سَأزْحَفُ تَحْتَ سَحَابَةٍ من السَّهَامِ
بَعْضُهُمْ سَيَخْرُجُ مُسْرِعاً مِنْ بَيْتِهِ
وَيَسِيرُ إِلَى جَانِبِي

وبعضُهُمْ سَوْفَ يَبْكِي
وبَعْضُهُمْ سَيَتَقَلَّبُ فِي أَسْرِتِهِ
وَيَفْرَقُ فِي أَحْلَامِ رَهْبَةٍ
ذَلِكَ لِأَنَّهُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ
سَيَنْفَخُ فِي بُوقِكَ
لَقَدْ طَلَبْتُ إِلَيْكَ السَّلَامَ
لِكَي أَجِدَ فَقَطِ الْعَارَ

والآن أمثلُ أَمَامَكَ
فَاعْنِي عَلَى ارْتِدَاءِ الدَّرْعِ
وَأَنْ ضَرْبَاتِ قَاسِيَةٍ مِنَ الْأَلَمِ
سَتُلْهِبُ حَيَاتِي
وَأَنْ يَنْقُ قَلْبِي فِي أَلَمِهِ
طَبَلَ النَّصْرِ
وَسَتَفْرُغُ يَدَايَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
مِنْ أَجْلِ أَنْ تُنْسِكَ بِبُوقِكَ

(36)

أَيُّهَا الْجَوِيلُ
حِينَ اسْتَوْلَى عَلَيْهِمْ جُنُودُ الْفَرَحِ
فَرَفَعُوا الْوَحْلَ يُلَطِّحُونَ بِهِ ثَوْبَكَ
حَزَّ ذَلِكَ فِي نَفْسِي
وَهْتَفْتُ بِكَ

خُذْ سَوْطَ عَذَابِكَ وَاقْتَصْ مِنْهُمْ
 إِنْ نُورَ الصَّبَاحِ أَعْشَى عِيُونَهُمْ
 الْمُحْمَرَّةَ بِفُجُورِ اللَّيْلِ
 وَتَعَالَتْ أَنْفُسُهُمُ الْمُحْرِقَةُ عَلَى أَرِيحِ السَّوْسَنِ
 الْأَبْيَضِ
 وَكَانَتِ النُّجُومُ عَبْرَ عُمُقِ الظُّلْمَةِ الْمُقَدَّسَةِ
 تَتَأَمَّلُ قَصْفَتَهُمُ الصَّاحِبَ
 أُولَئِكَ الَّذِينَ رَفَعُوا الْوَحْلَ
 لِيُلَطَّخُوا بِهِ ثَرْبَكَ
 أَيُّهَا الْجَمِيلُ
 وَكَانَ عَرْشُ قَضَائِكَ يَرْتَفِعُ فِي حَدِيقَةِ الزُّهُورِ
 فِي نَعَمَاتِ الْحَانِ طُيُورِ الرِّيعِ
 وَفِي ضِيْفَانِ النَّهْرِ الظَّلِيلَةِ
 حَيْثُ حَفِيفُ الشَّجَرِ يَتَجَاوَبُ
 مَعَ هَدِيرِ الْأَمْوَاجِ

أَيُّهَا الْعَشِيقُ
 فِي غِيْهِمْ نَفَسَتْ الرَّحْمَةُ .
 وَفِي جَنْحِ الظَّلَامِ
 انْتَزَعُوا حَلِيْكَ لِكَيْ يُزَيَّنُوا
 بِهَا نَزَوَاتِهِمْ .
 وَحِينَ ضَرَبُوكَ وَالْمَوْتَ
 أَحْسَسْتُ بِالطَّعَنَاتِ فِي جَسَدِي
 وَهَتَفْتُ بِكَ
 خُذْ سَيْفَكَ يَا عَشِيقِي
 وَاقْتَصِرْ مِنْهُمْ
 وَكَانَ عَذْلُكَ سَاهِرًا
 لَقَدْ ذَرَفَتْ إِحْدَى الْأَمْهَاتِ دُمُوعَهَا
 عَلَى وَقَاحَتِهِمْ
 وَالْإِيمَانَ الْخَالِدَ لِإِحْدَى الْعَشِيقَاتِ
 قَدْ أَعْمَدَ سِيَّاهُ نُورَتِهِمْ فِي جِرَاحِهِمْ

نَفْسِهَا .

لَقَدْ كَانَ قَصَاصُكَ فِي الْأَلَمِ الصَّامِتِ

لِلْحُبِّ الْيَقْظَانِ

فِي حُمْرَةِ الطُّهْرِ

فِي الدُّمُوعِ اللَّيْلِيَّةِ

لِلْإِنْسَانِ الْيَائِسِ

وَفِي النُّورِ الشَّاحِبِ لِغُفْرَانِ الصَّبَاحِ

أَيُّهَا الرَّهِيْبُ . . إِنَّهُمْ فِي جَسَدِهِمْ

الْكِرِيهِ قَدْ هَجَمُوا عَلَى خَزَائِنِكَ

لِكَيْ يَنْهَبُوا مَا لَدَيْكَ

وَلَكِنْ عَبَاءَ الْغَنَائِمِ كَانَ ثَقِيلاً

أَثْقَلَ مِنْ قُدْرَتِهِمْ عَلَى حَمْلِهِ

حِينَئِذٍ هَتَفْتُ بِكَ اغْفِرْ لَهُمْ

أَيُّهَا الرَّهِيْبُ

فَتَضَجَّرَ صَفْحُكَ فِي عَوَاصِفِ

أَلْقَتْ بِهِمْ إِلَى الْأَرْضِ
وَتَعَثَّرَتْ أَسْلَابُهُمْ فِي التَّرَابِ
لَقَدْ كَانَ غَفْرَانُكَ فِي صَخْرَةِ الرِّعْدِ
وَفِي مَطَرِ الدَّمِّ
وَفِي لَوْنِ الْغُرُوبِ الْخَضِيبِ
الْغَاصِبِ

37

كَانَ (أَوْ بَاغُوتَا) يَلْمِذُ بُودَا
مُضْطَجِعاً فَوْقَ التَّرَابِ
قُرْبَ سُورِ مَدِينَةِ (مَاتُورَا)
وَكَانَتْ الْمَصَابِيحُ كُلُّهَا مُطْفَأَةً
وَكُلُّ النُّجُومِ مُخْتَبِئَةً
فِي سَمَاءِ أَعْسُطَسَ الْمُظْلِمَةِ .
فَمَنْ هَلِهُ الْتِي لَأَمَسَتْ بِخَلَاخِيلِهَا

صَدْرَهُ فَجَاءَهُ؟

اسْتَيْقَظَ مَذْعُوراً

وَالثَّوْرَ الْمُرتَجِفُ الْمُنْبَعِثُ مِنْ مِصْبَاحِ امْرَأَةٍ

قَدْ بَهَرَ عَيْنَيْهِ الطَّافِحَتَيْنِ بِالتَّسَامُحِ

وَالْغَفْرَانِ .

كَانَتْ الرَّاقِصَةُ

وَقَدْ غَطَّتْهَا الْجَوَاهِرُ وَالْحُلِيِّ

وَقَدْ التَّقَتِ بُرُوسٍ أَزْرَقَ شَاحِبٍ

نَشَوَى بِخَمْرِ شَبَابِهَا الْفَيَاضِ

وَحَفِضَتْ مِصْبَاحَهَا

فَرَأَى مُحْيَاها الشَّابَّ وَقَدْ اكْتَسَى

مِسْحَةً مِنْ جَمَالٍ مُتَوَاضِعٍ

وَقَالَتْ لَهُ :

اعْفِرْ لِي أَيُّهَا الْفَتَى النَّاسِكُ

إِنِّي أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ أَنْ تَأْتِيَ إِلَى بَيْتِي

فَهَذِهِ الْأَرْضُ الْجُرْدَاءُ
 لَيْسَتْ فِرَاشًا لَا يُقَامُ بِكَ
 فَأَجَابَهَا النَّاسِكُ:
 أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ ، امْضِي فِي طَرِيقِكَ
 وَحِينَ يَأْزِفَ الْوَقْتُ ، سَأَتِي
 إِلَيْكَ .
 وَفَجْأَةً
 كَشَفَ اللَّيْلُ الْحَالِكُ عَنْ أَنْيَابِهِ
 فِي بَرِيقِ الرَّعْدِ
 وَزَمْجَرَتِ الْعَاصِفَةُ فِي أَرْجَاءِ السَّمَاءِ
 وَارْتَجَفَتِ الْمَرْأَةُ رُعْبًا
 وَعَلَى حَافَةِ الطَّرِيقِ
 كَانَتْ أَغْصَانُ الْأَشْجَارِ تُنَوُّ بِزُهُورِهَا
 وَنُغَمَاتُ جَذَلَى تُنْسَابُ مِنْ نَائِي
 بِعَيْلٍ

فِي جَوْ الرُّبْعِ الْفَاتِرِ
 وَتَوَجَّهَ النَّاسُ إِلَى الْغَابَاتِ
 احْتِفَالاً بِعِيدِ الزُّهْرِ الْبَهِيحِ
 وَفِي كَيْدِ السَّمَاءِ، كَانَ الْبَدْرُ
 يُحَلِّقُ فِي ظِلَالِ الْمَدِينَةِ الصَّامِتَةِ .
 كَانَ النَّاسُكَ يَسِيرُ فِي الطَّرِيقِ الْمَهْجُورَةِ
 وَفَوْقَ رَأْسِهِ كَانَتْ طَيُورُ الْكُوسِ
 الْوَلَهَى تُرْدُّدُ شَكَايَتَهَا السَّاهِرَةَ
 عَلَى أَغْصَانِ الْمَانِجَا
 وَاجْتَازَ أَوْبَاغُوبِنَا بَوَابَاتِ الْمَدِينَةِ
 وَوَقَفَ عِنْدَ قَاعِلَةِ الْقَلْعَةِ .
 مَنْ هِيَ هَذِهِ الْمَرْأَةُ الَّتِي تَضْطَجِعُ
 فِي ظِلَالِ السُّورِ، وَقَدْ أَصَابَهَا
 الطَّاعُونُ الْأَسْوَدُ فِي جِسْدِهَا
 الْمَكْسُورِ بِالْجِرَاحِ ، وَقَدْ عَجَّلُوا بِإِبْعَادِهَا

عن المَدِينَةِ؟
وَجَلَسَ النَّاسِكُ إِلَى جَوَارِهَا
وَاضِعاً رَأْسَهَا فَوْقَ رُكْبَتَيْهِ
مُبَلِّلاً شِفَاهَهَا بِالْمَاءِ
وَدَهَنَ جَسَدَهَا بِالْمَرْهَمِ .
سَأَلَتِ الْمَرْأَةُ :
مَنْ أَنْتَ . . أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ الرَّحِيمُ ؟
فَأَجَابَهَا النَّاسِكُ الشَّابَّ
وَأَخِيرَ أَزَفِ الْوَقْتِ
الَّذِي أَزُورُكَ فِيهِ
إِنِّي هُنَا قَرِيبٌ مِنْكَ

(38)

لَمْ يَكُنْ هَذَا مُجَرَّدَ عِثِّ غَرَامِي بَيْنَنَا
يَا حَبِيبِي

لَقَدْ عَصَفَتْ بِي
 مِثَّةَ مَرَّةٍ
 اللَّيَالِي الصَّارِخَةُ بِالْعَوَاصِفِ
 مُطْفِئَةً مِصْبَاحِي
 وَتَجَمَّعَتِ الشُّكُوكُ الْقَاتِمَةُ
 لِتَمْحُوَ جَمِيعَ النُّجُومِ مِنْ سَمَائِي .
 مِثَّةَ مَرَّةٍ
 حَطَمَ النَّهْرُ سُودَهُ
 تَارِكًا لِفَيْضَانِهِ جُرْفَ مَحَاصِيلِي
 فَمَزَّقَتِ الشُّكُوكُ وَالْيَاسُ
 أَرْجَاءَ سَمَائِي
 مِنَ الْقِمَّةِ حَتَّى الْقَاعِ
 وَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْ ذَلِكَ :
 أَنَّ الضَّرَبَاتِ الْمُؤَلِمَةَ
 قَدْ تَأْتِي مِنْ حُبِّكَ

وَلَكِنْ لَا يَأْتِي مِنْهُ
جُمُودُ الْمَوْتِ الْقَائِلِ

39

إِنَّ الْجِدَارَ لَيَنْشَقُّ
وَيَنْدَفِعُ النُّورُ
كَأَنَّهُ الضَّحَكَةُ الْقُدُسِيَّةُ
النُّصْرُوكُ . . أَيُّهَا النُّورُ
إِنْ قَلَبَ اللَّيْلَ لَمْوَجَعُ
فَاشْطُرْ بِسَيْفِكَ اللَّامِعِ الْبَتَّارِ
عُقْدَةُ الشُّكِّ، وَالرَّغَبَاتِ الْحَائِرَةِ
النُّصْرُوكُ
تَعَالِ أَيُّهَا الْعَيْنِدُ
فِي نَصَاعَتِكَ الْبَيْضَاءِ
تَعَالِ أَيُّهَا الرَّهِيْبُ الْبَيَاضُ

أَيُّهَا الثَّورُ
 إِنْ طَبَّلَكَ لَيُفْرِعَ مُوَكِبًا زَحْفَ النَّارِ
 وَالشُّعْلَةَ الْحَمْرَاءَ عَالِيَةً مَرْفُوعَةً
 إِنْ الْمَوْتُ يَمُوتُ
 فِي تَفْجُرِ الرُّوْعَةِ .

40

أَيُّهَا النَّارُ
 إِنِّي أَتَغْنَى بِإِنْتِصَارِكِ
 أَنْتِ صُورَةُ مُلْتَهَبَةٍ لِلْحُرِّيَةِ الْمُخِيفَةِ
 إِنَّكَ تُمَدِّينَ ذِرَاعَيْكِ إِلَى السَّمَاءِ
 وَتَلْمَسِينَ بِأَصَابِعِكَ الْغَائِرَةَ
 أَوْتَارَ الْعِزِّ
 إِنَّهَا لَرَّائِعَةٌ ، مُوسِيقَى رَفِصَتِكَ
 وَحِينَ تَنْتَهَى أَيَّامِي
 وَتُفْتَحُ الْأَبْوَابُ

فَإِنَّكَ سَتَحْرِقِينَ خُيُوطَ يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ
فَتَصِيرُ إِلَى رَمَادٍ
وَيَنْصَهَرُ جَسَدِي فِيكَ
مُؤَلَّفًا كَأَيْنَا وَاحِدًا
وَسَتَعْصِفُ بِي فَوْرَتُكَ الْجُنُونِيَّةُ
وَتَلِكِ الْجَذْوَةُ الْمُتَّقِدَةُ الَّتِي كَانَتْ حَيَاتِي
سَتُلْتَهَبُ مُنْذِمَجَةً فِي لَهْيِكَ .

(41)

الْمَلَأُ فِي الْخَارِجِ
يَمَحُورُ الْبَحْرَ الْعَاصِيفَ فِي جُنْحِ اللَّيْلِ
وَالسَّارِيَةِ تَرْتَجِفُ تَحْتَ الرِّيحِ الْعَنِيفَةِ
الَّتِي تَفْتَحُ الْأَشْرَعَةَ
وَالسَّمَاءَ وَقَدْ عَضَّتْهَا أَسْنَانُ اللَّيْلِ
تَسْقُطُ فَوْقَ الْبَحْرِ الْمُتَسَمِّمِ بِالرُّعْبِ الْأَسْوَدِ
وَذَرَى الْأَمْوَاجَ تَتَحَطَّمُ ضِدَّ الظَّلَامِ الْأَمْنُظُورِ

والمَلَّاحُ فِي الْخَارِجِ

يَمْخُرُ الْبَحْرَ الْعَاصِفَ

والمَلَّاحُ فِي الْخَارِجِ

لَا أَذْرِي لَأَيِّ مَوْعِدٍ

يُوقِظُ اللَّيْلَ بِمَفَاجَاةٍ أَشْرَعَتْهُ الْبَيْضَاءُ

لَا أَذْرِي فِي أَيِّ شَاطِئٍ سَتَرَسُو

لِيَبْلُغَ الرُّحْبَةَ الصَّامِتَةَ بِمَصِيحِهَا الْمَضَاءُ

حَيْثُ يَلْقَى تِلْكَ الَّتِي تَقْتَعِدُ التَّرَابِ

فِي انْتِظَارِهِ

أَيَّ هَدَفٍ هَذَا الَّذِي يَجْعَلُ قَارِبَهُ

غَيْرَ عَابِيٍّ بِالظُّلْمَةِ وَالْعَاصِفَةِ؟

تُرَاهُ مُثْقَلًا بِالْجَوَاهِرِ أَوِ اللَّالِي

كَلَّا، إِنْ الْمَلَّاحُ لَا يَحْمِلُ مَعَهُ أَيَّ كَنْزٍ

وَلَكِنَّهُ يَحْمِلُ وَرْدَةً بَيْضَاءَ فِي يَدِهِ

وَأُغْنِيَهُ عَلَى شَفْتَيْهِ

إِنَّهُمَا لَهَا، لِئِنَّكَ الَّتِي تَنْتَظِرُ وَجِيدَةً
 فِي اللَّيْلِ بِمُصْبَاحِهَا الْمُنِيرِ
 إِنَّهَا تَسْكُنُ فِي كُوحٍ.
 عَلَى حَافَةِ الطَّرِيقِ الْمَهْجُورَةِ
 وَشَعْرُهَا الْمُبَدَّدُ يَتَطَايَرُ مَعَ الرِّيحِ
 وَيَحْجُبُ عَيْنَيْهَا
 وَالْعَاصِيفَةُ تُزْمَجِرُ عَبْرَ أَبْوَابِهَا الْمُشْرَعَةِ
 وَيَرْتَجِفُ النُّورُ فِي مُصْبَاحِ
 مُلْقِيَا ظِلَالاً عَلَى الْجُدْرَانِ
 وَعَبْرَ عَوِيلِ الرِّيحِ كَأَنَّكَ تَسْمَعُ صَوْتَهُ
 يَتَرَامَى إِلَيْهَا وَيَهْتَفُ بِاسْمِهَا
 هِيَ الْمَجْهُولَةُ الْاسْمِ
 لَقَدْ أَقْلَعَ الْمَلَأَحُ مِنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ
 وَيَنْبَغِي أَنْ يَمْرُوقَتْ طَوِيلُ
 قَبْلَ أَنْ يَنْبِلِجَ الصَّبَّاحُ

وَيَأْتِي هُوَ لِيَطْرُقَ بَابَهَا
وَلَنْ يَعْرِفَ أَحَدٌ بِمَقْدَمِهِ
النُّورُ وَخَلْدُهُ هُوَ الَّذِي سَيَمْلَأُ النَّيْتُ
وَسَيَكُونُ التَّرَابُ مُبَارَكًا وَالْقَلْبُ سَعِيدًا
وَكُلُّ شَيْءٍ سَيَبْدُدُ فِي صَمْتٍ
حِينَ يَتْلُغُ الْمَلَأُ الشَّاطِئَةَ.

(42)

إِنِّي أَتَشَبَّهْتُ
بِهَذِهِ الْعَوَامَةِ الْحَيَّةِ الَّتِي هِيَ جَسَدِي
فِي الْمَعْجَرِ الضَّيِّقِ لِأَعْوَامِي الْأَرْضِيَّةِ
سَأَتْرُكُهَا بَعْدَ انْتِهَاءِ الْعُبُورِ
نُفْ؟

لَا أَذْرِي إِذَا كَانَ النُّورُ وَالظُّلَامُ
هُنَاكَ سَيَكُونَانِ نَفْسَ النُّورِ وَالظُّلَامِ
إِنَّ الْمَجْهُولَ هُوَ الْحُرِّيَّةُ الْخَالِدَةُ

وَحُبُّهُ بَغِيضٌ إِلَى النَّفْسِ
 إِنَّهُ يُحَطِّمُ الصَّدَقَةَ لِلْحُصُولِ عَلَى اللُّؤْلُؤَةِ
 السَّاكِنَةِ فِي سِجْنِ الظَّلَامِ
 إِنَّكَ لَتَسْأَلُ وَتَبْكِي الْأَيَّامَ الْغَابِرَةَ
 أَيُّهَا الْقَلْبُ الْمُسْكِينِ
 فَلْتَفْرَحْ، إِنَّ أَيَّامًا أُخْرَى سَوْفَ تَأْتِي
 لَقَدْ أَزِفَتِ السَّاعَةُ . . أَيُّهَا الْحَاجُّ
 وَجَاءَتِ اللَّحْظَةُ الَّتِي تَعْبُرُ فِيهَا
 مُفْتَرَقُ الطَّرِيقِ
 إِنَّ وَجْهَهُ سَيَكُونُ سَافِرًا
 بِلا حِجَابٍ
 وَتَسْتَلْقِي بِهِ مَرَّةً أُخْرَى

(43)

فَوْقَ ضَرْيَحٍ بُودَا
 شَيْدُ الْمَلِكِ بِوَيْسَارٍ

مَحْرَاباً مِنَ الْمَرْمَرِ الْأَبْيَضِ

تَجِيئةً لِذِكْرِهِ

وَفِي كُلِّ مَسَاءٍ

كَانَتْ زَوَاجَاتُ الْمَلِكِ وَبَنَاتُهُ

يَذْهَبْنَ لِيَهْنِ الزُّهُورَ وَيُقِذْنَ الشُّمُوعَ

وَجِينَ أَصْبَحَ ابْنُهُ مَلِكاً

مَحَا بِسُفْكِ الدِّمَاءِ عَقِيدَةَ الْأَبِ

وَجَعَلَ مِنْ كُتُبِهِ الْمُقَدَّسَةِ

أَلْعَاباً نَارِيَةً .

كَانَ الْيَوْمُ الْخَرِيفِيُّ يَغِيبُ

وَقَدْ اقْتَرَبَتْ سَاعَةُ الْعِبَادَةِ الْمَسَائِيَّةِ

وَكَانَتْ شِيرَامَاتِي وَصِيفَةُ الْمَلِكَةِ

شَدِيدَةَ الْإِيمَانِ يُبُودَا

وَبَعْدَ أَنْ اغْتَسَلْتُ بِالْمَاءِ الْمُقَدَّسِ

وَزَيَّنْتُ الْوِعَاءَ الذَّهَبِيَّ بِالزُّهُورِ وَالشُّمُوعِ

رَفَعَتْ فِي صَمْتٍ عَيْنَيْهَا السُّودَاوِينَ

نَحْوِ وَجْهِ الْمَلِكَةِ
 فَارْتَجَفَتِ الْمَلِكَةُ مِنَ الْخَوْفِ وَقَالَتْ :
 أَلَمْ تَعْلَمِي أَيُّهَا الْفَتَاةُ الْعَبِيَّةُ
 أَنَّ الْإِعْدَامَ هُوَ الْعُقُوبَةُ
 الَّتِي تَنْتَظِرُ كُلَّ مَنْ يَحْجُلُ الْهَبَاتِ إِلَى هَيْكَلِ بُودَا؟
 تِلْكَ هِيَ إِرَادَةُ الْمَلِكِ
 فَأَنْحَنَتِ شَبِيرَامَاتِي لِلْمَلِكَةِ
 وَحِينَ خَرَجَتْ مِنْ عُرْفَتِهَا وَقَفَتْ أَمَامَ أُمَيَّتَا
 عُرُوسِ الْمَلِكِ الْجَدِيدِ
 وَكَانَتَا أُمَيَّتَا قَدْ وَضَعَتَا فِي حِضْنِهَا
 مِرْآتَهَا وَأَخَذَتَا تَضْفِيرَ عَدَائِرِهَا
 السُّودَاءَ الطُّوَيْلَةَ وَتَصْبِغُ
 جَبْهَتَيْهَا بِسَيِّمَاءِ الْحِطِّ الْحُمْرَاءِ
 وَمَا كَادَتَا تُبْصِرُ الْفَتَاةَ حَتَّى ارْتَجَفَتْ
 رُغْبًا وَصَرَخَتْ فِيهَا :

أَيُّ هَوْلٍ سَتُلْحِقِينِي يَيِّ ، اَعْرَبِي عَنِّي
 وَكَانَتْ الْأَمِيرَةُ شَوْكَلًا تَجْلِسُ
 إِلَى النَّافِذَةِ تَقْرَأُ كِتَابَ مُغَامَرَاتِ
 عَلَى ضَوْءِ الشَّمْسِ الْغَارِبَةِ
 وَقَفَزَتْ مُتَنَفِّضَةً حِينَ رَأَتْ
 الْفَتَاةَ أَمَامَ بَابِهَا حَامِلَةً هِبَاتِهَا
 الْمُقَدَّسَةَ . وَسَقَطَ الْكِتَابُ
 فِي حِضْنِهَا وَهَمَسَتْ فِي أُذُنِ شِيرَامَاتِي :
 لَا تُلْقِي بِنَفْسِكَ فِي أَحْضَانِ الْمَوْتِ
 أَيُّهَا الْمَرْأَةُ الْجَرِيثَةُ .
 وَأَخَذَتْ شِيرَامَاتِي تَنْتَقِلُ مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ
 رَافِعَةً رَأْسَهَا صَارِخَةً
 أَسْرِعْنَ يَا نِسَاءَ الْبَيْتِ الْمَالِكِ
 لَقَدْ أَرَفْتُ سَاعَةَ عِبَادَةِ سَيِّدِنَا
 فَأَعْلَقَ بَعْضُهُنَّ الْبَابَ فِي وَجْهِهَا

وَعَمَرَهَا الْبَعْضُ الْآخَرَ بِالشَّتَائِمِ
 وَكَانَ آخِرُ أَشْيَعَةِ الشَّمْسِ
 يَغْرُبُ عَنْ قُبَةِ الْبُرْجِ الْبُرُونِزِيَّةِ
 وَظِلَالُ كَيْفَةِ تَخِيمٍ عَلَى
 زَوَايَا الطُّرُقِ
 وَضَجِيجُ الْمَدِينَةِ يَخْفُتُ
 وَطَبْلُ مَعْبَدٍ (شَيْفَا) كَانَ يُعْلِنُ
 سَاعَةَ صَلَاةِ الْغُرُوبِ .
 وَفِي ظُلُمَةِ الْمَسَاءِ الْخَرِيفِيِّ الْعَمِيقِ
 عُمُقَ الْبُحَيْرَةِ الصَّافِيَةِ
 كَانَتْ النُّجُومُ تَتَلَأَلَأُ بِنُورِهَا
 حِينَ صَعِدَ حُرَّاسُ حَدِيقَةِ الْمَلِكِ
 وَرَأَوْا بَيْنَ الْأَشْجَارِ
 صَفًّا مِنَ الشُّمُوعِ الْمَوْقَدَةِ أَمَامَ هَيْكَلِ
 بُودَا

فَهَرَّعُوا، شَاهِرِينَ سَيُوفَهُمْ، صَارِيحِينَ :

مَنْ هُوَ هَذَا الْمَجْنُونُ

الَّذِي لَا يَكْتَرِثُ بِالمَوْتِ ؟

فَأَجَابَ صَوْتُ لَطِيفٍ عَذْبُ :

إِنِّي شِيرَامَاتِي، خَادِمَةٌ بُودَا .

وَبَعْدَ لَحْظَةٍ كَانَ دُمُهَا يَصْبِغُ

الرُّخَامَ البَارِدَ باللُّونِ الْأَحْمَرِ

وَفِي سَاعَةِ النُّجُومِ الهَادِثَةِ

كَانَ نُورُ آخِرِ الْمَصَابِيحِ الْمُنْدَوَّرَةِ

يَنْطَفِئُ عِنْدَ أَقْدَامِ الهَيْكَلِ .

(44)

إِنَّ النَّهَارَ الَّذِي يَقْصِلُ

بَيْنِي وَبَيْنَكَ

يَنْحَنِي انْحِنَاءَةً وَدَاعَهُ الْأَخِيرَةَ

وَاللَّيْلُ يُسْدِلُ حِجَابَهُ عَلَى وَجْهِهِ
وَيُخْفِي الْمَصْبَاحَ الْوَحِيدَ الْمَوْقَدَ
فِي عُرْفَتِي
وَتَأْتِي وَصِيفَتُكَ السَّمَرَاءَ
فِي هُدُوءٍ
لِتَنْفِرْ بِسَاطِ الْعُرْسِ
لِتَتَّخِذِي مَكَانَكَ فَوْقَهُ
وَحَدَّكَ مَعِي
فِي الصَّمْتِ الْخَالِي مِنَ الْكَلَامِ
حَتَّى انْقِضَاءِ اللَّيْلِ

(45)

إِنْ لَيْلِي قَدْ انْقَضَى عَلَى فِرَاشِ الْمَوْتِ
وَعَيْنِي مُتَعَبَتَانِ
وَقَلْبِي الْمُتَعَبِ

لَمْ يَسْتَعِدَّ بَعْدَ لِلْقَاءِ الصَّبَاحِ

بِأَفْرَاحِهِ الْمُحْتَشِدَةِ

فَلَنَسْحَبْ رِدَاءً فَوْقَ ثَوْبِكَ الْعَارِي

وَأَقْصِرْ عَنِّي هَذَا الْبَرِيقَ الْمُبْهِرَ

وَرُقْصَةَ الْحَيَاةِ

وَدَعْ وَشَاكَ الْمَسْجُوعِ مِنْ تِلْكَ الظُّلْمَةِ النَّاعِمَةِ

يُسْرِبُنِي فِي ثَنَائِهِ

وَيُغَطِّي أَوْجَاعِي

لَحْظَةً تَحْجِبُنِي مِنْ عَنَاءِ الْكَوْنِ

(46)

لَقَدْ مَضَى الزَّمَنُ الَّذِي كَانَ فِي وَسْعِي

أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهَا الْفَضْلَ

عَنْ كُلِّ مَا أَتَلَقَّاهُ مِنْهَا

فَلَيْلُهَا لَقِيَ فَجْرَهُ

وَأَنْتَ حَمَلْتَهَا إِلَيَّ بَيْنَ ذِرَاعَيْكَ

فَسَاحِلُ إِلَيْكَ أَنْتَ
شُكْرِي وَهَبَاتِي الَّتِي كُنْتُ
سَاحِصَهَا بِهَا
إِنِّي التُّمُسُ مَغْفِرَتَكَ
لِكُلِّ الْجِرَاحِ وَالْإِهَانَاتِ الَّتِي أَرْتَكِبُهَا
إِنِّي أَقْدَمُ إِلَيْكَ زَهْرَاتِ حُبِّي
الَّتِي ظَلْتُ مُبْرَعَةً
حِينَ كَانَتْ تَنْتَظِرُ تَفْشُحَهَا

47

لَقَدْ وَجَدْتُ بَعْضَ رَسَائِلِي الْقَدِيمَةِ
مُحَبَّاةً بِعَنَایَةِ دَقِيقَةٍ
فِي صُنْدُوقِهَا الصَّغِيرِ
تِلْكَ حَفْنَةُ صَغِيرَةٍ مِنَ اللَّعْبِ
الَّتِي كَانَتْ تَلْهُو بِهَا ذَاكِرُهَا

وَيَقْلِبُ خَجُولٍ كَأَنْتَ تَسْعَى
لِكَيْ تَسْرِقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الصَّغِيرَةَ
مِنْ سَيْلِ الزَّمَنِ الْجَارِفِ
وَتَهْتِفَ بِهِ
إِنَّهَا لِي وَخَلِي
أَه ، لَمْ يَعْذُ هُنَاكَ أَحَدٌ يُطَالِبُ بِهَا
وَيَذْفَعُ ثَمَنَهَا بِعِنَايَةِ حَنُونٍ
وَمَعَ ذَلِكَ فَمَا تَزَالُ فِي مَكَانِهَا .
يَقِينًا أَنَّهُ مَا يَزَالُ هُنَاكَ حُبٌّ
فِي هَذَا الْكَوْنِ يُنْقِذُهَا مِنَ التَّلَفِ التَّامِ
تَمَامًا وَمِثْلَ حُبِّهَا
الَّذِي أَنْقَذَ هَذِهِ الرِّسَالَةَ بِعَشْقٍ حَنُونٍ

48

أَيُّهَا الْمَرْأَةُ

إِجْلِي الْجَمَالَ وَالنَّظَامَ لِحَيَاتِي
 كَمَا كُنْتُ تَجْلِيْنِيهِمَا إِلَيْهَا وَأَنْتِ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ
 اكْنِيسِي شَطَايَا السَّاعَاتِ الْعَبْرَاءِ
 وَأَمْلُتِي الْجَرَارَ الْفَارِغَةَ
 وَاصْلِحِي كُلَّ مَا تَعْرِضُ لِلْإِهْمَالِ
 ثُمَّ افْتَحِي الْبَابَ الدَّاخِلِيَّ لِلْمَعْبُدِ
 وَأَوْقِدِي الشُّمُوعَ
 وَلِنَلْتَقِ هُنَاكَ فِي الصَّمْتِ
 أَمَامَ خَالِقِنَا

49

يَا إِلَهِي
 لَقَدْ كَانَ الْأَلَمُ كَبِيرًا
 حِينَ تَمَّ ضَبْطُ الْأَوْتَارِ
 فَلْتَبْدَأْ مُوسِيقَاكَ

دَعْنِي أُنْسَى الْأَلَمَ
 اجْعَلْنِي أَشْعُرَ فِي الْجَمَالِ
 بِمَا كَانَ يَدُورُ بِخَاطِرِكَ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْقَاسِيَةِ
 قَبْلَ أَنْ يَتَلَأْسَى اللَّيْلُ
 يَتَبَاطَأُ قَلِيلًا عِنْدَ بَابِي
 وَيَسْتَأْذِنُ فِي الرَّحِيلِ وَهُوَ يُغْنِي
 يَا إِلَهِي
 اسْكُبْ قَلْبَكَ فِي أَوْتَارِ حَيَاتِي
 أَغْنِيَاتٍ تَنْزُلُ مِنْ نُجُومِكَ
 فِي لَحْظَةٍ خَاطِفَةٍ
 رَأَيْتُ عَظَمَةَ خَلْقِكَ
 تَتَجَلَّى فِي حَيَاتِي
 هَذَا الْخَلْقُ الَّذِي تَتَابَعُ
 أَحْقَابًا وَأَحْقَابًا
 عَبْرَ كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُوتِ

لَقَدْ بَكَيْتُ مِنْ قَلَّةِ جَدَارَتِي
 حِينَ أَرَى حَيَاتِي فِي قَبْضَةِ
 سَاعَاتٍ تَافِهَةٍ، لَا مَعْنَى لَهَا
 وَلَكِنَّتِي حِينَ أَرَاهَا بَيْنَ يَدَيْكَ
 أَعْلَمُ أَنَّهَا أَعْلَى جِدًّا
 مِنْ أَنْ تُبَدَّدَ بَيْنَ الظُّلَالِ

(51)

إِنِّي لِأَعْلَمُ
 بِأَنَّ فِي النِّهَايَةِ الْحَالِكَةِ لِأَحَدِ الْأَيَّامِ
 سَتُودُّعُنِي الشَّمْسُ وَدَاعَهَا الْأَخِيرَ
 وَتَحْتَ ظِلَالِ أَشْجَارِ التُّينِ
 سَيَعْرِفُ الرُّعَاةُ نَائِيَاتِهِمْ
 وَقُطْعَانُهُمْ تَرْعَى
 فِي مُنَحَدَرَاتِ ضِيقِ النَّهْرِ

بَيْنَمَا تَدْخُلُ أَيَّامِي فِي الظُّلَامِ
 هَذِهِ هِيَ صَلَاتِي وَهَذَا دُعَائِي
 أَنْ أَتَمَكَّنَ قَبْلَ رَحِيلِي
 مِنَ الْعِلْمِ بِالسَّبَبِ الَّذِي دَعَيْتَنِي بِهِ
 الْأَرْضُ إِلَى ذِرَاعَيْهَا
 وَلِمَآذَا صَمْتُ لَيَالِيهَا يُحَدِّثُنِي عَنِ النُّجُومِ
 وَنُورُ نَهَارِهَا يُقَبِّلُ أَفْكَارِي
 فَيَحَوِّلُهَا إِلَى زُهُورِ
 أَنْ أَتَمَهَّلَ قَبْلَ رَحِيلِي قَلِيلًا
 عِنْدَ آخِرِ فَقَرَاتِ أَثْنَائِي
 مُتَمِّمًا بِذَلِكَ اللَّحْنَ
 وَأَنْ أَعْمَكُنَّ مِنْ إِقَادِ الْمَصْبَاحِ
 حَتَّى أَرَى مُحْيَاكَ
 وَأَضْفِرَ الْإِكْلِيلَ الَّذِي أَتَوَجَّكَ بِهِ

مَا هِيَ الْمَوْسِيقَى الَّتِي تُهْدِهُدُ الْكَوْنَ بِإِيقَاعِهَا؟
 إِنَّنَا لَنَضْحَكُ حِينَ يَلْقَى هَذَا الْإِيقَاعُ فَوْقَ قِمَمَةِ الْحَيَاةِ
 وَنَصِيرُ صِغَاراً
 عِنْدَمَا يَعُودُ هَذَا الْإِيقَاعُ لِلتَّرْدُدِ فِي الظُّلْمَةِ
 وَلَكِنَّ اللَّعْبَةَ وَاحِدَةً
 قَادِمٌ وَرَاحِلٌ
 عَلَى إِيقَاعِ الْمَوْسِيقَى اللَّامْتَنَاهِيَةِ
 إِنَّكَ تُخْفِي كُنْزَكَ
 فِي رَاحَةٍ كَفَكَ
 وَنَحْنُ نُصْرُخُ أَنَّهُ قَدْ سُرِقَ
 وَلَكِنْ افْتَحْ يَدَكَ أَوْ اقْبِضْهَا كَمَا يَحُلُو لَكَ
 فَإِنَّ الرِّيحَ وَالْخَسَارَةَ شَيْءٌ وَاحِدٌ
 وَاللَّعْبَةُ الَّتِي تُمَارِسُهَا مَعَ نَفْسِكَ

تَرَّيْحُ فِيهَا وَتَحْسَرُ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ

لَقَدْ قَبِلْتُ هَذَا الْكَوْنَ

بِعَيْنِي وَبِأَعْضَائِي

وَطَوَيْتُهُ فِي قَلْبِي

طَيَّاتٍ لَا حَدَّ لَهَا

وَعَمَرْتُ بِأَفْكَارِي

أَيَّامَهُ وَلَيَّالِيهِ

حَتَّى صَارَ الْكَوْنُ وَحْيَاتِي

شَيْئًا وَاجِدًا.

إِنِّي أُحِبُّ حَيَاتِي

لَأَنِّي أُحِبُّ نُورَ السَّمَاءِ

الْمُتَغَلُّغِلِ فِي نَفْسِي

فَإِذَا كَانَ تَرْكُ هَذَا الْعَالَمِ حَقِيقَةً

مِثْلَ حَقِيقَةِ حُبِّهِ، فَلَا بُدَّ

أَن يَكُونَ مَعْنَى لِلْقَاءِ الْحَيَاةِ وَفِرَاقِهَا
 وَإِذَا كَانَ هَذَا الْحُبُّ سَيَحْدَعُهُ الْمَوْتُ
 فَلِإِنْ سَرَطَانَ هَذَا الْخِدَاعِ سَوْفَ
 يَقْرِضُ كُلُّ شَيْءٍ
 وَالنُّجُومُ تَخْبُو وَتَصِيرُ سَوْدَاءَ
 أَحْسَنُ أَنْ جَمِيعَ النُّجُومِ تَتَأَلَّقُ فِي كَيْفَانِي
 وَأَنْ الْكَوْنُ كُلُّهُ يَتَدَفَّقُ فِي حَيَاتِي
 كَأَنَّهُ الْبَحْرُ الدَّافِقُ
 وَأَنْ الزُّهُورُ تَتَفَتَّحُ فِي جَسَدِي
 وَشَبَابُ الْأَرْضِ وَالْمَاءُ يَتَصَاعَدُ فِي قَلْبِي
 كَمَا يَتَصَاعَدُ بَخُورُ الْمَجَامِرِ
 وَنَفْسُ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا
 يَعْرِفُ أَنْغَامَهُ كَالنَّائِي
 فَوْقَ أَفْكَارِي

كَانَ تُؤَلْسِيْدَاسُ الشَّاعِرِ
 يَجُوبُ ضَيْفَةُ نَهْرِ الْكِنجِ
 غَارِقًا فِي أَفْكَارِهِ الْعَمِيْقَةِ
 حَتَّى بَلَغَ ذَلِكَ الْمَكَانَ الْمُتَعَزِّلَ
 حَيْثُ يُحْرَقُ الْمَوْتَى
 فَوَجَدَ امْرَأَةً جَالِسَةً عِنْدَ قَدَمِي
 جُثْمَانِ زَوْجِهَا
 وَقَدْ لُفَّ فِي أُرْدِيَةِ زَاهِيَةٍ
 كَمَا لَوْ كَانَ عَرِيْسًا لَيْلَةً زَفَافِهِ
 وَجِئِن رَأَتْ الْمَرْأَةُ الشَّاعِرَ
 نَهَضَتْ وَانْحَنَتْ أَمَامَهُ
 قَائِلَةً :
 لِتَنْعِمَ عَلَيَّ أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ بِنِعْمَةِ اللَّحَاقِ بِزَوْجِي

فِي السَّمَاءِ !
 فَقَالَ تُولَسِيدَاسُ :
 وَلِمَاذَا كُلُّ هَذِهِ الْعَجَلَةِ يَا بُنَيَّتِي
 أَلَيْسَتْ هَذِهِ الْأَرْضُ أَيْضًا مُلْكًا
 لِذَلِكَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ ؟
 قَالَتِ الْمَرْأَةُ :
 لَيْسَتْ رَغْبَتِي فِي السَّمَاءِ وَلَكِنِّي
 أُرِيدُ زَوْجِي
 فَأَبْتَسَمَ تُولَسِيدَاسُ وَقَالَ :
 عُودِي إِلَى بَيْتِكَ ، يَا طِفْلَتِي
 وَقَبْلِ أَنْ يَنْقَضِيَ الشَّهْرُ سَتَلَاقِينَ
 زَوْجَكَ .
 وَعَادَتِ الْمَرْأَةُ إِلَى الْبَيْتِ وَهِيَ
 تُشِيعُ أَمَلًا . وَكَانَ تُولَسِيدَاسُ
 يَذْهَبُ إِلَيْهَا كُلَّ يَوْمٍ وَيُلْقِنُهَا أَفْكَارًا

سَامِيَةً تَعْكُفَ عَلَى التَّامْلِ فِيهَا
 حَتَّى أَفْعَمَ قَلْبُهَا الْحُبَّ الْإِلَهِيَّ
 وَحِينَ أَوْشَكَ الشَّهْرَ عَلَى النِّهَايَةِ
 جَاءَهَا الْجِيرَانُ مُسْتَقْمِرِينَ:
 أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ هَلْ وَجَدْتَ زَوْجَكَ
 فَابْتَسَمَتِ الْأَرْمَلَةُ وَقَالَتْ:
 أَجَلَ وَجَدْتُهُ
 فَازْدَادَ فُضُولُهُمْ وَالْحَوَافِي السُّوَالِ:
 أَيْنَ؟
 - فِي قَلْبِي
 إِنَّهُ مَوْلَايَ الَّذِي لَاتُحَدِّ بِهِ
 إِلَى الْأَبَدِ

(56)

لَقَدْ جِئْتُ لِتَمَكُّنِي لَحْظَةً إِلَى جَانِبِي

وَلَمَسْتَنِي بِسَرِّ الْمَرْأَةِ الْكَبِيرِ
الكَامِنِ فِي قَلْبِ الْخَلْقِ
هِيَ الَّتِي تُعِيدُ دَوْمًا إِلَى اللَّهِ
تِلْكَ الْعَذُوبَةُ الَّتِي تَتَدَفَّقُ مِنْهَا
هِيَ الَّتِي صَيَّغَتْ مِنَ الْجَمَالِ الْخَالِدِ
وَالشَّبَابِ الدَّائِمِ
لِأَنَّهَا تَرْقُصُ فِي الْجَذَائِلِ الرُّقَاقِ
وَتُغَنِّي فِي ضَوْءِ الصَّبَاحِ
وَهِيَ الَّتِي تُرْضِعُ الْأَرْضَ الْعَطَشَى
بِأَمْوَاجِهَا الْمُزِيدَةِ
وَفِيهَا يَنْقَسِمُ الْعُنْصُرُ الْخَالِدُ إِلَى قِسْمَيْنِ
فِي فَرْحَةٍ لَا يُمَكِّنُ احْتِوَاؤُهَا أَبَدًا
وَتَفِيضُ فِي أَلَمِ الْحُبِّ

تُرَى مَنْ يَسْكُنُ فِي قَلْبِي؟
 أَهِيَ تِلْكَ الْمَرْأَةُ الَّتِي نَسِيْتُهَا إِلَى الْأَبَدِ؟
 لَقَدْ غَارَتْهَا
 وَلَكِنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ نَوَالَهَا
 لَقَدْ زَيَّنْتُهَا بِالْأَكَالِيلِ
 وَتَغَنَيْتُ بِمَدْحِهَا
 فَتَأَلَّقَتْ ابْتِسَامَةً عَلَى وَجْهِهَا ثُمَّ تَلَأَشَتْ
 وَصَرَخَتْ الْمَرْأَةُ الْمَلِيئَةُ بِالْحُزَنِ
 «لَا أَجِدُ أَيَّ مُتَعَةٍ فِيكَ»
 وَاشْتَرَيْتُ لَهَا أَسَاوِرَ مَرْصَعَةً بِالْجَوَاهِرِ
 وَمَرْوَحَتُ عَلَيهَا بِمَرْوَحَةٍ مَرْصَعَةٍ بِاللَّالِي
 وَسَوَّيْتُ لَهَا سَرِيرًا ذَهَبِيًّا
 فَارْتَجَفَ فِي عَيْنَيْهَا شُعَاعٌ مِنَ الْبَهْجَةِ

ثُمَّ انْطَفَأَ
 وَصَرَخَتِ الْمَرْأَةُ الْمَلِيئَةُ بِالْحُزَنِ
 «لَا أَجِدُ مُتَعَةً فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ،
 وَوَضَعْتُهَا فَوْقَ عَرَبَةِ النَّصْرِ
 وَجُبْتُ بِهَا أَطْرَافَ الْكَوْنِ
 وَكَانَتِ الْقُلُوبُ الْوَالِهَةُ تَنْحَنِي عَلَى قَدَمَيْهَا
 وَالْهَتَافَاتُ بِهَا تَرْتَفِعُ إِلَى السَّمَاءِ
 فَيَتَأَلَّقُ الْفَخْرُ فِي عَيْنَيْهَا جِينًا
 ثُمَّ تُغَيِّمُهُ الدُّمُوعُ
 وَتَصْرُخُ الْمَرْأَةُ الْمَلِيئَةُ بِالْحُزَنِ
 «لَا أَجِدُ أَيَّ مُتَعَةٍ فِي الظُّفْرِ»
 فَسَأَلَتْهَا
 قُولِي ، عَمَّ تَبْحَثِينَ ؟
 فَقَالَتْ :
 إِنِّي أَنْتَظِرُ ذَلِكَ الَّذِي لَا يُعْرِفُ اسْمَهُ

وَكَاثَتِ الْأَيَّامُ تَمْضِي ، وَهِيَ تَصْرُخُ :
فَمَتَى يَا بَنِي حَبِيبِي الَّذِي لَا أَعْرِفُهُ
وَيُصْبِحُ مَعْرُوفًا عِنْدِي إِلَى الْأَبَدِ؟

(58)

لَكَ ذَلِكَ الثَّوْرُ الَّذِي يَتَفَجَّرُ مِنَ الظُّلَامِ
وَلَكَ ذَلِكَ الْخَيْرُ الَّذِي يَبْزُغُ مِنَ الْقَلْبِ الَّذِي
شَقَّهَ الصَّرَاعُ
وَلَكَ الْبَيْتُ الَّذِي يَنْفَتِحُ عَلَى الْعَالَمِ
وَالْحُبُّ الَّذِي يَدْعُو إِلَى مِيزَانِ الْمَعْرَكَةِ
وَلَكَ الْعَطَاءُ الرَّابِعُ حِينَ تَبْدُو الْأَشْيَاءُ
كُلُّهَا خَاسِرَةً
وَلَكَ الْحَيَاةُ الَّتِي تَنْدَفِقُ مِنْ كُهُوفِ الْمَوْتِ
وَلَكَ السَّمَاءُ الَّتِي تَرْقُدُ فِي التَّرَابِ
أَنْتَ هُنَاكَ مِنْ أَجَلِي

أَنْتَ هُنَاكَ مِنْ أَجْلِ الْجَمِيعِ.

59

حِينَ يُحَاصِرُنِي إِعْيَاءُ الطَّرِيقِ
وَضَمًّا الْيَوْمِ الْخَائِقِ
وَحِينَ تُلْقِي سَاعَاتِ الْغُرُوبِ
طُيُوفَ ظِلَالِهَا فَوْقَ حَيَاتِي
فَإِنِّي لَا التَّمَسُّ صَوْتِكَ أَيُّهَا الصَّدِيقِ
وَلَكِنِّي أَتَطَّلُعُ إِلَى لَمَسِكَ أَيْضاً
هُنَاكَ لَوْعَةً فِي قَلْبِي
الَّذِي يَنْوُءُ بِثِقَلِ غِنَاهُ الَّذِي لَمْ يَمْنَحْهُ
لَكَ .

مُدُّ يَدِكَ عَبْرَ الظَّلَامِ
حَتَّى أُمْسِكَ بِهَا وَأَمْلَأَهَا وَأَشُدَّ عَلَيْهَا
دَعْنِي أَشْعُرُ بِلَمَسِهَا

على امتدادِ وِحدَتِي الطَّوِيلَةِ

60

العِطْرُ يَهْتَفُ فِي قَلْبِ الْبُرْعَمِ
 أَوَّاه . . لَقَدْ تَوَلَّى النَّهَارُ
 وَتَوَلَّى الْيَوْمُ الرَّبِيعُ السَّعِيدُ
 وَصِرْتُ أَسِيرًا لِأَفْوَافِي :
 أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ الصَّغِيرُ
 لَا تَفْقَدْ شَجَاعَتَكَ
 إِنْ سَجَنَكَ سَيَّحْطُمُ
 وَالْبُرْعَمُ سَيَتَفَتَحُ فِي زَهْرَةٍ
 وَحِينَ تَمُوتُ فِي عُنُقِ الْحَيَاةِ
 فَإِنَّ الرَّبِيعَ سَيُوَاصِلُ حَيَاتَهُ .
 وَتَحَرَّكَ الْعِطْرُ قَلْبًا دَاخِلَ الْبُرْعَمِ
 وَصَرَخَ :

أَوَاه . . إِنْ السَّاعَاتِ تَمْضِي
 وَلَا أَذْرِي أَيْنَ أَذْهَبُ
 وَلَا عَمَّ أَبْحَثُ؟
 أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ الْوَدِيعُ
 لَا تَفْقِدْ شَجَاعَتَكَ
 إِنْ النَّسِيمَ الرَّيْعِيَّ
 أَثْنَاءَ عُبُورِهِ
 قَدْ أَصَغَى إِلَى رَغَبَتِكَ
 وَقَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ الْيَوْمُ
 فَسَوْفَ تُحَقِّقُ وَجُودَكَ
 وَبَدَأَ الْمُسْتَقْبَلَ غَامِضاً
 فَصَرَخَ الْعِطْرُ يَائِساً:
 أَوَاه . . مَنْ الْمَسْئُولُ عَنْ حَيَاتِي
 هَلْهُ الْخَالِيَةُ مِنْ كُلِّ مَعْنَى؟
 وَمَنْ يَقْدِرُ أَنْ يُفَسِّرَ لِي وَجُودِي؟

لَا تَفْقِدُ شَجَاعَتَكَ أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ الرَّهِيْفُ
 إِنَّهُ لَقَرِيبُ ذَلِكَ الْفَجْرِ الْكَامِلِ
 الَّذِي تَمَزْجُ فِيهِ حَيَاتَكَ
 بِكُلِّ الْحَيَاةِ
 وَتَعْرِفُ فِي النِّهَايَةِ
 غَايَتَكَ مِنَ الْوُجُودِ

61

يَا رَبَّاهُ
 إِنَّهَا مَا تَزَالُ طِفْلَةً
 تَرْكُضُ لَأَهْيَةٍ لَأَعْبَةٍ
 فِي رِحَابِ قَصْرِكَ
 وَتُحَاوِلُ أَيْضاً أَنْ تَجْعَلَ مِنْكَ
 دُمِيَّةً تَلْهُو بِهَا
 إِنَّهَا لَا تَهْتَمُّ إِذَا تَبَدَّدَتْ غَدَائِرُهَا

أَوْ جَرُّ نَوْبُهَا فَوْقَ التُّرَابِ
 وَتَنَامُ حِينَ تَتَحَدَّثُ إِلَيْهَا
 وَلَا تُجِيبُ
 وَالزَّهْرُ الَّذِي تُقَدِّمُهُ إِلَيْهَا فِي الصَّبَاحِ
 يَسْقُطُ مِنْ يَدَيْهَا فَوْقَ التُّرَابِ
 وَحِينَ تَنْفَجِرُ الْعَاصِفَةُ
 وَتُغَطِّي الظُّلْمَةَ كُلَّ أَرْجَاءِ السَّمَاءِ
 لَا تَقْدِرُ عَلَى النَّوْمِ
 دُمَيَاتُهَا مُتَنَائِرَةٌ فَوْقَ الْأَرْضِ
 وَهِيَ تَتَشَبَّثُ بِأَحْضَانِكَ
 مَدْعُورَةٌ
 تَحْشَى أَلَّا تُحْسِنَ خِدْمَتَكَ
 وَلَكِنَّكَ تُلَاحِظُ لَعِبَهَا بِاسِمَاءٍ
 إِنَّكَ تَعْرِفُهَا
 فَتِلْكَ الطِّفْلَةُ الْجَالِسَةُ فَوْقَ التُّرَابِ

هِيَ خَطِيئَتِكَ
وَلَعِبْهَا سَوْفَ يَهْدَأُ وَيَسْكُنُ
وَيَتَعَمَّقُ فِي الْحُبِّ . .

62

أَيَّتَهَا الشَّمْسُ
مَنْ سَوَّى السَّمَاءَ
يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسَعَ صُورَتَكَ
إِنِّي أَحْلُمُ بِكَ
وَلَكِنِّي لَا أَطْمَعُ فِي خِدْمَتِكَ
بَكَتْ فَطْرَةُ النَّدَى وَقَالَتْ :
إِنِّي أَصْغَرُ مِنْ أَنْ أُحْتَوِيَ بِكَ
أَيُّهَا الْإِلَهِ الْعَظِيمُ
وَحَيَاتِي كُلُّهَا دُمُوعُ
قَالَتِ الشَّمْسُ :

إِنِّي أُبِيرُ سَمَاءَ لَا حَدَّ لَهَا
وَلَكِنْ يُمَكِّنُنِي أَيْضاً أَنْ أَمْنَحَ
نَفْسِي لِقَطْرَةِ النَّدى الصَّغِيرَةِ
سَأَصْبِحُ شَرَارَةً مِنَ النُّورِ
وَأَعْمُرُكَ بِضِيَائِي
وَسَتَصْبِحُ حَيَاتُكَ
فَلَكاً ضَاحِكاً

63

لَيْسَ لِي
ذَلِكَ الْحُبُّ الَّذِي لَا يَعْرِفُ حُدُوداً
إِنَّهُ كَالنَّبِيدِ الْمُتَحَمَّرِ
مَا يَكَادُ يَنْشَقُّ عَنْهُ الدَّنُّ
حَتَّى يَتَبَدَّدَ فِي لَحْظَةٍ
هَبْ لِي ذَلِكَ الْحُبُّ الْغَضُّ

الصَّافِيَّ صَفَاءَ مَطَرِكَ
 الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى الْأَرْضِ
 الظَّامِئَةَ كَمَا تَنْزِلُ الْبَرَكَهَ
 وَيَمْلَأُ جِرَارَ الْبَيْتِ الْفَخَّارِيَّةَ .
 هَبْ لِي الْحُبُّ الَّذِي يَنْفُذُ
 إِلَى مَرْكَزِ الْوُجُودِ
 وَمِنْ هُنَاكَ يَتَوَرَّعُ وَيَتَشِيرُ
 مِثْلَ النَّسْعِ الْخَفِيِّ
 الَّذِي يَسْرِي فِي كُلِّ أَعْصَانِ الْحَيَاةِ
 مُفْتَقًا أَثْمَارًا وَازْهَارًا
 هَبْ لِي الْحُبُّ الَّذِي يَهْدِي الْقَلْبَ

64

بِفِيضِ الْأَمْنِ .
 كَانَتْ الشَّمْسُ قَدْ غَابَتْ

خَلَفَ الضِّفَّةَ الْغَرِيبَةَ لِلنَّهْرِ
بَيْنَ تَشَابُكِ أَشْجَارِ الْغَابِ .
وَفَتَيَانُ النَّاسِكِ (غاوتاما)
قَدْ سَاقُوا الْقُطْعَانَ إِلَى الْحِظَائِرِ
وَتَحَلَّقُوا حَوْلَ النَّارِ يُنْصِتُونَ لِمُعَلِّمِهِمُ النَّاسِكِ .
حِينَ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ فَتَى غَرِيبٌ
يَحْمِلُ هَدِيَّةً مِنَ الزُّهُورِ وَالْفَاكِهَةِ
وَأَنَحَنَى أَمَامَ قَدَمَيْهِ
مُتَحَدِّثًا بِصَوْتِ رَقِيقٍ كَأَنَّهُ تَغْرِيدُ الْعُصْفُورِ :
يَا مَوْلَايَ ، لَقَدْ جِئْتُ إِلَيْكَ
لِيَتِمَّ قَبُولِي فِي طَرِيقِ الْحَقِيقَةِ
السَّامِيَةِ
إِنْ أَسْمِي (سَاتِيَا كَامَا)
قَالَ الْمُعَلِّمُ :
لِتَحُلَّ الْبَرَكََةُ فَوْقَ رَأْسِكَ

وَلَكِنْ إِلَى أَيِّ فِتْنَةٍ تَنْتَبِي يَا طِفْلِي الصَّغِيرَ؟
 إِنَّ الْبَرْهَمِيَّ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يُمَكِّنُهُ أَنْ يَتَطَلَّعَ
 إِلَى الْحِكْمَةِ الْأَسْمَى
 فَاجَابَ الْفَتَى :

أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ . . . إِنِّي لَا أَعْرِفُ لِأَيِّ فِتْنَةٍ
 أَنْتَبِي وَلَكِنِّي سَأَذْهَبُ لِاسْتَفْسِيرِ
 مِنْ أُمِّي ، عَنْ ذَلِكَ
 وَاسْتَأْذِنَ الْفَتَى (سَانَاكِيَامَا)
 وَخَاضَ الْجَدُولَ
 عَائِداً إِلَى كُوخِ وَالِدَتِهِ
 بِأَقْصَى الصَّحْرَاءِ
 الْوَاقِعَةِ فِي ضَوَاحِي الْقَرْيَةِ النَّائِمَةِ
 وَكَانَ الْمَصْبَاحُ يُضِيءُ الْعُرْفَةَ الْفَقِيرَةَ
 إِضَاءَةً وَاهِنَةً شَاحِبَةً
 وَكَانَتِ الْأُمُّ جَالِسَةً فِي الظُّلَامِ.

عِنْدَ الْبَابِ ، تَنْتَظِرُ عَوْدَةَ طِفْلِهَا
وَضَمَّتْهُ إِلَى صَدْرِهَا
وَقَبَّلَتْ شَعْرَهُ بِرِقَّةٍ وَلُطْفٍ
وَسَأَلَتْهُ عَنْ زِيَارَتِهِ إِلَى الْمُعَلِّمِ
فَسَأَلَهَا الصَّبِي :
أَيَّتِهَا الْأُمُّ الْمَعْبُودَةُ ، مَا هُوَ اسْمُ وَالِدِي ؟
فَإِنَّ الْبَرَّهَمِيَّ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يُمَكِّنُهُ
أَنْ يَتَطَّلَعَ لِيَلْوِغَ الْحِكْمَةَ الْأُسْمَى
هَكَذَا قَالَ لِي الْمُعَلِّمُ غَاوَتَامَا
فَخَفَضَتْ الْأُمُّ بَصَرَهَا
وَقَالَتْ فِي هَمْسٍ :
فِي شَبَابِي كُنْتُ فَقِيرَةً
وَكَانَ لِي عِدَّةُ أَسْيَادٍ
وَقَدْ جِئْتُ بَيْنَ ذِرَاعِي أُمِّكَ (جَابَالَا)
يَا حَبِيبِي ، أُمُّكَ الَّتِي لَمْ يَكُنْ لَهَا زَوْجٌ .

وكانت أشعة الشمس الأولى
 تتألق فوق أطراف الأشجار
 المحيطة بصومعة الناسك في الغابة
 والطلبة، بشعورهم المشعة
 المطبولة برطوبة حمام الصباح
 يجلسون تحت الشجرة العريقة
 أمام المعلم .
 وهناك أقبل (ساتاكاما)
 وألحى عند قدمي الحكيم
 وظل ساكتاً
 فسأله المعلم . . قل لي
 لأي فئة تنتمي ؟
 فأجاب لا أدري . . ولكني حين
 سألت أمي ، قالت :
 إنني عملت في خدمة أسياد كثيرين في شبابي وأنت ولدت

بَيْنَ ذِرَاعِي أُمِّكَ (جَبَّالًا) الَّتِي لَمْ يَكُنْ
 لَهَا زَوْجٌ
 وَهُنَاكَ تَعَالَتْ جَلْبَةً
 تُشْبِهُ طَيْنَ النَّحْلِ الْحَائِقِ
 مِنْ الْمُضَايَقَةِ فِي مَنْحِلِهِ
 وَتَهَامَسَ الطَّلَبَةُ حَوْلَ هَذِهِ
 الْوَقَاحَةِ الْمُخْزِيَةِ مِنْ هَذَا
 الْفَتَى الْمَنبُودِ .
 فَتَهَضُّ الْمُعَلِّمُ (غَوَاتَامَا)
 وَفَتَحَ ذِرَاعَيْهِ وَضَمَّ إِلَى صَدْرِهِ
 الْفَتَى قَائِلًا : إِنَّكَ أَفْضَلُ
 مِنْ جَمِيعِ الْبَرْهَمِيِّينَ يَا طِفْلِي .
 لَقَدْ وَرِثْتَ أَتْبَلَ إِرْثٍ .
 إِنَّهُ الْحَقِيقَةُ . .

65

لَعَلَّهُ يُوجَدَ بَيْتٌ وَاحِدٌ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ
يَظَلُّ بَابُهُ مَفْتُوحًا إِلَى الْأَبَدِ
لِيَسْتَقْبِلَ هَذَا الصَّبَاحَ لَمَسَةَ الْفَجْرِ
حَيْثُ يَبْلُغُ النُّورُ أَهْدَافَهُ
إِنَّ الزُّهُورَ قَدْ تَفَتَّحَتْ
فِي السُّهُولِ وَالْحَدَائِقِ
وَلَعَلَّ هُنَاكَ قَلْبًا
قَدْ وَجَدَ هَذَا الصَّبَاحَ
الهِبَةَ السَّاعِيَةَ نَحْوَهُ
مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ

66

لِتُصْنَعَ أَثَرُهَا الْقَلْبَ

فَفِي نَآيِهِ عَبِيرُ الزُّهُورِ الْوَحْشِيَّةِ
وَالْأُورَاقِ النَّضِيرَةِ
وَالْمَيَّاءِ الْمُتَلَقَّةِ
وَالظَّلَالِ الَّتِي يَتَرَدَّدُ فِيهَا رَافِفُ أَجْنِحَةِ النُّحْلِ
وَالنَّائِي
يَسْرِقُ الْإِبْسَامَةَ مِنْ شَفَاقِي صَدِيقَتِي
وَيَنْشُرُهَا فَوْقَ حَيَاتِي

69

لَقَدْ كُنْتُ فِي صَمِيمِ الْقَلْبِ
وَلِهَذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَعْتُرَ عَلَيْكَ
قَلْبِي حِينَ كَانَ يَجُوبُ الْأَفَاقَ
لَقَدْ اخْتَفَيْتَ عَنْ حُبِّي وَأَمَالِي
حَتَّى الزَّيْهَاءِ
لَأَنْتَ كُنْتَ مَوْجُوداً فِيهَا

لَقَدْ كُنْتُ أَعْمَقَ بِهَجَةٍ فِي لُغَبَةٍ

شَبَّابِي

وَحِينَ كُنْتُ مَشْغُولًا بِاللُّغَبَةِ

كَانَتْ الْبَهْجَةُ قَدْ تَوَارَتْ .

لَقَدْ كُنْتُ تُغْنِي فِي كُلِّ نَشْوَةٍ

مِنْ حَيَاتِي

أَمَّا أَنَا فَقَدْ نَسِيتُ أَنْ أُغْنِي مِنْ أَجْلِكَ

(70)

حِينَ تَرَفَعُ مُصْبِحًاكَ السَّمَاءُ

يُلْقِي الْمُصْبِحُ نُورًا عَلَى وَجْهِ

وَتَقَعُ ظِلَالُهُ عَلَيْكَ

وَحِينَ أُمْسِكُ مُصْبِحَ الْحُبِّ

فِي قَلْبِي

فَإِنْ نُورُهُ يُضِيئُكَ

وَأَظِلُّ أَنَا خَلْفَكَ فِي الظِّلِّ

لَقَدْ هَرَعَتِ الْبَهْجَةُ
 مِنْ كُلِّ أَرْجَاءِ الْعَالَمِ
 لِتُسَوِّيَ كَيْانِي الْجَسَدِيَّ
 لَقَدْ قَبَّلَتْهَا أَضْوَاءُ السَّمَاءِ
 حَتَّى اسْتَيْقَظَتْ
 وَفِي أَنْفَاسِهَا كَانَتْ تَهْمِسُ
 زُهُورُ الْأَصْيَافِ الْقَصِيرَةِ
 وَصَوْتُ الرِّيَّاحِ
 وَزَقَزَقَةُ الْمَاءِ
 كَانَتْ تُغْنِي فِي حَرَكَاتِهَا
 وَهَوَى مَوْجَةِ أَلْوَانِ
 الْغُيُومِ وَالْغَابَاتِ بِجَرِي فِي حَيَاتِهَا
 وَمُوسِيقَى الْكَوْنِ كُلِّهِ

كَانَتْ تُدَاعِبُ أَطْرَافَهَا
وَاهِبَةً لَهَا شَكْلَهَا الْجَمِيلَ .
لِأَنَّهَا هِيَ عَرُوسِي
لَقَدْ أَوْقَدْتُ أَنْوَارَهَا فِي بَيْتِي

(73)

تَسْرَبَ الرِّبْعُ فِي كَيْيَانِي
بِأَوْرَاقِهِ وَزُهُورِهِ
وَالنَّحْلُ يَطِيرُ حَوْلَهَا طَوَالَ الصَّبَاحِ
وَالرِّيحُ تَتَلَاعَبُ فِي خُمُولٍ مَعَ الظَّلَالِ
وَتَدْفُقُ نَبْعَ عَذْبٍ مِنْ أَغْوَارِ قَلْبِي
وَتَنْدَّتْ عَيْنَايَ مِنَ الْبَهْجَةِ
مِثْلَ الصَّبَاحِ الطَّرِيِّ بِالنَّدَى
وَالْحَيَاةِ تَرْتَجِفُ فِي عُرْوَقِي
مِثْلَ أَوْتَارِ الْعُودِ الرَّثَائَةِ

أَلَا تَجُوبِينَ وَحِيدَةً شَوَاطِيءُ حَيَاتِي
 حَيْثُ يَعْلُو الْمَدُّ
 يَا عَاشِقَةً أَيَّامِي اللَّامَحْدُودَةَ
 إِنْ أَحْلَامِي تُحَلِّقُ حَوْلَكَ
 كَانَهَا طُيُورُ ذَاتُ أَجْنِحَةٍ مُلَوَّنَةٍ
 أَهْيَ أَغْنِيَاكَ تِلْكَ النَّيِّ يَرْدُّ رَجْعُ صَدَاهَا
 فِي الْأَعْوَارِ الْمُظْلِمَةِ مِنْ كَيْيَانِي؟
 مَنْ غَيْرُكَ
 يَسْتَطِيعُ أَنْ يُصْغِيَ إِلَى طِينِ
 السَّاعَاتِ الْحَاشِدَةِ الَّتِي تَرْنُ
 الْيَوْمَ فِي عُرُوقِي
 وَالخُطُواتُ الْفَرِحَةِ
 الَّتِي تَرْقُصُ فِي قَلْبِي
 وَضَجِيجُ الْحَيَاةِ السَّائِرَةِ
 الَّتِي تَخْفُقُ بِأَجْنِحَتِهَا فِي قَلْبِي

أَمْسِرَ فَقَطَّ قَدِمْتُ إِلَى أَرْضِكَ
 عُرْيَانٌ ، بِلاَ اسْمٍ
 وَبَصِيحَةٍ وَاهِنَةٍ
 أَمَّا الْيَوْمَ
 فَصَوْتِي جَذْلَانُ
 فِيمَا تَتَعَزَّلُ أَنْتَ يَا مَوْلَايَ
 جَانِبًا لِنُفْسِيحِ لِي مَكَانًا
 حَتَّى أَسْتَطِيعَ أَنْ أَمْلَأَ حَيَاتِي
 وَحِينَ أَحْمِلُ إِلَيْكَ أَغَانِي قُرْبَانًا
 فَأِنِّي أَتَمَنَّى فِي أَعْمَاقِي
 أَنْ يَأْتِيَ النَّاسُ وَيُحِبُّونِي مِنْ أَجْلِهَا
 إِنَّهُ لَيَرُوقُ لَكَ أَنْ يُكْتَشَفَ أَنَّنِي أَحِبُّ
 هَذَا الْعَالَمَ الَّذِي خَلَقْتَنِي فِيهِ

أَسْكُنُ فِي حَيَاءٍ
إِلَى ظِلِّ الْخَلَاصِ
وَلَكِنْ الْآنَ وَمَوْجَةُ الْفَرَحَةِ
تَرْفَعُ قَلْبِي فَوْقَ ذُرْوَتِهَا
فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ وَيَتَشَبَّثُ بِصَخْرَةٍ
لَوْعَتِهِ الْقَاسِيَةِ
وَحِيدَةً، أَجْلِسْ فِي زَاوِيَةٍ مِنْ بَيْتِي
مُفَكِّرَةً أَنَّهَا رُبَّمَا كَانَتْ أَضْيَقُ مِنْ أَنْ تَتَّسِعَ لَأَيِّ ضَيْفٍ
وَلَكِنْ الْآنَ وَقَدْ فَتَحَتِ الْبَابَ
فَرَحَةً مُبَاغِتَةً
فَإِنِّي أُدْرِكُ أَنَّ هُنَاكَ مَكَانًا لَكَ
وَلِكُلِّ الْعَالَمِ
إِنِّي أَمْشِي عَلَى أَطْرَافِ قَدَمِي

مُتَّبِعَةً إِلَىٰ نَفْسِي
وَلَكِنَّ دَوَّامَةً مِنَ الْفَرْحَةِ
أَلْقَتَ بِي فَوْقَ التُّرَابِ
فَإِنِّي أَضْحَكُ
وَأَتَدَحَّرُ وَأَتَقَلَّبُ فَوْقَ الْأَرْضِ
تَحْتَ قَدَمَيْكَ
كَمَا يَتَقَلَّبُ الطُّفْلُ

(77)

إِنَّ الْكَوْنَ لَكَ
فَوْرًا وَدَوَّامًا
وَلَمَّا لَمْ تَكُنْ لَكَ شَهَوَاتُ
يَا مَلِيكِي
فَإِنَّكَ لَا تَسْتَمِيعُ بِثَرَوَتِكَ
حَتَّىٰ لَكَأَنَّهَا لَمْ تُوجَدْ

وَلِهَذَا مَنَحْتَنِي تَذْرِيجِيَا
 كُلَّ مَا يَخْصُصُكَ
 وَبِلَا تَوَقُّفٍ
 اسْتَوْلَيْتَ عَلَى مَمْلَكَتِكَ فِي أَعْمَاقِي
 وَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْصُلُ عَلَى فَجْرِكَ مِنْ قَلْبِي
 وَتَجِدُ حُبَّكَ مَنَحُوتًا فِي صُورَةِ حَيَاتِي

78

لَقَدْ وَهَبْتَ الطُّيُورَ تَغْرِيدًا
 وَبِهَذَا التَّغْرِيدِ تَرُدُّ إِلَيْكَ الْقَضْلَ
 أَمَا أَنَا فَقَدْ مَنَحْتَنِي صَوْتًا فَقَطْ
 وَلَكِنْ إِذَا طَلَبْتَ الْمَزِيدَ
 فَلِإِنِّي أُغْنِي
 لَقَدْ جَعَلْتَ رِيَاكَ خَفِيفَةً
 فَكَانَتْ سَرِيعَةً إِلَى خِدْمَتِكَ

أَمَّا أَنَا فَقَدْ جَعَلْتُ يَدَيَّ صَقِيلَتَيْنِ
 أَجَلٌ ، حَتَّى أَقْدِرَ عَلَى التَّخْفِيفِ مِنْ أَعْبَائِهِمَا
 وَأُظْفِرَ فِي النِّهَايَةِ بِحُرِّيَّةٍ كَامِلَةٍ
 تُمَكِّنُنِي مِنْ خِدْمَتِكَ
 لَقَدْ خَلَقْتَ الْأَرْضَ
 وَغَمَرْتَ ظِلَالَهَا بِالْأَضْوَاءِ الْمُتَنَائِرَةِ
 وَهُنَاكَ تَوَقَّفْتُ
 وَتَرَكْتُ بِيَدَيْنِ فَارِغَتَيْنِ
 فَوْقَ التُّرَابِ
 وَأَنْصَرَفْتُ عَنِّي إِلَى خَلْقِ السَّمَاءِ
 إِنَّكَ تُعْطِي لِكُلِّ الْأَشْيَاءِ فِي هَذَا الْكَوْنِ
 أَمَّا أَنَا فَإِنَّكَ
 تَطْلُبُ مِنِّي الْعَطَايَا
 إِنْ حَصَادَ حَيَاتِي
 يَنْصَبِحُ بِحَرَارَةِ الشَّمْسِ وَغَزَارَةِ الْمَطَرِ

حَتَّى يَتَيَسَّرَ أَنْ أَحْصِدَ أَكْثَرَ مِمَّا
زَرَعْتَ أَنْتَ
فِيْمَتْلَى قَلْبُكَ هَنَاءً
يَا سَيِّدَ الْأَهْرَاءِ الدَّهْيَةِ

(79)

أَنْ لَا أُصَلِّيَ لِكَيِّ أَحْيَى نَفْسِي مِنَ الْأَخْطَارِ
وَلَكِنْ لِكَيِّ أَكُونَ جَرِيئاً فِي مُوَاجَهَتِهَا
وَأَنْ لَا أَطْلُبَ أَنْ تُخَفِّفَ آلَامِي
وَلَكِنْ أَنْ تَكُونَ لِي الشَّجَاعَةُ لِلتَّفُوقِ عَلَيْهَا
أَنْ لَا أَبْحَثَ عَنْ حُلَفَاءٍ فِي مَعْرَكَةِ الْحَيَاةِ
سِوَى قُوَّتِي الدَّائِيَّةِ
أَنْ لَا أَلْتَمِسَ خَلَاصِي فِي خَوْفٍ قَلِقٍ
وَلَكِنْ فِي أَنْ يُحَقِّقَ الصَّبْرُ أَمَلِي
فِي اكْتِسَابِ حُرِّيَّتِي

هَمِيءٌ لِي أَلَا أَكُونُ جَبَانًا
وَأَنْ أَبْلُوَ نِعْمَتَكَ فِي نَجَاحِي
وَأَنْ أَشْعُرَ بِضَمَّةِ يَدِكَ
فِي إِخْفَاقِي وَخِذْلَانِي

80

لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ نَفْسَكَ حِينَ كُنْتَ تَسْكُنُ
وَحَدَّكَ .

وَلَمْ تَكُنْ لِتُبَلِّغَكَ أَيُّ رِسَالَةٍ
حِينَ كَانَتْ الرِّيحُ تَجْرِي مِنْ شَاطِئِي إِلَى آخِرِ
لَقَدْ جِئْتُ أَنَا
وَاسْتَفْقَتَ أَنْتَ

وَأَزْهَرْتَ السَّمَاءُ بِالْأَلْوَانِ
وَجَعَلْتَنِي أَنْفَتِحَ فِي عِيدِ الْأَزْهَارِ
وَهَذَّهَدْتَنِي فِي مَهْدٍ مُتَعَدِّ الْأَشْكَالِ

وَأَخْفَيْتَنِي فِي الْمَوْتِ
 ثُمَّ أَلْفَيْتَنِي مِنْ جَدِيدٍ، فِي الْحَيَاةِ
 وَجِئْتُ، وَقَدْ امْتَلَأَ قَلْبُكَ
 وَعَرَفْتَ الْأَلَمَ وَالْبَهْجَةَ
 لَقَدْ لَمَسْتَنِي فَأَشْعَلْتَنِي حُبًّا
 وَلَكِنْ فَوْقَ عَيْنِي هُنَاكَ
 حِجَابٌ مِنَ الْخَجَلِ
 وَفِي صَدْرِي رَجْفَةُ الْخَوْفِ
 وَوَجْهِي مَحْجُوبٌ
 وَإِنِّي لَا أَبْكِي حِينَ لَا أَرَاكَ
 وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنِّي أَعْرِفُ الظَّمَأَ الشَّدِيدَ
 لِأَنِّي تُطْلِعَنِي بِأَن فِي قَلْبِكَ
 ظَمًا يَصْرَخُ بِبَابِي
 الَّذِي يَطْرُقُهُ كُلُّ صَبَاحٍ
 مَعَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ

إِنَّكَ لَتُصِفِي فِي سَهْرِكَ الْخَالِدِ
 إِلَى خُطُواتِي الَّتِي تَذْنُ مِنْكَ
 بَيْنَمَا تَتَجَمَّعُ فَرْحَتُكَ
 فِي بَشَائِرِ الصَّبَّاحِ
 وَتَتَفَجَّرُ فِي فَيْضِ النُّورِ
 كُلُّمَا دَنَوْتُ مِنْكَ
 كُلُّمَا ازْدَادَ عُمُقُ الْحَمَّاسِ
 فِي رُقْصَةِ الْبَحْرِ
 إِنْ كَوْنُكَ لَهْوٌ رَشٌّ مِنَ النُّورِ
 يَنْتَشِرُ وَيَتَوَزَّعُ
 مَا لَيْثًا رَاحَتِيكَ
 وَلَكِنْ سَمَاءَكَ فِي قَلْبِي الْخَفِيِّ
 الَّذِي يَفْتَحُ بِيْطَهُ بَرَّاعِمُهُ

على حُبِّ نَجْوَلِ

82

سَأُنْطِقُ بِاسْمِكَ

جَالِساً وَحْدِي

بَيْنَ ظِلَالِ أَفْكَارِي الصَّامِتَةِ

سَأُنْطِقُ بِهِ بِلاَ غَايَةٍ

لَأَنِّي كَالطُّفْلِ

الَّذِي يَدْعُو أُمَّهُ مِثْلَ مَرَّةٍ

سَعِيداً بِمَعْرِفَتِهِ نُطْقَ كَلِمَةٍ (أُمِّاهُ)

83

I

أُحْسِنُ أَنْ جَمِيعَ النُّجُومِ تَتَلَقَّ فِي أَعْمَاقِي
وَأَنْ الْكَوْنُ يَتَدَفَّقُ فِي حَيَاتِي كَالْبَحْرِ الْهَادِرِ
وَالْأَزْهَارِ تَتَفَتَّحُ فِي جَسَدِي
وَسُبَابِ الْأَرْضِ وَالْمَاءِ يَتَصَاعَدُ بِخَوْرِهِ

فِي قَلْبِي
وَنَفَسَ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ
تَعْرِفُ فَوْقَ أَفْكَارِي مِثْلَ النَّائِي

II

حِينَ يَغْفُو الْكَوْنُ
فَإِنِّي أَحْضَرُ إِلَى بَابِكَ
الْجُودُ صَامِتَةً
وَلَا أَجْرُو عَلَى الْغِنَاءِ
إِنِّي أَرْقُبُ وَأَسْهَرُ
حَتَّى يَعْبرَ طَيْفُكَ
شَرْقَةَ اللَّيْلِ
فَأَرْجِعُ بِقَلْبٍ مُتَرَعٍ فَيَاضٍ
وَفِي الصَّبَاحِ
أَوْفَى عِنْدَ حَافَةِ الطَّرِيقِ
وَأَعْنِي
فَتُحَيِّنِي زُهُورَ السَّهْلِ

وَيُصْغِي إِلَيَّ نَسِيمُ الصَّبَاحِ
وَيَقِفُ الْعَابِرُونَ فَجَاءَةً
وَيُحَدِّثُونَ فِي وَجْهِهِ
يَحْسِبُونَ بِأَنِّي هَتَفْتُ بِأَسْمَائِهِمْ

III

شُدْنِي إِلَى بَابِكَ
دَوْمًا فِي انْتِظَارِ رَغَبَاتِكَ
وَدَعْنِي أَجُوبُ مَمْلَكَتَكَ
مُلَبِّيًا دَعْوَتَكَ
لَا تَذَرْنِي أَغْرَقُ وَأَضْمَجِلُ فِي أَعْمَاقِ الْخُمُولِ
وَلَا تَدْعُ حَيَاتِي تُسْتَهْلِكُ
وَتَتَحَوَّلُ إِلَى أَسْمَالٍ
يَفْقِرُ الْمَكَانُ الْمُذْقِعِ
وَلَا تَدْعُ الشُّكُوكَ تَكْتَنِفُنِي
بِغُبَارِ الشُّرُودِ وَالْعَفْلَةِ
لَا تَدْعُنِي أَسْلُكُ طُرُقًا مُخْتَلِفَةً

لَأَجْمَعَ أَشْيَاءَ عَدِيدَةً
وَلَا تَذَرْنِي أَحْنَى قَلْبِي لِغَيْرِ الْكَثِيرِينَ
وَلَكِنْ دَعْنِي أَرْفَعُ الرَّأْسَ عَالِيًا
فَخُورًا بِأَنْ أَكُونَ خَادِمَكَ

رجال المجاذيف

أَتَسْمَعُ مِنْ بَعِيدٍ
ضَجِيجَ الْمَوْتِ
وَذَلِكَ النَّدَاءُ الْمُرْسَلُ
عَبْرَ أَنْهَارِ النَّارِ وَالْغُيُومِ الْمَسْمُوعَةِ؟
وَصَرَخَ الرُّبَانُ فِي الْمَلَأَحِ مَاسِكِ الدَّفْعَةِ
أَنْ يُوجِّهَ السَّفِينَةَ نَحْوَ شَاطِئِي، مَجْهُولٍ
فَقَدْ انْتَهَى الزَّمَنُ الرَّائِدُ فِي الْمِينَاءِ
وَحِينَ تَبَاعُ الْبَضَائِعُ الْقَدِيمَةُ
أَوْ تُشْتَرَى فِي دَائِرَةِ لَأَحَدٍ لَهَا
وَحِينَ يَجْرُفُ سَيْلُ الْفَرَاغِ الْأَشْيَاءَ
الْمَيِّتَةَ

وَفِي غَيْبَةِ الْحَقِيقَةِ
 يَسْتَقِظُونَ بَغْتَةً فَرِيعِينَ
 وَيَتَسَاءَلُونَ
 أَيُّهَا الرَّفَاقُ أَيَّ سَاعَةٍ هَذِهِ الَّتِي دَقَّتِ الْآنَ؟
 وَمَتَى يَبْزُغُ الْفَجْرُ؟
 إِنَّ الْغُيُومَ قَدْ غَطَّتِ النُّجُومَ
 فَمَنْ ذَا الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى رُؤْيَا
 الْإِشَارَةِ الَّتِي تُؤَمِّئُهُ إِلَى بَدَايَةِ النَّهَارِ؟
 وَيُهْرَعُونَ إِلَى الْخَارِجِ رَاكِبِينَ حَامِلِينَ
 مَجَازِيْفَهُمْ فِي أَيْدِيهِمْ
 وَتَنْظُلُ أَسِيرَتُهُمْ فَارِغَةً
 وَالْأُمُّ تَدْعُو
 وَالزَّوْجَةُ تَرْقُبُ عِنْدَ عَتَبَةِ الْبَابِ
 وَيَرْتَفِعُ فِي السَّمَاءِ نَجِيبُ الْوَدَاعِ
 وَصَوْتُ الرِّبَّانِ يَهَيْفُ فِي الظَّلَامِ
 تَعَالَوْا أَيُّهَا الْمَلَأُونُ

فَإِنْ وَقْتُ مُكُونِنَا فِي الْمِيَاءِ قَدْ انْتَهَى
 إِنْ كُلُّ شَرُّورِ الْعَالَمِ السُّودَاءِ
 قَدْ فَاضَتْ وَدَمَّرَتْ سُدُودَهَا
 وَمَعَ ذَلِكَ أَيُّهَا الْمَلَأْحُونَ
 خُذُوا أَمَا كِنَكُمْ
 وَأَطُورُوا قُلُوبَكُمْ عَلَى الْحُزَنِ
 مِنْ الَّذِي تَلْعَنُونَ؟
 فَاحْتُوا رُؤُوسَكُمْ
 إِنْ الْخَطِيئَةُ كَانَتْ خَطِيئَتِكُمْ وَخَطِيئَتَنَا
 تِلْكَ الْغَضْبَةُ النَّامِيَةُ عَبْرَ الْأَحْقَابِ
 فِي قَلْبِ الرَّبِّ
 وَجِبْنُ الضَّعِيفِ
 وَتَطَاوُلُ الْقَوِي
 وَشَهْوَةُ الْكَسْبِ وَالْمَالِ
 وَحِفْدُ الْإِنْسَانِ الْمُهَانَ
 وَكِبْرِيَاءُ الْعِرْقِ

وَتَحْقِيرُ الْإِنْسَانِ لِلْإِنْسَانِ
 قَدْ هَشَمَتْ سَلَامَ الرَّبِّ
 فَكَانَتْ غَضَبُهُ هَذِهِ الْعَاصِفَةُ
 وَكَقِشْرَةِ الثَّمَرَةِ النَّاصِجَةِ
 بَدَدَتْ الْعَاصِفَةُ قَلْبَهَا أَجْزَاءَ
 مُرْسِلَةٍ رُغُودَهَا عَلَيْكُمْ
 يَكْفِي مِنَ الثَّرْوَةِ الْجَرِيئَةِ
 الْمُعْبَّرَةِ عَنْ عِتَابِكُمْ وَتَزْلُفُكُمْ
 وَيَهْدُوهُ الدُّعَاءُ الصَّامِتِ
 الْبَادِي عَلَى جِبَاهِكُمْ
 أَبْجِرُوا نَحْوَ ذَلِكَ الشَّاطِئِ الْمَجْهُولِ
 لَقَدْ عَرَفْنَا الشُّرُورَ وَالْخَطَايَا كُلَّ يَوْمٍ
 وَعَرَفْنَا الْمَوْتَ
 وَكَانَتْ تَمُرُّ فَوْقَ كَوْنِنَا كَأَنَّهَا الْعُيُومُ
 تَسْخَرُ مِنَّا بِابْتِسَامَتِهَا الصَّاعِقَةِ

وَفَجْأَةً تَوَقَّفَتْ هَذِهِ الشُّرُورُ
 وَحَدَّثَتْ الْمُعْجِزَةَ
 وَوَقَفَ الرُّجَالُ فِي وَجْهِهَا قَائِلِينَ :
 نَحْنُ لَا نَخْشَاكَ، أَيُّهَا الشَّيْخُ
 لَقَدْ عِشْنَا كُلَّ يَوْمٍ مِنْ حَيَاتِنَا مِنْ أَجْلِ
 أَنْ نَقْهَرَكَ وَنَتَغَلَّبَ عَلَيْكَ
 وَسَوْفَ نَمُوتُ عَلَى الْإِيمَانِ بِإِنِّ السَّلَامَ حَقٌّ
 وَاللَّهُ حَقٌّ وَالْخَالِدُ حَقٌّ
 فَلِذَا لَمْ يَكُنِ الْخَالِدُ نَازِلًا فِي قَلْبِ
 الْمَوْتِ
 وَإِذَا كَانَتْ الْمَعْرِفَةُ الْبَهِيحَةَ
 لَا تَتَفَتَّحُ لِتُمَرِّقَ قِشْرَةَ الْأَلَمِ
 وَإِذَا كَانَتْ الْخَطِيئَةُ لَا تَمُوتُ
 كَاشِفَةً عَنْ حَقِيقَتِهَا
 وَإِذَا كَانَتْ الْكِبْرِيَاءُ لَا تَتَمَرَّقُ
 تَحْتَ عِبَادٍ زِينَتِهَا وَبَهْرَجَتِهَا

فَمِنْ أَيْنَ يَأْتِي إِذَنْ
ذَلِكَ الْأَمَلُ الَّذِي يَنْدَفِعُ أَوْلِيكَ الرُّجَالَ
خَارِجَ بُيُوتِهِمْ ، مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي
تَتَسَاقَطُ لِلْمَوْتِ فِي ضَوْءِ الضُّبَّاحِ ؟
إِنْ قِيَمَةُ دِمَاءِ الشَّهْدَاءِ
وَدُمُوعَ الْأُمَمَاتِ
سَتَضَيِّعُ فِي تُرَابِ الْأَرْضِ
إِذَا لَمْ تَمْتَلِكِ السَّمَاءَ بِشَمَنِهِ
ثُمَّ حِينَ يَتِمَكَّنُ الْإِنْسَانُ مِنْ
قَطْعِ عُرَاهِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ
أَلَا يَتَجَلَّى لَهُ اللَّائِنَهَائِي أُنْذَاكَ

أنشودة الهزيمة

حين كُنتُ عَلَى حَافَةِ الطَّرِيقِ
أَمَرَنِي مَوْلَايَ
أَنْ أَغْنِيَ أَغْنِيَةَ الْهَزِيمَةِ
فَتِلْكَ هِيَ عَرُوسُهُ الَّتِي يُغَارِلُهَا فِي الْحَفَاءِ
لَقَدْ ارْتَدَّتْ وَشَاحاً أَسْوَدَ
يَحْجُبُ وَجْهَهَا عَنِ النَّاسِ
وَلَكِنَّ الْجَوْهَرَةَ كَانَتْ تَتَأَلَّقُ فَوْقَ نَهْدِهَا
فِي الظَّلَامِ
لَقَدْ اسْتَسْلَمْتُ لِلنُّهَارِ
وَلَكِنَّ لَيْلَ الرَّبِّ
يَتَنَظَّرُهَا بِشُمُوعِهِ الْمُوقَدَةِ

وَزُهُورِهِ الَّتِي بَلَّلَهَا النَّدى

إِنِّهَا صَامِتَةٌ

وَعَيْنَاهَا خَاشِعَتَانِ

لَقَدْ هَجَرَتْ بَيْتَهَا

حِينَ تَنَاهَى إِلَيْهَا

ذَلِكَ الْخَفَقَانُ الَّذِي تَحْمِلُهُ الرِّيحُ

وَلَكِنَّ النُّجُومَ كَانَتْ تُغْنِي أَغْنِيَةَ الْخُلُودِ

لِذَلِكَ الْوَجْهُ اللَّطِيفِ الَّذِي تَمَازَجَ

فِي عُدُوبَتِهِ الْحَجَلُ وَالْأَلَمُ

لَقَدْ فَتَحَ بَابَ الْغُرْفَةِ الْمُتَعَزِّلَةِ

وَعَزَفَ النَّدَاءَ

وَحَفَقَ قَلْبُ الظَّلَامِ

لِقُرْبِ الْمَوْعِدِ الْقَادِمِ

شكر

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَسْلُكُونَ طَرِيقَ الْكِبَرِيَاءِ
 سَاحِقِينَ تَحْتَ أَقْدَامِهِمُ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُتَوَاضِعَةِ
 مُعْطِينَ خُضْرَةَ الْأَرْضِ الْغَضَّةِ
 بِأَثَارِهِمُ الدَّمْوِيَّةِ
 يَتَهَجَّوْنَ وَيَرْفَعُونَ الشُّكْرَ إِلَيْكَ
 يَا إِلَهِي
 لِأَنَّ هَذَا الْيَوْمَ يَوْمُهُمْ
 وَلَكِنِّي أَشْكُرُكَ لِأَنَّكَ جَعَلْتَ
 نَصِيبِي مَعَ الْفُقَرَاءِ الْمُتَوَاضِعِينَ
 الَّذِينَ يَتَعَذَّبُونَ
 وَيَتَحَمَّلُونَ عِبَاءَ التَّسْلُطِ

مُوَارِينُ وَجُوهِهِمْ
 خَائِنِينَ خَفَقَاتِ قُلُوبِهِمْ فِي الظَّلَامِ
 ذَلِكَ أَنْ كُلَّ خَفَقَةٍ مِنْ خَفَقَاتِ آلَامِهِمْ
 قَدْ نَبَضَتْ فِي الْهَارِيَةِ الْخَفِيَّةِ مِنْ لَيْلِكَ
 وَكُلُّ إِهَانَةٍ قَدْ حَوَاهَا صَمْتُكَ الْكَبِيرُ
 إِنْ الْغَدَ لَهُمْ
 أَيْتَهَا الشَّمْسُ
 لِتُشْرِقَ فِي فَوْقِ الْقُلُوبِ الدَّائِمَةِ
 الَّتِي تَتَفَتَّحُ فِي أَزْهَارِ الصَّبَاحِ
 وَفَوْقَ فُجُورِ الْكِبْرِيَاءِ اللَّيْلِ
 الَّذِي تَحُولُ إِلَى رَمَادٍ

هَدِيَّةُ الْعَاشِقِ

②

تَعَالَى يَا حَبِيبَتِي
لِلتَّنَزُّوْ فِي الْمَحْدِيْقَةِ
وَتَخْطُرِي قُرْبَ الزُّهُورِ الْعَاشِقَةِ
الَّتِي تَحْتَشِدُ عِنْدَ رُؤْيَاكِ .
مُرِّي قُرْبَهَا وَتَوَقَّفِي
أَمَامَ بَهْجَةٍ غَيْرِ مُتَوَقَّعَةٍ
مِثْلَ الْغُرُوبِ الرَّائِعِ .
يُنِيرُ، وَلَكِنَّهُ سُرْعَانَ مَا يَزُولُ .
وَلِأَنَّ عَطِيَّةَ الْحُبِّ خَجُولُ
فَإِنَّهَا لَا تُعْلِنُ عَنْ اسْمِهَا
إِنَّهَا تَتَخَلَّلُ الظَّلَالَ بِسُرْعَةٍ

نَاشِرَةً رَجْفَةَ الْفَرَحِ عَبْرَ التُّرَابِ
فَحُذِّبَهَا خَطْفًا

أَوْ أَفْقَدِيهَا إِلَى الْأَبَدِ
فَالْعَطِيَّةُ الَّتِي يُمَكِّنُ الْإِمْسَاكُ بِهَا
لَيْسَتْ سِوَى زَهْرَةٍ نَحِيلَةٍ
أَوْ وَمُضَيَّةٍ مِنَ اللَّهَبِ الْمُتَرَجِّفِ

٤

أَنْتِ قَرِيبَةٌ مِنْ قَلْبِي
قُرْبَ زَهْرَةِ الْحَقْلِ مِنَ الْأَرْضِ .
وَأَنْتِ عَذْبَةٌ عِنْدِي
عَذُوبَةُ النَّوْمِ لِلْأَعْضَاءِ الْمُرهَقَةِ .
إِنْ حُبِّي لَكَ هُوَ حَيَاتِي
فِي تَدْفُقِ امْتِلَائِهَا
مِثْلَ النَّهْرِ الْفَائِضِ فِي الْخَرِيفِ ،

الْمُتَدَقِّقُ فِي اسْتِسْلَامِ هَادِيهِ .
 إِنْ أَغَانِيَّ تَمْتَرِجُ بِحُمِي
 مِثْلَ خَرِيرِ الْجَدُولِ الَّذِي يَغْنِي
 بِكُلِّ أَمْوَاجِهِ، وَكُلِّ تَيَارَاتِهِ الْهَادِرَةِ . .
 لَوْ مَلَكْتُ السَّمَاءَ بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ نُجُومٍ ،
 وَالْكَوْنَ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ ثَرَوَاتِ هَائِلَةٍ ،
 فَلِمَ سَأَطْلُبُ الْمَزِيدَ .
 وَلَكِنِّي سَأَكُونُ رَاضِيًا قَانِعًا
 بِأَكْثَرِ زَوَايَا الْأَرْضِ تَوَاضَعًا وَبَسَاطَةً
 لَوْ كُنْتُ أَنْتَ لِي

8

هُنَاكَ مَكَانٌ لَكَ
 أَنْتِ وَحِيلَةٌ وَلَيْسَ مَعَكَ سِوَى حُزْمَاتِ
 قَلِيلَةٍ مِنْ سَنَابِلِ الْأَرْضِ .

إِنَّ زَوْرَقِي مُزْدَجِمٌ
 وَحِمْلُهُ ثَقِيلٌ
 وَلَكِنْ كَيْفَ يُمَكِّنُنِي أَنْ أَطْرُدَكَ؟
 قَوَامُكَ الشَّابُّ
 نَحِيفٌ وَمُتَمَّوْجٌ
 وَابْتِسَامَةٌ مَآكِرَةٌ
 فِي طَرْفِي عَيْنِكَ
 وَلِأَنْوَإِكَ أَلْوَانُ السَّحَابَةِ الصَّيْفِيَّةِ
 سَيَنْزِلُ رُكَّابُ الزُّورَقِ
 وَلَنْ تَجِدَنِي فِي نِهَآيَةِ الرُّحْلَةِ
 مَنْ يُؤْنِسُكَ بِالْحَدِيثِ
 إِلَى أَيْنَ أَنْتِ ذَاهِبَةٌ
 وَفِي أَيِّ بَيْتٍ سَتُكَدِّسِينَ سَنَابِلُ الْأُرْزِ؟
 لَنْ أَسْأَلَكَ
 وَلَكِنْ حِينَ أَطْوِي أَشْرِعَنِي

وَأَرْسِي زَوْرِي
سَاجِسُ عِنْدَ الْمَسَاءِ مُفَكِّرًا
وَأَتَسَاءَلُ:
إِلَى أَيْنَ أَنْتِ ذَاهِبَةٌ
وَفِي أَيِّ بَيْتٍ سَتُكْدُسِينَ سَنَابِلُ الْأُرْزَرِ؟

13

الْبَارِحَةَ
قَدُمْتُ إِلَيْكَ فِي الْحَدِيقَةِ
نَبِيلَ شَبَابِي الْمُرِيدَ
فَرَفَعْتَ الْكَأْسَ إِلَى شَفَتَيْكَ
وَأَعْمَضْتَ عَيْنَيْكَ
وَابْتَسَمْتَ حِينَ رَفَعْتُ خِمَارَكَ
وَفَكَكْتُ ضَفَائِرَكَ
وَجَذَبْتُ إِلَى صَدْرِي

وَجْهَكَ الْحُلُو بِصَمْتِهِ الْهَادِي

الْبَارِحَةِ

حِينَ كَانَ الْحُلُمُ الْقَمَرِي

يَغْمُرُ الْكَوْنُ الْغَافِي .

وَالْيَوْمَ

وَفِي هُدُوءِ الْفَجْرِ الطَّرِيقُ بِالنَّدَى

كُنْتُ تَمْشِيْنَ نَحْوَ مَعْبَدِ الرَّبِّ

مُغْتَسِلَةً ، مُرْتَدِيَةَ الْبَيَاضِ

وَفِي يَدِكَ سَلَّةٌ مِنَ الزُّهُورِ

أَمَّا أَنَا فَقَدْ اعْتَرَلْتُ جَانِباً

وَوَقَفْتُ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ

خَافِضَ الرَّأْسِ .

فِي هُدُوءِ الْفَجْرِ

قُرْبَ طَرِيقِ الْمَعْبَدِ الْمَهْجُورِ

هِيَ تَسْكُنُ قُرْبَ الْغَدِيرِ
 ذِي الْأَرْضِصْفَةِ الْعَتِيقَةِ الْبَالِيَةِ
 مَا أَكْثَرَ الْأُمُوسِيَّاتِ الَّتِي رَأَيْتُ فِيهَا الْقَمَرَ
 مُضْطَرَباً بَيْنَ أَوْرَاقِ الْبَامْبُو الَّتِي كَانَتْ تَهْزُهَا الرِّيحُ
 وَفِي كَثِيرٍ مِنْ أَيَّامِ الْمَطَرِ
 كَانَ عِطْرُ الْأَرْضِ الْبَلِيلَةِ
 يَصِلُ إِلَيْهَا
 فَوْقَ بَرَاعِمِ الْأَرْضِ.
 إِنَّ صَيِّغَةَ الدَّلَالِ لِأَسْمِهَا مَعْرُوفَةٌ
 هُنَا بَيْنَ غَابَاتِ النَّخِيلِ الصَّغِيرَةِ
 وَفِي السَّاحَاتِ الَّتِي يَجْلِسُ فِيهَا الصَّبَايَا
 لِلشَّرْقَةِ وَخِيَاطَةِ تَطْرِيزَاتِهِنَّ الشَّتَوِيَّةِ.
 وَمِيَاهُ الْغَدِيرِ

نَحْفَظُ ذِكْرَى أَطْرَافِهَا الْجَسَدِيَّةِ
 حِينَ كَانَتْ تَسْبَحُ فِيهَا
 وَقَدَمَاهَا الْمُبْلَّتَانِ تَرَكَتَا آثَارَهُمَا
 يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ

فَوْقَ الدَّرَبِ الْمُؤَيِّدِي إِلَى الْقَرْيَةِ
 وَالنِّسْوَةُ اللَّوَاتِي يَأْتِينَ الْيَوْمَ لِعَرَفِ الْمَاءِ
 رَأَيْنَ ابْتِسَامَتَهَا

الَّتِي تَرُدُّ بِهَا عَلَى الْمُدَاعِبَاتِ الْبَسِيطَةِ السَّاذِجَةِ
 وَالْفَلَّاحِ الْعَجُوزِ الَّذِي يَسُوقُ عَجُولَهُ

الصَّغِيرَةَ لِعَسْلِهَا فِي النَّهْرِ، كَانَ يَتَوَقَّفُ كُلَّ يَوْمٍ
 أَمَامَ بَيْتِهَا لِيُحْيِيَهَا

وَكَثِيرٌ مِنَ الزُّوَارِقِ الشَّرَاعِيَةِ

تَمُرُّ قُرْبَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ

وَكَثِيرٌ مِنَ الْعَابِرِينَ يَتَوَقَّفُونَ لِلرَّاحَةِ

تَحْتَ شَجَرَةِ الْبَايَانَ
وَكَثِيرٌ مِنَ الْمَرَائِبِ تُبْجِرُ نَحْوَ الضِّفَّةِ الْأُخْرَى
وَعَلَى ظَهْرِهَا أَنْاسٌ يَقْصِدُونَ السُّوقَ
وَلَكِنَّهُمْ لَا يُلَاحِظُونَ أَبْدَأَ هَذَا الْمَكَانَ
الْوَاقِعَ عَلَى طَرِيقِ الْقَرْيَةِ
قُرْبَ الْأَرْضِ صِفَةِ الْعَيْقَةِ الْبَالِيَةِ
حَيْثُ تَسْكُنُ الْمَرْأَةُ الَّتِي أُحِبُّهَا

إِذَا كُنْتَ تَرْغِبِينَ
 فِي أَنْ تَهْبِئِي قَلْبَكَ
 فَإِنَّ أَبَاكَ سَتَكُونُ مَلِيئَةً بِالْأَلَامِ
 فَإِنَّ لَيْسَتِي أَبْوَاباً مَفْتُوحَةً .
 وَفِكْرِي شَارِدٌ
 لِأَنِّي أُعْنِي .

إِذَا كُنْتَ حَقًّا تَرْغِبِينَ
 فِي أَنْ تَهْبِئِي قَلْبَكَ
 فَإِنِّي أَنْبَهُكَ
 إِلَى أَنِّي لَنْ أَكُونَ قَادِرًا عَلَى الِاسْتِجَابَةِ
 فَإِذَا أُعْطِيتُكَ الْآنَ كَلِمَتِي مُعْنِيًا
 وَكُنْتُ مُقْتِنِعًا فِي الْوَفَاءِ بِهَا
 فَعَلَيْكَ أَنْ تَعْذُرِيَنِي

حِينَ تَكْفُفُ الْمَوْسِمَى عَنِ الْعَرْفِ
 إِذْ مِنْ الْخَيْرِ لِلْعَهْدِ الَّذِي تَقَرَّرُ فِي شَهْرِ مَائُو
 أَنْ يَنْقُضَ فِي شَهْرِ دَيْسَمْبَرِ
 وَإِذَا كُنْتَ حَقًّا تَرْغَبِينَ
 فِي أَنْ تَهْبِئِي قَلْبَكَ
 فَلَا تَذْكُرِيهِ عَلَى الدَّوَامِ
 وَحِينَ تُغْنِي عَيْنَاكَ بِالْحُبِّ
 وَيَتَمَوَّجُ صَوْتُكَ بِالضُّحَكَاتِ
 فَإِنَّ إِيَّابَتِي لِمَا تَطْلُبِيهِ
 سَتَكُونُ عَاطِفِيَّةً
 وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ دَقِيقَةً فِي وَقَائِعِهَا
 وَعَلَيْكَ أَنْ تُصَدِّقِيهَا إِلَى الْأَبَدِ
 لِكَيْ تَنْسِيَهَا بَعْدَ ذَلِكَ
 إِلَى الْأَبَدِ

جَاءَ فِي الْكِتَابِ
 أَنَّهُ إِذَا بَلَغَ الْمَرْءُ الْخَمْسِينَ
 فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَخَلَّى عَنْ هَذَا الْعَالَمِ الصَّاحِبِ
 لِيَنْصَرِفَ إِلَى الْوَحْدَةِ
 فِي الْغَابِ .
 وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ يُعْلِنُ:
 أَنَّ الْإِعْتِكَافَ فِي الْغَابِ
 لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلشَّبَابِ .
 فَهُنَاكَ تُوَلَّدُ الطُّيُورُ
 وَهُنَاكَ مُلْتَقَى النَّحْلِ وَالطُّيُورِ
 وَهُنَاكَ الزَّوَايَا الْخَفِيَّةُ الَّتِي تَنْتَظِرُ
 رَعْشَةَ هَمَسَاتِ الْعُشَّاقِ .
 هُنَاكَ نُورُ الْقَمَرِ

الَّذِي يَتَجَمَّعُ كُلُّهُ فِي قُبْلَةٍ
يَضَعُهَا عَلَى أَقْوَابِ الزُّهُورِ .
وَلِهَذَا النُّورِ رِسَالَتُهُ الْعَمِيقَةُ
وَلَا يَفْهَمُهَا إِلَّا مَنْ كَانَ دُونَ الْخَمْسِينَ .
وَأَسْفَاهُ !

إِنَّ الشَّبَابَ لَعَنِيذٌ
وَقَلِيلُ التَّجَرُّبَةِ .
وَلِذَا فَإِنَّهُ مِنَ الْإِنْصَافِ أَنْ يُعْنَى الشُّيُخُ
بِالْأُسْرِ .

وَأَنْ يَتَوَجَّهَ الشَّبَابُ
إِلَى خُلُوقِ الْإِعْتِكَافِ فِي الْغَابِ ،
وَالْتَّقْيِدِ بِنِظَامِ الْمُغَازَلَةِ الصَّارِمِ .

(22)

إِنِّي أَتْرُكُ عَنْ طَوَاعِيٍّ

زَهْرَةَ الثَّقَافَةِ ،

تَنْطَفِئُ فِي بَيْتِي

لِتُولَدَ فِي مُسْتَقْبَلِ سَعِيدٍ

فِي شَخْصِ رَاعٍ صَغِيرٍ فِي غَابَاتِ (بِرْتَا)

الرَّاعِي الَّذِي يَرَعَى قُطْعَانَهُ

جَالِساً تَحْتَ شَجَرِ الْبَنِيَانِ

وَهُوَ يَضْفِئُ فِي كَسَلٍ أَكَالِيلَ زَهْرِ الْقُونَجَا

وَهُوَ يُحِبُّ الْغَوْصَ وَالتَّخْبُطَ

فِي مَجَارِي نَهْرِ جَامُونَا الْبَارِدَةِ الْعَمِيقَةِ

لِأَنَّهُ يُوقِظُ رِفَاقَهُ

حِينَ يَبْزُغُ الصَّبَاحُ

وَفِي كُلِّ بَيْوتِ الدَّرَبِ

يَتَرَدَّدُ صَدَى

وَالْبَهَائِمُ تُثِيرُ سُحْبًا مِنَ الْعُبَارِ

وَالصَّبَّاءَا يَخْرُجْنَ إِلَى بَاحَاتِ الْبُيُوتِ

لِحَلْبِ الْأَبْقَارِ
 وَعِنْدَمَا يَتَكَاثَفُ الظِّلُّ تَحْتَ أَشْجَارِ الطُّومَالِ
 وَيَتَجَهَّمُ الْغُرُوبُ فِي ضِيْفِ النَّهْرِ
 وَعِنْدَمَا تَعْبُرُ الْحَلَّابَاتُ مِيَاهَ النَّهْرِ
 الْهَائِجَةَ ، وَيَرْتَجِفْنَ مِنَ الْخَوْفِ
 وَعِنْدَمَا تَقُومُ طُيُورُ الطَّاوُوسِ الثَّرْنَارَةِ
 بِالرُّقْصِ فِي الْغَابِ رَقْصَةَ دَائِرِيَّةٍ
 يَنْظُرُ هُوَ الْعُيُومَ الصَّيْفِيَّةَ
 وَحِينَ يَكُونُ اللَّيْلُ فِي إِبْرِيلٍ عَذْبًا
 مِثْلَ الزُّهْرَةِ الْحَدِيثَةِ التَّفَتْحِ
 يَبْدُو هُوَ فِي الْغَابِ
 وَقَدْ عَرَزَ فِي شَعْرِ رَأْسِهِ رِيْشَةَ نَعَامٍ
 وَجِبَالُ الْأَرَاكِحِ فِي الْغَابَةِ
 تَبْدُو مَعَ الزُّهُورِ الْمُتَفَتِّحَةِ فَوْقَ الْأَعْصَانِ
 وَرِيحُ الْجَنُوبِ تَرْتَجِفُ بِالْمُوسِيقَى

وَالرُّعَاةُ الصَّغَارُ الْفَرَحُونَ يَتَجَمَّعُونَ
 عَلَى ضِفافِ النَّهْرِ الْأَزْرَقِ
 كَلَّا يَا إِخْوَتِي
 مَا كَانَ لِي أَنْ أَكُونَ زَعِيمَ هَذَا الْعَهْدِ
 الْجَدِيدِ، فِي الْبَنْغَالِ الْجَدِيدَةِ
 وَمَا كُنْتُ لِأَهْتَمُّ بِأَنْ أَضِيءَ
 نُورَ الثَّقَافَةِ لِلجَاهِلِينَ
 لَوْ كُنْتُ قَدْ وَلِدْتُ تَحْتَ
 الْغَابَاتِ الصُّغِيرَةِ الظِّلِيلَةِ
 فِي أَيِّ قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى بِرُنْدَا
 حَيْثُ الصَّبَايَا يَحْلِينَ الْبُسُورَاتُ .

هُنَاكَ رَقِيبٌ مُنْتَبِهٌ يَجْلِسُ خَلْفَ عَيْنِي
 وَيَبْدُو أَنَّهُ قَدْ رَأَى حَوَادِثَ الْأَكْوَانِ

وَالْعُهُودِ

بِمَا يَتَجَاوَزُ شَاطِئَ الذَّاكِرَةِ

وَهَذِهِ الرُّؤْيُ الْمُنْسِيَّةُ

تُؤْمِضُ فَوْقَ الْعُشْبِ

وَتَرْتَجِفُ فَوْقَ الْأُورَاقِ

لَقَدْ رَأَى تَحْتَ خُمْرٍ جَدِيدَةٍ

وَجَهَ حَبِيبَتِهِ الْوَحِيدَةِ

فِي سَاعَةِ غُرُوبِ كَثِيرٍ مِنَ النُّجُومِ

الَّتِي لَا أَسْمَاءَ لَهَا .

وَلِذَا كَانَتْ سَمَاوُهُ تَبْدُو

وَهِيَ تَتَعَذَّبُ بِعَذَابٍ لَا حَدَّ لَهُ

مِنَ الْإِلْقَاءِ وَالْفِرَاقِ

وَرَعْبَةً تَكْتَسِيحُ هَذَا النَّسِيمَ الرَّبِيعِي

رَعْبَةً جَامِحَةً فِي تَنْهَدَاتِ

الْعُصُورِ الَّتِي لَمْ تَبْدَأْ أَبَدًا

رِسَالَةٌ بَلَغْتَنِي

مِنْ شَبَابِي

فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ :

إِنِّي فِيهِ انْتَظَارِكَ

فِي خَفَقَاتِ شَهْرٍ مَا يُؤْ

الْقَادِمِ مِنْ بَعِيدٍ

حَيْثُ الْابْتِسَامَاتُ تَنْضِجُ فِي الدُّمُوعِ

وَالسَّاعَاتُ تَتَوَجَّعُ لِأَغَانٍ لَمْ تُغْنِ

فَأَذْرِكُنِي

عَبْرَ دَرْبِ الزَّمَنِ الْبَاهِي

وَعَبْرَ بَوَابَاتِ الْمَوْتِ .

ذَلِكَ أَنَّ الْأَحْلَامَ تَتَلَاشَى

وَالْأَمَالَ تَظَلُّ غَيْرَ مُنْتَظَرَةٍ

وَالْفَوَاحِشَ الْمُقْطُوفَةَ تُتْنِنُ

وَلَكِنِّي أَنَا الْحَقِيقَةُ الْخَالِدَةُ
سَتَلْتَقِي بِي دَائِمًا، وَمِنْ جَدِيدٍ،

42

فِي رِحْلَةِ حَيَاتِكَ
مِنْ شَاطِئِ إِلَى آخِرٍ.
أَنْتِ مُجَرَّدُ صُورَةٍ مَرْسُومَةٍ
وَلَسْتُ شَيْئًا حَقِيقِيًّا كَالنُّجُومِ.
وَحَقِيقِيًّا كَهَذَا التُّرَابِ
لِئَنهَا كُلُّهَا تَرْتَجِفُ بِخَفَقَةِ الْحَيَاةِ
أَمَّا أَنْتِ فَبَعِيدَةٌ بَعْدًا سَحِيقًا
فِي صَمْتِكَ .
مُجَرَّدُ صُورَةٍ مَرْسُومَةٍ .
كَانَ ذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي صَحَبْتَنِي إِلَى النَّزْهَةِ
وَكَانَتْ أَعْضَاؤُكَ كُلُّهَا تَتَغَنَّي بِالْحَيَاةِ .
وَوَجَدَ كَوْنِي لُغْتَهُ فِي صَوْتِكَ

وَلَمَسْتُ قَلْبِي بِمُحْيَاكِ
ثُمَّ فَجَاءَتْ أَوْقَفْتُ خُطُوبَاتِكَ
فِي ظِلِّ الْخُلُودِ
وَتَابَعْتُ الطَّرِيقَ وَخَلِي .
إِنَّ الْحَيَاةَ كَالطُّفْلِ
يَضْحَكُ
وَهُوَ يَلْهُو بِرَيْنِ أَجْرَاسِ الْمَوْتِ
وَجِينَ كُنْتُ تَتَقَدَّمِينَ مُسْرِعَةً
كُنْتُ تَدْعِينَنِي فَأَتَابِعُ اللَّامَنْظُورَ
وَلَكِنَّكَ كُنْتَ هُنَاكَ ،
حَيْثُ تَوَقَّفْتَ خَلْفَ التُّرَابِ ،
وَخَلْفَ النُّجُومِ .
وَكُنْتُ مُجَرَّدَ صُورَةٍ مَرْسُومَةٍ .
لَا . . لَا يُمَكِّنُ
إِذَا كَانَ مَدُّ الْحَيَاةِ قَدْ تَوَقَّفَ فِيكَ .

إِلَى الْأَبَدِ
 فَسَيَتَوَقَّفُ النَّهْرُ عَنْ جَرِيَانِهِ
 وَتَتَوَقَّفُ خُطَوَاتُ الْفَجْرِ فِي إِبْقَاعَاتِ
 أَلْوَانِهَا
 وَإِذَا كَانَ الْبَرِيقُ الْوَاهِنُ لِشَعْرِكَ
 قَدْ تَلَا شَى فِي الظَّلَامِ دُونَ أَمَلٍ
 فَإِنَّ ظِلَالَ الصَّيْفِ فِي الْعَابِ
 تَمُوتُ هِيَ وَأَحْلَامُهَا .
 أَيْمَكِنْ حَقًّا أَنْ أُنْسَاكِ؟
 إِنَّنَا نَتَابِعُ طَرِيقَنَا بِلَا انْتِيَاوِ
 نَاسِيِينَ الزُّهُورَ الْمُتَشِيرَةَ
 فِي السَّهْلِ أَوْ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ
 وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهَا تُوَاصِلُ إِرْسَالَ عِطْرِهَا
 مُتَجَاهِلَةً نِسْيَانَنَا
 مُفْعِمَةً إِيَّاهُ بِالْمُوسِيقَى .

لَقَدْ ابْتَعَدْتَ عَنِّ عَالَمِي
لِتَأْخُذَنِي مَكَانَكَ فِي جُذُورِ حَيَاتِي
وَلِذَا فَإِنَّ هَذَا النُّسِيَانُ
هُوَ ذِكْرِي ضَائِعَةٌ فِي الْأَعْمَاقِ .
لَمْ تَعُوْدِي أَمَامَ أَغْنِيَاتِي
وَلَكِنَّكَ مُنْصَهَرَةٌ فِيهَا
وَتَأْتِينَ إِلَيَّ مَعَ أَوَّلِ أَشْبَعَةِ الْفَجْرِ .
لَقَدْ فَقَدْتُكَ فِي آخِرِ الذَّهَبِ الْمَسَائِي
وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ صُرْتُ أَعْثَرَ عَلَيْكَ
عَبْرَ الظُّلْمَةِ
كَلَّا . . أَنْتِ لَسْتِ مُجَرَّدَ
صُورَةٍ مَرْسُومَةٍ .

43

بِمَوْتِكَ
تَرَكْتِ خَلْفَكَ

الْحُزْنَ الْأَبْدِيَّ الْعَظِيمَ

فِي حَيَاتِي

وَلَوُتِ أَفْقَ أَفْكَارِي

بِأَلْوَانِ غُرُوبِ رَحِيلِكَ

تَارِكًا مَسَارًا مِنَ الدُّمُوعِ

مَنْطَلِقًا

عَبْرَ الْأَرْضِ حَتَّى سَمَاءِ الْحَبِّ

وَبَيْنَ ضَمَّةِ ذِرَاعَيْكَ الرَّائِعَتَيْنِ الْعَزِيزَتَيْنِ

تَوَحَّدْتُ فِي نَفْسِي الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ

فِي رِبَاطِ زَوْجِي .

يَبْدُو لِي أَنِّي أَرَاكَ

تَرْقُبِينَ مِنَ الشَّرْفَةِ

بِمَصْبَاحِكَ الْمُنِيرِ

إِلَى حَيْثُ تَلَقَّيْتُ النِّهَايَةَ وَالْبَدَايَةَ

لِكُلِّ الْأَشْيَاءِ ،

لَقَدْ دَخَلَ كَوْنِي مِنَ الْأَبْوَابِ الَّتِي فَتَحْتَهَا
أَنْتِ الَّتِي تَرْفَعِينَ كَأْسَ الْمَوْتِ
إِلَى شَفَتِي، وَقَدْ مَلَأَتْهَا حَيَاةً
بِحَيَاتِكَ .

47

الطَّرِيقُ رَفِيقَتِي
تَتَحَدَّثُ إِلَيَّ، تَحْتَ أَقْدَامِي، طُولَ الْيَوْمِ
وَتُغْنِي لِأَحْلَامِي، طُولَ اللَّيْلِ
لَيْسَ لِلْقَائِي بِهَا بَدَايَةٌ
وَهُوَ يَبْدَأُ كُلَّ يَوْمٍ دُونَ نِهَايَةٍ
مُجَدِّدَةً صَيْفَهَا
فِي أَزْهَارِ طَرِيقَةٍ وَأَعْنِيَاتٍ عَذْبَةٍ
وَكُلُّ قُبْلَةٍ جَدِيدَةٍ
هِيَ الْقُبْلَةُ الْأُولَى عِنْدِي .

أَنَا وَالطَّرِيقُ عَاشِقَانِ
إِنِّي أُغَيِّرُ مَلَأَ بَسِي مِنْ أَجْلِهَا
كُلَّ لَيْلَةٍ
وَأَتْرُكُ ثِقَلَ الْأَسْمَالِ الْبَالِيَةِ
فِي الْخَانَاتِ الَّتِي تَنْتَشِرُ عَلَى الطَّرِيقِ
عِنْدَمَا يَشْرُقُ النَّهَارُ

48

كُنْتُ أَقْطَعُ كُلَّ يَوْمٍ الطَّرِيقَ الْقَدِيمَةَ نَفْسَهَا
حَامِلًا فَوَاحِشِي إِلَى السُّوقِ
أَوْ قَطِيعِي الصَّغِيرَ إِلَى الْمَرْعَى
كَمَا كُنْتُ أَعْبُرُ النَّهْرَ بِزَوْرَقِي
وَكُلَّ الدُّرُوبِ مَعْرُوفَةً عِنْدِي
وَفِي صَبَاحِ أَحَدِ الْأَيَّامِ
كَانَتْ سَلَّتِي مَلَأَتْ بِالسَّلْعِ

كَانَ الرَّجَالُ مُنْصَرِّفِينَ إِلَى أَعْمَالِ الْحَقْلِ
 وَالْمَرَاعِي عَامِرَةً بِالْقُطْعَانِ
 وَنَهْدُ الْأَرْضِ مُتَنَفِّحًا بِنَهْجَةٍ
 الْأَرْضُ الَّذِي يَنْضِجُ
 وَبَغْتَةً كَانَتْ هُنَاكَ رَجْفَةٌ قَوِيَّةٌ فِي الْجَوِّ
 وَبَدَتْ السَّمَاءُ وَكَأَنَّهَا تَقْبِلُنِي فِي جَيْبِي
 وَقَفَزَ تَفْكِيرِي وَظَهَرَ ظُهُورُ الصَّبَاحِ عَلَى الضَّبَابِ
 وَنَسِيتُ مُتَابَعَةَ السَّيْرِ فِي الطَّرِيقِ الْمَعْهُودَةِ
 وَانْحَرَفْتُ عَنْهَا بِضَعِ خُطُواتِ
 وَبَدَأَ لِي عَالَمِي الْمَأْلُوفُ غَرِيبًا عَنِّي
 مِثْلَ الزَّهْرَةِ الَّتِي لَمْ أَعْرِفْهَا إِلَّا عِنْدَمَا كَانَتْ بُرْعُمًا
 وَشَعَرْتُ مَعْرِفَتِي بِالْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ بِالْخَجَلِ .
 لَقَدْ انْحَرَفْتُ إِلَى طَرِيقِ الْعَالَمِ الْمَسْحُورِ
 الْمَفْتُونِ بِالْأَشْيَاءِ .
 وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ حُظُوظِ حَيَاتِي

أَن ضَلَلْتُ الطَّرِيقَ فِي ذَلِكَ الصَّبَاحِ ،
وَأَن أَجِدَ صِبْيَا الْخَالِدِ .

49

سَأَلَنِي الطِّفْلُ
أَيْنَ يَقَعُ الْفِرْدَوْسُ ؟
يَقُولُ الْحُكَمَاءُ :
إِنَّهُ يَقَعُ فَيْمًا وَرَاءَ حُدُودِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ .
وَلَا يَخْضَعُ لِنِظَامِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .
وَلَيْسَتْ لَهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ الْأَرْضِ .
وَلَكِنَّ شَاعِرَكَ يَعْرِفُ ،
أَنَّهُ جَائِعٌ جُوعاً أَبَدِيّاً لِلزَّمَانِ وَالْمَكَانِ
وَهُوَ يُصَارِعُ دَوْمًا لِكَيْ يُوَلَدَ فِي الْأَرْضِ الْخَصِيْبَةِ
إِنَّ الْفِرْدَوْسَ فِي جَسَدِكَ اللَّطِيفِ
يَا طِفْلِي .

وَفِي قَلْبِكَ الْخَفَاقُ .
 إِنَّ الْبَحْرَ يَنْقُ طُبُولَ الْفَرْحِ ،
 وَالزُّهُورَ تَشْرِيبُ وَتَقِفُ عَلَى أَطْرَافِ
 أَقْدَامِهَا لِتُقَبِّلَكَ
 لِأَنَّ الْفِرْدَوْسَ وَلَدَ مَعَكَ
 فِي أَحْضَانِ أُمَّنَا الْأَرْضِ .

54

فِي بَدَايَاتِ الْأَزْمِنَةِ
 وَمِنْ غَلْيَانِ أَحْلَامِ الرَّبِّ
 ظَهَرَتْ امْرَأَتَانِ
 وَاحِدَةٌ هِيَ الَّتِي تَرْقُصُ فِي بِلَاطِ الْفِرْدَوْسِ
 بِشَهَوَاتِ الرِّجَالِ
 وَهِيَ تِلْكَ الضَّاحِكَةُ الَّتِي تَجْتَذِبُ
 عُقُولَ الْحُكَمَاءِ وَتَصْرِفُهُمْ عَنْ تَأْمُلَاتِهِمْ

كَمَا تُخْرِجُ الْأَعْبِيَاءَ مِنْ فَرَاعِهِمْ
 وَتَنْشُرُهُمْ كَمَا تُنْثِرُ الْبُذُورُ
 فِي عَيْثٍ إِلَى رِيَّاحٍ مَارِسٍ غَيْرِ الْمَأْلُوفَةِ
 أَوْ فِي فَوْرَةٍ مَأْيُوِ الْمُزْهَرَةِ
 أَمَّا الْأُخْرَىٰ فَهِيَ مِلْكَةُ السَّمَاءِ
 إِنَّهَا الْأُمُّ الْجَالِسَةُ عَلَى عَرْشِ
 فَيْضِ الْخَرِيفِ الذَّهَبِيِّ
 هِيَ الَّتِي تَقُودُ الْقُلُوبَ الضَّالَّةَ
 فِي مَوْسَمِ الْحَصَادِ
 إِلَى ابْتِسَامَةِ حُلُوةِ كَالِدُمُوعِ
 وَالْجَمَالِ الْعَبِيقِ عُمُقَ بَحْرِ الصَّمْتِ
 وَتَحْمِيلُهَا إِلَى مَعْبَدِ الْمَجْهُولِ
 إِلَى التَّلَاقِي الْمَقْدَسِ
 لِلْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ

كَانَ مَسَائِي مُتَسِمًا بِطَايِعِ الْوَحْدَةِ
وَكُنْتُ أَقْرَأُ فِي كِتَابِ
حَتَّى جَفَّ قَلْبِي ، وَبَدَأَ لِي أَنَّ الْجَمَالَ شَيْءٌ
يَصُورُهُ نُجَارُ الْكَلِمَاتِ .
وَحِينَ شَعَرْتُ بِالتَّعَبِ ، أَغْلَقْتُ الْكِتَابَ
وَأَطْفَأْتُ الْمَصْبَاحَ ، وَفِي لَحْظَةٍ
خَاطِفَةٍ غَمَرَتِ الْعُرْفَةَ فَيْضٌ مِنْ نُورِ الْقَمَرِ
يَا رُوحَ الْجَمَالِ
أَيْتَهَا الرُّوعَةُ الَّتِي تُفْعِمُ السَّمَاءَ
كَيْفَ يُمَكِّنُكَ الْإِخْتِفَاءُ
وَرَاءَ لَهَيْبٍ هَزِيلٍ يَنْبُعُ مِنْ شَمْعَةٍ؟
كَيْفَ يُمَكِّنُ الْكَلِمَاتِ قَلِيلَةَ غَايِضَةٍ
أَنْ تَرْتَفِعَ مِنْ صَفَحَاتِ الْكِتَابِ
كَمَا يَرْتَفِعُ الضَّبَّابُ

وَتَكْشِفَ عَنْكَ
أَنْتَ الَّذِي سَكَنَ صَوْتُكَ
قَلْبَ الْأَرْضِ
فِي هُدُوءٍ يُفُوقُ الْوَصْفَ؟

(58)

أَشْيَاءُ تَتَجَمَّعُ وَتَضْحَكُ بِصَوْتِ عَالٍ فِي السَّمَاءِ
وَالرَّمَالُ وَالتُّرَابُ تَتَرَاقَصُ وَتَدُورُ
مِثْلَ الْأَطْفَالِ
وَفِكْرُ الْإِنْسَانِ اسْتَيْقَظَ عَلَى صُرَاخِهِمْ
وَكَانَتْ أَفْكَارُهُ تَرْغَبُ أَنْ تَكُونَ رَفِيقَةً لَهُمْ
فِي لُغْبَةِ الْأَشْيَاءِ
إِنْ أَحْلَا مَنَا الْمُتَدَفِّقَةَ فِي تِيَّارِ الْعَبَثِ
تَبْسِطُ ذِرَاعَيْهَا لِتُعَانِقَ الْأَرْضَ
وَيَتَحَقَّقَ مَجْهُودُهَا فِي صُحُورٍ وَآجِرٍ

وَهَكَذَا أُسِّسَتِ الْمُدُنُ .

أَصَوَاتُ تَأْتِي

مِنَ الْمَاضِي

وَحَفَقَانُ أَجْنَحَتِهَا يَمَلَأُ الْجَوَّ بِظِلَالٍ خَافِقَةٍ

وَالْأَفْكَارُ الْمُسَهَّلَةُ فِي تَفْكِيرِنَا

تَتَرَكُّ الْوَكْرَ لِتُحْلَقَ فِي صَحْرَاءِ الظُّلْمَةِ

فِي الظُّلْمَا اللَّاهِفِ إِلَى الْأَشْكَالِ

إِنَّهُمْ حُجَّاجٌ بِلَا ضَوْءٍ

يَبْحَثُونَ عَنْ شَاطِئِ النُّورِ

حَتَّى يَجِدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الْأَشْيَاءِ

سَوْفَ تَجْتَلِي بِهِمْ قَوَافِي الشُّعْرَاءِ

وَسَيَنْزِلُونَ فِي أَبْرَاجِ مُدُنٍ

لَمْ تُخَطَّطْ بَعْدُ

وَسَيُدْعَوْنَ إِلَى الْجُنْدِيَّةِ لِلْمُشَارَكَةِ

فِي مَعَارِكِ الْمُسْتَقْبَلِ

وَمَقْدَرٌ لَهُمْ أَنْ يُوحِدُوا الْأَيْدِي
فِي الصَّرَاعِ مِنْ أَجْلِ السَّلَامِ الَّتِي
سَوْفَ تَأْتِي

60

اسْتَرْجِعْ نُقُودَكَ
يَا مُسْتَشَارَ الْمَلِكِ.

أَنَا وَاحِدَةٌ مِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي بَعَثَ
بِهِنَّ إِلَى الْمَعْبَدِ فِي الْغَابِ
لِيُوقِعَنَّ النَّاسِكَ الشَّابَّ الَّذِي لَمْ يَرِ امْرَأَةً قَطُّ.
إِنْ مُهِمَّتِي قَدْ أَخْفَقَتْ.

كَانَ النَّهَارُ يَبْزُغُ حِينَ جَاءَ النَّاسِكُ الشَّابُّ.

لَيْسَتْ جَمَّ فِي الْجَدُولِ
وَقَدْ أَسَابَتْ عَلَى ظَهْرِهِ خُصَلَاتُ
شَعْرِهِ الْكَثِيفَةِ السَّمْرَاءِ
مِثْلَ عُقُودٍ مِنْ عُيُومِ الصَّبَاحِ.

وكانت أطرافه تتألق كحُزْمَةٍ
 من أشيعة الشمسِ
 وكُنَّا نُغْنِي ضَاحِكَاتِ
 وَنُجَدِّفُ بَزُورِقِنَا
 وَأَلْقَيْنَا أَنْفُسِنَا فِي فَرْحَةٍ مَجْنُونَةٍ
 إِلَى الْعُومِ فِي النَّهْرِ، كَمَا رَقَصْنَا حَوْلَهُ

حِينَ بَزَغَتِ الشَّمْسُ وَرَمَقَتْنَا مِنْ
 حَوَائِجِي الْمَاءِ فِي فَوْرَةِ حَمَاءٍ مِنَ الْغَضَبِ
 الْمُقَدَّسِ .

ومثل صبي قديس، فَتَحَ عَيْنَيْهِ
 وَرَاقِبَ حَرَكَاتِنَا مُنْدهِشاً
 ثُمَّ تَأَلَّقَتْ عَيْنَاهُ كَمَا تَتَأَلَّقُ لُجُومُ الصَّبَاحِ
 فَأَطْلَقَ يَدَيْهِ الْمَضْمُومَتَيْنِ
 وَعَنَى أُنْشُودَةً مِنْ أُنَاشِيدِ الشُّكْرِ
 بِصَوْتِهِ الشَّابِّ الَّذِي يُشْبِهُ تَغْرِيدَ

العُصْفُورِ
 فَهَزَّ كُلَّ وَرَقَةٍ فِي الْغَابِ .
 أَبَدًا لَمْ تُغْنِْ مِثْلُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ
 لِامْرَأَةٍ فَانِيَةٍ
 قَبْلَ ذَلِكَ كَانَتْ مِثْلَ الْأَنَاشِيدِ الصَّامِتَةِ
 الَّتِي تَرْفَعُهَا الْهَضَابُ الصَّامِتُ إِلَى الْفَجْرِ
 وَأَخْفَتِ النِّسَاءُ تُغَوِّرُهَا بِأَيْدِيهَا
 فَاهْتَزَّ جَسَدُهُ لِهَذِهِ الضُّحَكَاتِ
 وَسَحَابَةُ كَثِيفَةٍ مِنَ الشُّكِّ عَبَرَتْ وَجْهَهُ
 وَبَسُرْعَةٍ جِئْتُ إِلَى جَانِبِهِ
 وَفِي نَفْسِي أَلَمْ عَمِيقٌ
 وَالْحَنِينُ أَمَامَ قَدَمَيْهِ قَائِلَةٌ :
 يَا سَيِّدِي . . أَقْبِلْ خِدْمَتِي
 فَاقْتُلْنِي إِلَى الضُّفَّةِ الْمُعَشْبَةِ
 وَجَفَفْتُ جِسْمَهُ بِحَافَةِ إِزَارِي الْحَرِيرِي

وَرَكَعْتُ عَلَى الْأَرْضِ
وَجَفَّقْتُ أَقْدَامَهُ بِشَعْرِي
وَحِينَ رَفَعْتُ وَجْهِي وَنَظَرْتُ فِي عَيْنَيْهِ
بَدَا لِي أَنِّي أَحْسُ أَوَّلَ قُبْلَةٍ
فِي الْكَوْنِ أُعْطِيتِ لِأَوَّلِ امْرَأَةٍ
مُبَارَكَةٌ أَنَا

وَمُبَارَكُ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَنِي امْرَأَةً
وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ لِي :
أَيَّ إِلَهٍ مَجْهُولٍ هِيَ أَنْتِ . .
إِنْ لَمْ تَسْتَكْ هِيَ لَمْ تَسْ خَالِدٍ
وَفِي عَيْنَيْكَ سِرٌّ مُنْتَصِفِ اللَّيْلِ
لَا . . لَا يَا مُسْتَشَارَ الْمَلِكِ

عَبَّو النَّهْرَ

4

تَقَبَّلْنِي

يَا إِلَهِي

هَذِهِ الْمَرَّةَ ، تَقَبَّلْنِي بِقَبُولِكَ

اجْعَلْنِي أَنْسَى هَذِهِ الْأَيَّامَ الْيَسِيمَةَ

الَّتِي مَرَّتْ بِدُونِكَ .

وَأَطِيلُ فَقْطِ مِنْ عُمْرِ هَذِهِ اللَّحْظَةِ

فِي حِضْنِكَ .

وَأَضِيعُ إِيَّاهَا تَحْتَ نُورِكَ .

لَقَدْ جِئْتُ الْآفَاقَ

مُتَابِعاً أَصْوَاتاً جَذْبَتْنِي دُونَ أَنْ تُقَوِّدَنِي

إِلَى أَيِّ مَكَانٍ

فاجْعَلْنِي الْآنَ أَجْلِسَ فِي أَمْنٍ
مُصْنِعِيَا إِلَى كَلِمَاتِكَ
فِي رُوحِ صَمْتِي .
لَا تُشِيعْ بَوَجْهِكَ
عَنْ أَسْرَارِ قَلْبِي الْغَامِضَةِ
وَلَكِنْ أَحْرِقْهَا حَتَّى تُضَاءَ بِنِيرَانِكَ .

5

طَلَائِعُ الْعَاصِفَةِ الْبَعِيدَةِ
رَفَعَتْ خِيَامَهَا فِي غُيُومِ السَّمَاءِ
وَالنُّورُ أَخَذَ يَشْحُبُ .
وَالْجَوُّ مُبَلَّلٌ بِالدُّمُوعِ
فِي الظَّلَالِ الصَّامِتَةِ بِالْغَابَةِ .
إِنْ سَلَامَ الْحُزْنِ يُخَيِّمُ عَلَى قَلْبِي
كَمَا يُخَيِّمُ الصَّمْتُ الثَّقِيلُ عَلَى الْعُودِ

قَبْلَ أَنْ يَشْرَعَ فِي بَعثِ أَنْعَامِهِ .

إِنْ كَوْنِي مَا يَزَالُ

فِي انْتِظَارِ ذَلِكَ الْأَلَمِ الْكَبِيرِ

الَّذِي يُصَاحِبُ دُخُولَكَ

فِي حَيَاتِي

8

إِنْ الْمَصِيبَاحَ الَّذِي أَحْمِلُهُ بِيَدِي

يَزِيدُ مِنْ عَدَاوَةِ الظُّلْمَةِ فِي الطَّرِيقِ الْمُمْتَدِّ أَمَامِي .

وَحَافَةُ الطَّرِيقِ هَذِهِ تَغْدُو رُعْبًا

حَيْثُ يَبْدُو حَتَّى الشَّجَرُ الْمُزْهِرُ

كَأَنَّهُ شَبَحٌ يَتَوَعَّدُنِي بِالْوَيْلِ .

وَوَقَعُ خُطُواتِي يَبْلُغُنِي فِي صَدَى

شَكِّ خَفِيِّ

وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ فَإِنِّي أَدْعُو

أَنْ يُضِيءَ نُورُ الصَّبَاحِ
لِقَاءِ الْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ ، فِي قُبْلَةٍ
وَأَنْ تَتَوَحَّدَ الْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ
فِي حُبٍّ وَاحِدٍ .

9

حِينَ تُنْقِذُ خُطَوَاتِي
فَلْيُهَا تَغْلُو أَحْفَافِي زَحْفَهَا بِأَكْوَانِكَ
وَحِينَ تَغْسِلُ الْبُقْعَ مِنْ قَلْبِي
فَلْيَهْ يَنْبِرِ ضَوْءُ شَمْسِيكَ
فَكُونِ الْبُرْعَمِ لَمْ يُزْهِرْ بِجَمَالِهِ فِي حَيَاتِي
يَنْثُرُ حُزْنَاً فِي قَلْبِ الْخَلْقِ .
وَحِينَ يَرْفَعُ غِشَاءُ الظُّلْمَةِ
عَنْ نَفْسِي

فَإِنَّهَا سَوْفَ تَحْمِلُ النِّعَمَ

لَا يَسْأَمُكَ

10

لَقَدْ أَعْطَيْتَنِي حُبَّكَ

مُنْعِمًا الْكَوْنَ كُلَّهُ بِهَبَاتِكَ

وَقَدْ انْهَالَتْ كُلُّهَا فَوْقِي كَالْمَطَرِ

فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَمْ أَكُنْ أَفْهَمُهَا

لَأَنَّ قَلْبِي كَانَ سَادِرًا فِي نَوْمِهِ

وَاللَّيْلُ حَوْلِي مُظْلِمٌ

وَرَعَمَ أَتَى ضَائِعٌ فِي كَهْفِ أَخْلَامِي

فَقَدْ هَزَّتْنِي غِبْطَةٌ فُجَائِيَّةٌ .

إِذَا عَرِفْتُ أَنَّهُ فِي مُقَابِلِ كُنُوزِ

كَوْنِكَ الْعَظِيمِ .

سَتَقْبَلُ مِنِّي

زُهَيْرَةٌ حُبٌّ صَغِيرَةٌ

عِنْدَ الصَّبَاحِ

الَّذِي يَسْتَيْقِظُ فِيهِ قَلْبِي .

17

ارْفَعْ حَيَاتِي هَذِهِ مِنَ التُّرَابِ

وَضَعْهَا تَحْتَ بَصْرِكَ

فَوْقَ رَاحَةِ يَمَنَّاكَ

ارْفَعْهَا إِلَى الضُّوءِ

وَحَبِّئْهَا تَحْتَ ظِلِّ الْمَوْتِ

وَضَعْهَا مَعَ نُجُومِكَ

فِي سَلَةِ اللَّيْلِ

18

وَفِي الصَّبَاحِ دَعَهَا تُوجَدُ بَيْنَ الزُّهُورِ الَّتِي تَتَفَتَّحُ لِعِبَادَتِكَ

إِنِّي لَأَعْلَمُ

أَن هَذِهِ الْحَيَاةُ

التي تَفْتَقِرُ إِلَى النُّضْجِ فِي صَمِيمِ الْحُبِّ
لَمْ تَضِعْ تَمَاماً
وَأَعْلَمُ أَنَّ الزُّهُورَ الَّتِي تَذْبُلُ عِنْدَ الْفَجْرِ
وَالْأَنْهَارَ الَّتِي تَتِيهُ فِي الصُّحَرَاءِ
لَمْ تَضِعْ تَمَاماً
وَأَعْلَمُ أَنَّ أَيُّ شَيْءٍ يَتَخَلَّفُ
فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمُثْقَلَةِ بِالْبُطْءِ
لَمْ يَضِعْ تَمَاماً
وَأَعْلَمُ أَنَّ أَحْلَامِي الَّتِي لَمْ تَتَحَقَّقْ بَعْدُ
وَأَغَانِي الَّتِي لَمْ تُعَزَفْ بَعْدُ
تَتَشَبَّثُ بِوَتَرٍ مِنْ عُودِكَ
وَلَمْ تَضِعْ تَمَاماً

(20)

النَّهَارُ غَائِمٌ مُمَطِّرٌ

وَبُرُوقُ غَاضِيَةٍ
تَلْمَعُ عِبْرَ أَسْمَالِ السُّحُبِ .
وَالْغَابَةُ مِثْلُ الْأَسَدِ السَّجِينِ
فِي الْقَفْصِ .
يَهْزُ عَفْرَتَهُ فِي يَاسٍ
وَفِي مِثْلِ هَذَا النَّهَارِ
الَّذِي تَتَجَادَبُهُ الرِّيحُ الْخَافِقَةُ بِأَجْنِحَتَيْهَا
دَعْنِي أَجِدَ الْأَمْنَ فِي حُضُورِكَ
فَالسَّمَاءُ الْمُتَوَجِّعَةُ
عَتَمَتْ وَحَدَّتَنِي
لِتُعَمِّقَ الشُّعُورَ بِلَمْسَتِكَ
حَوْلَ قَلْبِي

23

اقْتَرَبْتُ مِنْكَ

وَعَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مِنِّي
جَرَحْتُكَ .

لَقَدْ كُنْتُ أَمْتَلِكُكَ كَسَيِّدِي

حِينَ كُنْتُ أَقَاوِمَكَ

لِكَيْ أَهْرَبَ أَمَامَكَ .

وَحِينَ كُنْتُ أَسْرِقُكَ

لَمْ أَكُنْ أَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ أَجْلِ

أَنْ أَجْعَلَ دِينِي

نَحْوَكَ أَكْثَرَ ثِقَلًا .

وَفِي كِبَرِيَّائِي الْجَامِحَةِ

كُنْتُ أَوَاجِهُهُ تَبَارَكَ الْجَارِفُ .

فَقَطْ

مِنْ أَجْلِ أَنْ أَحِسُّ بِكُلِّ الْقُوَّةِ فِي صَدْرِي .

وَفِي ثَوْرِي

أَطْفَاتُ أَضْوَاءَ بَيْتِي

فَفَاجَأْتَنِي سَمَؤُكُ
بِنُجُومِهَا .

(25)

إِنِّي أَخْفِي نَفْسِي
هَرَبًا مِنْكَ .
وَالآنَ وَقَدْ أَلْقَيْتَ عَلَيَّ الْقَبْضَ
اضْرِبْنِي .
وَانْظُرْ إِذَا كُنْتُ سَاقَتْهَقَرُ .
أَخْتَمَ هَذِهِ الْمُبَارَاةَ إِلَى الْأَبَدِ .
فَإِذَا انتَصَرْتَ فِي النَّهَائَةِ
فَإَنْزِعْ مِنِّي كُلَّ مَا بِحَوْزَتِي .
لَقَدْ نَعِمْتُ بِالضُّحَكَاتِ وَالْأُغْنِيَّاتِ
فِي أَكْوَاحِ مُنْشِرَةِ طُولِ الطَّرِيقِ
وَفِي قُصُورِ فَخْمَةٍ .

أَمَا الْآنَ وَقَدْ دَخَلْتَ حَيَاتِي

فَجَرَّبْتُ أَنْ تُبْكِيَنِي

وَانْظُرْ إِذَا كُنْتُ قَادِرًا

عَلَى تَمْزِيقِ قَلْبِي

26

حِينَ أَسْتَقِظُ فِي حُبِّكَ

فَإِنْ سَلَامَ لَيْلَتِي سَيَنْتَهِي .

وَسَيَمْتَحِنُ الْفَجْرُ قَلْبِي

بِمِيزَانِهِ النَّارِيِّ .

وَتَبْدَأُ رِحْلَتِي فِي مَدَارِ الْأَلَمِ الْظَافِرِ

وَأَجْرُؤُ عَلَى جَنِّي تَحْدِي الْمَوْتِ

وَأَحْمِلُ صَوْتَكَ

إِلَى قَلْبِ الْاسْتِخْفَافِ وَالْوَعِيدِ .

وَسَأُعْرِي صَدْرِي

لِتَلْقَى الْإِهَانَاتِ الَّتِي يَرْشِقْنِي بِهَا
أَبْنَاؤُكَ .

وَسَأَخَاطِرُ بِالْوُقُوفِ إِلَى جَانِبِكَ
فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَا يَقِفُ فِيهِ
إِلَى جَانِبِكَ
مَيَّوَايَ .

29

التَّقَيُّتُ بِكَ
حَيْثُ اللَّيْلُ يُلَامِسُ
أَطْرَافَ النَّهَارِ .
حَيْثُ النُّورُ يُضِيءُ ظُلْمَةَ الْفَجْرِ .
وَالْأَمْوَاجُ تَنْقُلُ قُبَلَاتِ الشَّاطِئِ
إِلَى الشَّاطِئِ الْآخَرِ .
وَمِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِ الزُّرْقَةِ الَّتِي لَا تُسَبِّرُ

كَأَن يَتَعَالَى هُتَافُ ذَهَبِي.
وَعَبَّرَ حِجَابٍ مِنَ الدُّمُوعِ
حَاوَلْتُ أَنْ أَرَى مُحَيَّاكَ
وَلَسْتُ عَلَى يَقِينٍ بِأَنْ أَرَكَ

30

إِذَا أُتِّكِرَ عَلَيَّ الْحُبُّ
فَلِمَاذَا يُوزَعُ الصَّبْحُ قَلْبَهُ فِي أَغْنِيَاتٍ؟
وَلِمَاذَا هَذِهِ التَّهْذُاتُ الَّتِي تُبَدِّدُهَا
رِيحُ الْجَنُوبِ بَيْنَ الْأَوْرَاقِ الطَّرِيقَةِ؟
وَإِذَا أُتِّكِرَ عَلَيَّ الْحُبُّ
فَلِمَاذَا يَحُولُ اللَّيْلُ فِي صَمْتٍ مُوجَعٍ.
عَذَابِ النُّجُومِ؟
وَلِمَاذَا هَذَا الْقَلْبُ الْمَحْبُولُ
يُلْقِي فِي طَيْشٍ.

أَمَلَهُ

فَوْقَ بَحْرِ لَا يَعْرِفُ لَهُ نَهَايَةَ؟

39

لَمْ يَأْتِ أَيُّ ضَيْفٍ إِلَى بَيْتِي

مُنْذُ وَقْتِ طَوِيلٍ .

وَالْأَبْوَابُ مُغْلَقَةٌ

وَالنَّوَافِذُ مَسْدُودَةٌ .

وَكُنْتُ أَقْدَرُ أَنْ لَيْلِي سَيَكُونُ وَحِيداً مُوحِشاً

وَلِكَيْنِي مَا كَذْتُ أَفْتَحُ عَيْنِي

حَتَّى وَجَدْتُ الظَّلَامَ قَدْ تَبَدَّدَ .

فَنَهَضْتُ مُسْرِعاً

وَرَأَيْتُ سَلَاسِلَ حَلِيقَتِي كُلِّهَا

قَدْ قُطِعَتْ .

وَعَبَّرَ الْبَابَ الْمَفْتُوحَ .

كَانَتْ رِيحُكَ وَأَنْوَارُكَ تَرْفَعُ أَعْلَامَهَا .
 وَحِينَ كُنْتُ أَسِيرًا فِي بَيْتِي
 وَالْأَبْوَابُ حَوْلِي مَسْدُودَةٌ
 كَانَ قَلْبِي يُخَطِّطُ لِلْهُرُوبِ وَالْإِفْلَاتِ
 أَمَّا الْآنَ فَإِنِّي أَجْلِسُ فِي صَمْتِ
 أَمَامَ بَوَابِي الْمَكْسُورَةِ
 وَأَنْتَظِرُ وَصُولَكَ .
 إِنَّكَ تَجْعَلُ مِنِّي أَسِيرًا لِحُرِّيَّتِي نَفْسِيهَا .

42

اجْعَلْنِي حُرًّا
 فِي مِثْلِ حُرِّيَّةِ طُيُورِ الْغَابِ
 وَالسَّالِكِينَ الدُّرُوبَ الْمَجْهُولَةَ .
 اجْعَلْنِي حُرًّا .
 كَمِثْلِ حُرِّيَّةِ سُيُولِ الْمَطَرِ

وَالْعَاصِفَةِ الَّتِي تَهْدُ السُّدُودَ
وَتَمْضِي نَحْوَ نَهَايَتِهَا الْمَجْهُولَةِ .
اجْعَلْنِي حُرّاً
فِي مِثْلِ حُرِّيَةِ نَارِ الْعَابِ
وَمِثْلِ الرَّعْدِ الَّذِي يَضْحَكُ مُدَوِّياً
وَيُلْقِي فِي عُنْفٍ بِتَحْدِيهِ لِلظُّلَامِ .

47

أَعِيشْ عَلَى الْحَافَةِ فِي ظِلِّ الطَّرِيقِ
وَأَرْقُبْ حَدَائِقَ الْجَبَرَانِ
الْقَائِمَةِ فِي أَقْصَى الطَّرِيقِ
وَهِيَ فَيَاضَةٌ بِالْبَهْجَةِ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ
وَأَحْسُ أَنْنِي فَقِيرٌ
وَأَنْتَقِلُ بِجُوعِي مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ .
وَكُلَّمَا زَادُوا مِنْ عَطَائِهِمْ

كُلَّمَا اَزْدَادَ شُعُورِي بِوَعَائِي الْمُتَسَوِّلِ
 حَتَّى كَانَ صَبَاحُ
 اسْتَبَقَطْتُ فِيهِ مِنْ نَوْمِي فَجَاءَ
 عَلَى صَرِيرِ انْفِتَاحِ الْبَابِ
 وَدَخَلَتْ اَنْتَ تَطْلُبُ مِنِّي الصَّدَقَةَ .
 وَلَمَّا يَاْسُ
 حَطَّمْتُ غِطَاءَ خِزَانَتِي
 وَاکْتَشَفْتُ بَغْتَةً تُرَوِّي الطَّائِلَةَ

48

لَقَدْ أَخَذْتَهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْكَ
 وَتَوَجَّهْتَ بِتَاجِ الْمَوْتِ .
 وَهُوَ الَّذِي كَانَ دَائِمًا يَنْتَظِرُ مُنْزَوِيًّا
 كَأَنَّهُ مُتَسَوِّلٌ أَمَامَ حَفْلِ الْحَيَاةِ .
 لَقَدْ وَضَعْتَ يَمِينَكَ فِي خِيَابَتِهِ

وَقَبْلَتُهُ بِالسَّلَامِ الَّتِي تُهْدَى

ظَمًا الْحَيَاةِ الصَّاحِبِ

لَقَدْ جَعَلْتَهُ وَاحِدًا مَعَ جَمِيعِ الْمُلُوكِ

وَمَعَ عَالَمِ الْحِكْمَةِ الْقَدِيمِ

(52)

جِئْتُ لِكَيْ أَظْفَرَ بِلَمْسِكَ

قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ يَوْمِي

فَلْتَدْعُ عَيْنِيكَ تَسْتَرِيحَانِ قَلِيلًا

فَوْقَ عَيْنِي.

وَدَعْنِي أَحْمِلَ إِلَى عَمَلِي

ضَمَانِ صِدَاقَتِكَ

وَأَنْعَمَ قَلْبِي بِمُوسِيقَاكَ

حَتَّى أَقْدِرَ عَلَى تَحْمِيلِ صَحْرَاءِ الضَّجِيجِ

دَعِ شَمْسَ حُبِّكَ

تَقَبَّلْ ذُرَى أَفْكَارِي .

وَتَمَهَّلْ فِي وِدْيَانِ حَيَاتِي

حَيْثُ تَنْضَجُ الْغِلَالُ

54

ابْقِ أَمَامَ عَيْنِي

وَدَعْ نَظْرَاتِكَ تُلْهَبُ أُغْنِيَاتِي

ابْقِ بَيْنَ نُجُومِكَ

وَدْعْنِي أَوْقِدَ عِبَادَتِي قُرْبَانًا لِأَنْوَارِهَا

إِنِ الْأَرْضَ تَظَلُّ فِي الْإِنْتَظَارِ

عَلَى قَارِعَةِ طَرِيقِ الْكَوْنِ

وَابْقِ وَأَقْفًا فَوْقَ الْبَسَاطِ الْأَخْضَرِ

الَّذِي فَرَشْتُهُ فِي طَرِيقِكَ

وَأَجْعَلْنِي أَحْسَّ فِي زُهُورِ الْحَقْلِ

امْتِدَادَ تَحِيَّتِي

أَبْقَ فِي مَسَائِي الْوَجِيدِ
 حَيْثُ يَسْهَرُ قَلْبِي وَحْدَهُ
 وَأَمْلَأُ كَأْسَ وَحْدَتِهِ
 حَتَّى يَشْعُرَ فِي شَخْصِي
 بِلَا مَحْدُودِيَّةِ حُبِّكَ

55

دَعْ حُبَّكَ يَعْزِفُ صَوْتِي
 وَيَسْتَرْيِحُ إِلَى صَمْتِي .
 دَعُهُ يَدْخُلُ ، عَبْرَ قَلْبِي
 فِي كُلِّ حَرَكَاتِي .
 وَاجْعَلْ حُبَّكَ يَتَأَلَّقُ مِثْلَ نُجُومِ
 الظُّلَمَةِ فِي أَحْلَامِي
 وَدَعُهُ يَبْزُغُ فِي يَفْطَنِي
 وَاحْرِقْهُ فِي نِيرَانِ شَهَوَاتِي

وَأَنْ يَجْرِيَ فِي كُلِّ جَدَاوِلِ حُبِّي
دَعْنِي أَحْمِلُ حُبَّكَ إِلَى صَوِّمٍ .
حَيَاتِي .
كَمَا يَحْمِلُ الْمَغْزَفُ الْحَانَةَ .
وَدَعْنِي أُعِيْدُهُ إِلَيْكَ
فِي الْخِتَامِ .
إِلَى جَانِبِ حَيَاتِي

56

يَا مَلِيكِي
إِنَّكَ تَحْتَبِيءُ فِي مَجْدِكَ نَفْسِي
إِنْ ذَرَّةَ الرَّمْلِ ، وَقَطْرَةَ الْمَطَرِ
أَكْثَرُ ظُهُوراً مِنْكَ
وَهَذَا الْكَوْنُ الْوَقْعُ يَدْعِي لِنَفْسِي
جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَحْصُكَ

دُونَ أَنْ يَشْعُرَ لِذَلِكَ بِالْخَجَلِ
وَتَرَكْ لَهُ الْمَجَالَ
مُنْزَوِيًّا فِي صَمْتٍ .
وَلِذَا ، فَإِنَّ الْحُبَّ يُوقِدُ مِصْبَاحَهُ
لِلْبَحْثِ عَنْكَ
وَيَعْبُدُكَ بِلَا إِكْرَافٍ .

57

حِينَ عُدْتُ مِنَ الْحَفَلَةِ إِلَى الْبَيْتِ
كَأَنْتَ رَوْعَةٌ مُتَصَفِّهِ اللَّيْلِ
قَدْ هَدَّأْتَ الرُّقْصَ فِي دَمِي .
وَصَارَ قَلْبِي فَجَاءَةً صَامِتًا
مِثْلَ مَسْرَحٍ مَهْجُورٍ أَطْفِئَتْ فِيهِ الْأَنْوَارُ
وَلَكِنْ فِكْرِي اجْتَاَزَ الظُّلْمَةَ
وَأَقَامَ بَيْنَ النُّجُومِ .

وَرَأَى أَتُّهَا كَانَتْ تَلْعَبُ
دُونَ خَوْفٍ
فِي السَّاحَةِ السَّائِنَةِ
مِنْ قَصْرِ
مَوْلَانَا الْمَلِكِ .

58

بِأَغْنِيَاتِهِ الصَّبَاحِيَّةِ
كَانَ يَطْرُقُ بَابَنَا
حَامِلًا إِلَيْنَا تَحِيَّاتِ الْفَجْرِ
وَيَرْفِقْتِهِ كُنَّا نَسُوقُ الْقُطْعَانَ إِلَى الْمَرْعَى
وَنَعْرِفُ نَائِنًا فِي الظِّلِّ
وَنَفْقِدُهُ لِنَجِدَهُ مِنْ جَدِيدٍ
بَيْنَ حُشُودِ السُّوقِ .
وَفِي سَاعَةِ الْاسْتِغْرَاقِ الْكَامِلِ فِي الْعَمَلِ .

كُنَّا نَعْتُرُ عَلَيْهِ صِدْقَهُ
 جَالِسًا فَوْقَ الْعُشْبِ عَلَى قَارَعَةِ الطَّرِيقِ .
 كُنَّا نَمْشِي حِينَ يَلْقَى طَبْلَهُ
 وَنَرْقُصُ حِينَ يُغَنِّي
 وَنُزَاهِنُ عَلَى أَفْرَاحِنَا وَآلَامِنَا
 حَتَّى نُنْهِيَ مَعَهُ مُبَارَاتِهِ .
 إِنَّهُ وَقَفَ إِلَى مِقْوَدِ زُورِقِنَا
 وَبِرْفَقَتِهِ كُنَّا نَتَمَايَلُ فَوْقَ الْأَمْوَاجِ الْخَطِيرَةِ
 وَبِرْفَقَتِهِ كُنَّا نُوقِدُ مِصْبَاحَنَا
 وَنَنْتَظِرُ الْوَقْتَ الَّذِي يَنْتَهِي فِيهِ النَّهَارُ .

(59)

فِي الصَّبَاحِ
 حِينَ تَلْقَى النَّوَاقِيسُ فِي مَعْبَدِكَ
 فَإِنَّ الرُّجَالَ وَالنِّسَاءَ

يَهْرَعُونَ إِلَيْكَ
عَبْرَ طَرِيقِ الْغَابِ
حَامِلِينَ هِبَاتِهِمْ مِنَ الزُّهُورِ
وَلَكِنِّي كُنْتُ اضْطَجَعُ فَوْقَ الْعُشْبِ
فِي الظِّلِّ
وَأَتْرَكُهُمْ يَمْرُونَ قُرْبِي
وَكُنْتُ أَرَى أَنَّهُ مِنَ الْأَحْسَنِ أَنْ أَتَكَاسَلَ
وَأَتَوَانَى
لَأَنْ زُهُورِي فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مَا زَالَتْ
فِي بَرَاعِيقِهَا
وَفِي نِهَآيَةِ الْيَوْمِ تَفْتَحُ زُهُورِي
وَحِينَئِذٍ ذَهَبْتُ إِلَى صَلَاتِي الْمَسَائِيَّةِ

(68)

هُنَاكَ أَوْتَارُ عَدِيدَةٍ فِي عُودِكَ

فَدَعْنِي أَصِيفُ إِلَيْهَا وَتَرِي .
وَحِينَ تَدْوِرُنْ أَنْعَامَكَ
يُحَطِّمُ قَلْبِي الصَّمْتُ
وَتَتَحَوَّلُ حَيَاتِي إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ
مَعَ أَغْنِيَّتِكَ .
وَبَيْنَ نُجُومِكَ الْعَلِيدَةِ
دَعْنِي أَضَعُ مِصْبَاحِي الضَّئِيلَ .
فَفِي رَقْصَةِ عِيدِ الْأَنْوَارِ
سَيَحْفُقُ قَلْبِي
وَتُصْبِحُ حَيَاتِي شَيْئًا وَاحِدًا
مَعَ ابْتِسَامَتِكَ

69

تِلْكَ غَايَتِي
أَنْ تَكُونَ أَغْنِيَّتِي بِسِيطَةِ كَبُزُوغِ الصَّبَاحِ
وَمِثْلَ النَّدى الَّذِي يَتَسَاقَطُ مِنْ فَوْقِ الْأُورَاقِ

بَسِيطَةً بَسَاطَةَ أَلْوَانِ الْغُيُومِ ،
 وَزَخَّاتِ الْمَطَرِ أَثْنَاءِ اللَّيْلِ
 وَلَكِنْ أَوْتَارَ عُودِي
 لَمْ تُشَدَّ وَتُضَبَّطْ إِلَّا مِنْذُ حِينِ
 وَهِيَ تُرْسِلُ أَنْغَامَهَا
 مِثْلَ الْأَسْهَمِ الْحَادِّهِ
 إِنَّهَا تَفْتَقِرُ إِلَى رُوحِ الرِّيحِ
 وَتَجْرَحُ ضَوْءَ النَّهَارِ
 وَهَذِهِ الْفَقَرَاتُ مِنْ أَغْنِيَاتِي
 تُصَارِعُ بِقُوَّةٍ
 لِكَيْ تَذْفَعَ عَنْ نَفْسِهَا
 مُوسِيقَاكَ .

فِي قَاعَةِ رَقْصِ الْحَيَاةِ .
وَفِي تَفْتَحِ الرَّبِيعِ الْمُبَاغِتِ
جَاءَتْ ابْتِسَامَتُكَ لِتَحِيَّتِي
وَحِينَ اضْطَجَعْتُ بَيْنَ زُهُورِ الْحَقْلِ
سَمِعْتُ هَمْسَاتِكَ تَسْرِي عَبْرَ الْأَعْشَابِ .
إِنَّ الطُّفْلَ حَمَلَ إِلَى بَيْتِي
رِسَالَةَ الْأَمَلِ
وَالْمَرَأَةَ حَمَلَتْ إِلَيْهِ مُوسِيقَى حُبِّكَ
وَالآنَ فَإِنِّي أَتَرَقَّبُ
عِنْدَ ضِيقَةِ الْبَحْرِ
أَنْ أَسْمَعَكَ فِي الْمَوْتِ
فَأَعُثِّرَ عَلَى تَرْنِيمَةٍ
الْحَيَاةِ
فِي أُغْنِيَةِ نُجُومِ اللَّيْلِ

أَذْكُرُ طُفُولَتِي
عِنْدَمَا كَانَ الْفَجْرُ
رَفِيقُ الْعَايِي
يَجْتَا حُ غُرْفَةَ نَوْمِي
بِمُقَاجَاةِهِ الصَّبَاحِيَّةِ الْيَوْمِيَّةِ
حِينَ كَانَ الْإِيْمَانُ بِالْمُذْهِلِ وَالرَّائِعِ
يَتَفَتَّحُ فِي قَلْبِي كُلَّ يَوْمٍ
مِثْلَ الزُّهُورِ الطَّرِيَّةِ
فَأَخْلَقَ فِي وَجْهِ الْكَوْنِ
بِغِبْطَةٍ سَادَجَةٍ
حِينَ كَانَتِ الْحَشَرَاتُ
وَالطُّيُورُ
وَالْحَيَوَانَاتُ

وَأَشْجَارُ الْقَصَبِ الْعَادِيَّةِ
وَالْأَعْشَابُ
وَالْغُيُومُ

تَحْفَظُ كُلُّهَا أَوْفَى قِيَمِ الْمَذْهِلِ وَالْمُثِيرِ
حِينَ كَانَتْ نُرْتَرَّةً أَمْطَارُ اللَّيْلِ
تَحْمِلُ إِلَيَّ أَحْلَامَ بَلَدِ الْخُورِيَّاتِ
وَصَوْتُ أُمِّي عِنْدَ الْمَسَاءِ
يَمْنَحُ النُّجُومَ مَعْنَى
وَحِينًا ، أَفَكَّرْتُ فِي الْمَوْتِ
وَرَفَعَ الْحِجَابِ
وَالْيَوْمِ الْجَلِيدِ
وَحَيَاتِي الْمُنْبَعِثَةِ
فِي مُفَاجَأَةِ الْحُبِّ الْمُنْعِشَةِ

72

أَيُّهَا الْكَوْنُ

حِينَ لَا يُقْبَلُكَ قَلْبِي قُبْلَةَ الْعَاشِقِ
 فَإِنْ تُورِكَ يَفْقِدُ رَوْعَةَ بِرِيقِهِ الْكَامِلِ
 وَسَمَاؤُكَ تَنْتَظِرُ بِمُصْبَاحِهَا الْمَوْقِدَ
 فِي اللَّيْلِ الطَّوِيلِ
 وَيَقْتَرِبُ قَلْبِي مِنْكَ بِأَغَانِيهِ
 وَتَبَادُلِ الْهَمَسَاتِ
 وَيَضَعُ إِكْلِيلَهُ فِي عُنُقِكَ
 وَأُذْرِكَ أَنَّهُ قَدْ وَهَبَكَ شَيْئاً
 سَيَكُونُ عَزِيزاً عَلَيْكَ
 أَثِيراً إِلَى نَفْسِكَ
 مَعَ نُجُومِكَ

(73)

مِنَ اللَّحْظَةِ الْأُولَى
 تَخَلَّيْتَ لِي عَنْ مَكَانِكَ مِنْ نَافِذَتِكَ

فَتَحَدَّثْتُ إِلَى عِبَادِكَ الصَّامِتِينَ
 مِنْ أَتْنَاءِ الشَّارِعِ الَّذِينَ يُهْرَعُونَ
 حَامِلِينَ هِبَاتِكَ
 وَغَنَّتْ مَعَ جَوْقَتِكَ السَّمَاوِيَّةُ
 وَرَأَيْتُ الْبَحْرَ يَحْفَظُ فِي هُدُوثِهِ
 صَمْتَهُ اللَّامَحْدُودَ
 كَمَا رَأَيْتُهُ يَهِيْجُ فِي الْعَاصِفَةِ
 لِيَكْشِفَ سِرَّهُ الْعَمِيقَ
 وَلَاحَظْتُ الْأَرْضَ فِي حَفْلِهَا السُّخْيِ
 بِشَبَابِهَا
 وَفِي السَّاعَاتِ الْبَطِيئَةِ لِلظَّلَالِ الثَّقِيلَةِ
 وَالَّذِينَ تَوَجَّهُوا لِلْحُقُولِ
 لِيُنْذِرَ الْبُدُورِ قَدْ أَصْغَوْا لِتَحِيَّتِي
 وَالَّذِينَ عَادُوا إِلَى الْبَيْتِ بِمَحَاصِلِهِمْ
 وَالَّذِينَ عَادُوا إِلَيْهَا بِسِلَالٍ فَارِغَةٍ

جَمِيعُهُمْ قَدْ مَرُّوا قُرْبَ أَغْنِيَايَ
وَأَخِيرًا انْتَهَى يَوْمِي .
وَالْيَوْمَ عِنْدَ الْمَسَاءِ
سَاعَتِي أَغْنِيَنِي الْأَخِيرَةَ
لَأَقُولَ لَكَ إِنِّي أَحْبَبْتُ كَوْنَكَ

74

لَقَدْ وَقَعَ عَلَيَّ
وَاجِبٌ أَنْ أَكُونَ مُنْشِدَكَ
وَفِي أَغَانِيَّ
أَعْطَيْتُ صَوْتًا لَزُهُورِ رَبِّيعِكَ
وَأَعْطَيْتُ إِيقَاعًا لِخَفِيفِ أَشْجَارِكَ
وَعَنَيْتُ فِي سَكُونِ اللَّيْلِ
وَفِي أَمْنِ الصَّبَاحِ .
وَرِخَاتِ الْمَطَرِ الصَّبْفِيِّ الْأُولَى

قَدْ امْتَرَجْتَ بِأَنْغَامِي
وَكَذَلِكَ تَمُوجُ مَحَاصِيلِ الْخَرِيفِ
يَا إِلَهِي
اجْعَلْ نَسِيدِي لَا يَتَوَقَّفُ عِنْدَ النَّهَآةِ
حِينَ تَشْقُ قَلْبِي لِتَدْخُلَ بَيْتِي
وَاجْعَلْهُ يَنْفَجِّرُ فِي التَّرْجِيبِ بِكَ

(77)

أَيُّهَا الْعَابِرُ
إِلَى أَيْنَ أَنْتَ ذَاهِبٌ؟
- إِنِّي ذَاهِبٌ لِلسَّبَاحَةِ فِي الْبَحْرِ عِنْدَ أَحْوَارِ الْفَجْرِ
وَعَبْرَ الطَّرِيقِ الطَّوِيلَةِ الْمُسْجَرَةِ
- أَيُّهَا الْعَابِرُ
- أَيْنَ يُوجَدُ هَذَا الْبَحْرُ؟
حَيْثُ النَّهْرُ يَخْتَمُ مَجْرَاهُ
حَيْثُ الْفَجْرُ يَنْطَوِي فِي النَّهَارِ

وَحَيْثُ النَّهَارُ يَغْرُبُ فِي الظُّلْمَةِ
- أَيُّهَا الْعَابِرُ

كَمْ عَدَدُ رُفَقَائِكَ الَّذِينَ يُصَاحِبُونَكَ؟
- لَا أَعْرِفُ كَيْفَ أَعُدُّهُمْ
إِنَّهُمْ يَرْحَلُونَ طَوَالَ اللَّيْلِ
بِمَصَابِيحِهِمُ الْمُوقَدَةَ
وَيُغْنُونَ طَوَالَ النَّهَارِ
عَبْرَ الْمَسَالِكِ الْمَائِيَّةِ وَالْدُرُوبِ الْبَرِّيَّةِ
- أَيُّهَا الْعَابِرُ

هَلِ الْبَحْرُ بَعِيدٌ؟
مِقْدَارُ الْبُعْدِ هَذَا يَشْغُلُنَا جَمِيعاً
فَنَتَسَاءَلُ عَنْهُ نَحْنُ أَيْضاً .
إِنْ هَدِيرُ الْمَوْجِ الْمَدْوِيِّ يَرْتَفِعُ إِلَى عِنَانِ السَّمَاءِ
حِينَ نَكْفُ عَنْ النِّشِيدِ، فَيَبْدُو لَنَا أَكْثَرَ قُرْباً

وَمَعَ ذَلِكَ فَهَوَ بَعِيدُ
 - أَيُّهَا الْعَابِرُ
 هَلِ الشَّمْسُ مُحْرِقَةٌ
 - أَجَلٌ . إِنْ رِحَلْتَنَا طَوِيلَةً وَمُرْهَقَةً
 وَيُغْنِي فِيهَا ضَعِيفُ النَّفْسِ
 كَمَا يُغْنِي فِيهَا الْحَيِيُّ الْحُجُولُ
 - أَيُّهَا الْعَابِرُ
 مَاذَا يَحْدُثُ إِذَا دَاهَمَكُمُ اللَّيْلُ؟
 نَضْطَجِعُ لِنَنَامَ ، حَتَّى يَنْتَلِجَ النَّهَارُ الْجَدِيدُ
 رَافِعاً صَوْتَهُ بِالنَّشِيدِ
 وَنِدَاءُ الْبَحْرِ يَتَعَالَى مُتَدَفِّقاً فِي الْجَوْ صَدَاهُ

يَا رَفِيقَ الطَّرِيقِ
 إِلَيْكَ سَلَامِي

سَلَامَ الْعَابِرِ
آه يَا سَيِّدَ قَلْبِي الْمُمَزَّقِ بِالْفَقْدَانِ وَالْوَدَاعِ
وَبِصَمْتِ الْغُرُوبِ الرَّمَادِيِّ
إِلَيْكَ سَلَامَ الْبَيْتِ الْمُتَدَاعِي
يَا نُورَ الْيَوْمِ الْوَلِيدِ
وَشَمْسَ الْيَوْمِ الدَّائِمِ إِلَى الْأَبَدِ
إِلَيْكَ سَلَامَ الْأَمَلِ الَّذِي لَا يَمُوتُ
يَا مُرْشِدِي
أَنَا الْعَابِرُ فِي طَرِيقٍ لَا زِهَايَةَ لَهَا
إِلَيْكَ سَلَامَ الْعَابِرِ

الهَارِبَةُ

كَانَتْ الدُّنْيَا قَدْ أَخَذَتْ فِي الظَّلَامِ
 حِينَ سَأَلْتُهَا
 إِلَى أَيِّ أَرْضٍ وَصَلْتَ؟
 فَاسْتَنْتَ بِخَفْضِ بَصَرِهَا
 وَأَخَذَ الْمَاءُ يُقْرِقُ عِنْدَ عُنُقِ جَرِّهَا
 حِينَ تَاهَبَتْ لِلذُّهَابِ .
 الْأَشْجَارُ تَمِيلُ عَلَى الضِّفَّةِ فِي سِحْرِ جَذَابِ
 وَالْأَرْضُ تَبْدُو كَأَنَّهَا تَتَّعِي إِلَى الْمَاضِي
 وَالْمِيَاهُ سَاكِنَةٌ، وَاشْجَارُ الْبَامْبُو
 وَاقِفَةٌ بِلَا حَرَكَةٍ، مَلْفُوفَةٌ فِي عُمُوسِهَا،
 وَسِيَوَارُ يَرِنُ عِنْدَ مَلَامَسَةِ الْحَجَرِ

هُنَاكَ . . عَلَى الدَّرْبِ
لَا تُجَدِّفْ وَشُدَّ الزُّورَقَ إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ
لَأُنِّي أَعْشَقُ مَنَظَرَ هَذَا الْبَلَدِ
إِنْ نَجْمَةُ الْمَسَاءِ تَهَيَّطُ
وَرَاءَ قُبَّةِ الْمَعْبَدِ
وَشُحُوبُ الْمَرَمْرِ فِي الْمَرْسَى
يَبْدُو كَأَنَّهُ شَبَّحَ فَوْقَ الْمَاءِ الْغَامِقِ الْمُعْتَمِ
وَعَابِرُونَ مُتَخَلِّفُونَ يَتَنَهَّدُونَ
لَأَنَّ أَضْوَاءَ النُّوَاظِلِ الْخَفِيَّةِ
قَدْ تَشَشَّتْ فِي ظِلَامِ الشَّابَاكِ
بَيْنَ الْأَشْجَارِ وَالْجَنَبَاتِ الْعُشْبِيَّةِ
عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ .
وَمَا زَالَ ذَلِكَ السَّوَارُ الصَّغِيرُ يَرِنُ
فِي اصْطِدَامِهِ بِالْجَرَّةِ
وَحِينَ يَتَبَاعَدُ، فَإِنَّ الْخُطُورَاتِ

تُحَدِّثُ خَشْخَشَةً هُنَاكَ فِي الدَّرْبِ
 الْمُغَطَّى بِالْأُورَاقِ الْجَافَةِ
 وَاللَّيْلُ يَزْدَادُ ظُلْمَةً
 وَأَبْرَاجُ الْقَصَبِ تَقِفُ صَفًّا وَاحِدًا كَالْأَشْبَاحِ
 وَتَتَبَعْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ غَمْغَمَةً مُتَعَبَةً
 لَا تُجَدِّفُ، وَشَدُّ الزُّورَقِ إِلَى أَيِّ شَجَرَةٍ
 وَدَعْنِي أَبْحَثُ عَنْ رَاحَتِي
 فِي هَذَا الْبَلَدِ الْغَرِيبِ الَّذِي يَمْتَدُّ فِي الظَّلَامِ
 تَحْتَ النُّجُومِ وَحَيْثُ الظُّلْمَةُ تَرْدُّ صَدَى
 رَنِّ سِوَارٍ صَغِيرٍ يَصْطَلِدُ
 بِالْجَرَّةِ

④

آه ، لَوْ مُنِحْتُ سِرًّا
 مِثْلَ سِرِّ الْمَطَرِ الَّذِي تُمَسِّكُهُ الْغُيُومُ

سِرّاً، مَلْفُوفاً فِي الصَّمْتِ
يُمْكِنُنِي أَنْ أَجُوبَ بِهِ الْأَمَاكِنَ النَّائِيَةَ
أَهْ لَوْ كَانَ لِي أَحَدٌ أَهْمِسُ إِلَيْهِ
حَيْثُ الْمِيَاهُ الْبَاطِنَةُ تَتَرَفَّقُ
تَحْتَ الْأَشْجَارِ الْعَافِيَةِ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ .
هَذَا الْمَسَاءُ يَبْدُو أَنَّ السِّرَّ يَنْتَظِرُ
ضَجِيجَ خُطْوَةٍ، وَيَسْأَلُنِي عَنْ سِرِّ دُمُوعِي .
لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْدِمَ تَبْرِيراً لِيَكَاثِي
فَذَلِكَ مَا يَزَالُ حَتَّى الْآنَ سِرّاً
مُحَجَّباً عَنِّي .

7

أَنَا كَاللَّيْلِ بِالنُّسْبَةِ إِلَيْكَ
أَيُّهَا الزَّهْرُ الصَّغِيرُ
يُمْكِنُنِي أَنْ أَقْدِمَ إِلَيْكَ فَقَطِ الْأَمْنَ وَالسَّلَامَ

وَصَمْتُ سَاهِرًا مُخْتَبِثًا فِي الظُّلْمَةِ
وَحِينَ تَفْتَحُ أَكْمَامَكَ فِي الصَّبَاحِ
فَإِنِّي أَتْرُكُكَ لِعَالَمٍ مَلِيءٍ بِطَنِينِ
النُّحْلِ وَأَغَانِي الطُّيُورِ.
إِنْ هَدَيْتَنِي الْأَخِيرَةَ إِلَيْكَ
سَتَكُونُ دَمْعَةً تُسَكَبُ فِي ذُرْوَةِ شَبَابِكَ
سَتَجْعَلُ ابْتِسَامَتَكَ أَحْلَى
وَتَحْجُبُ بَصْرَكَ عَنِ بَهْجَةِ الْيَوْمِ الْكَرِيمَةِ.

9

لَوْ عِشْتُ فِي مَدِينَةٍ وَيَجَانِ الْمَلَكِيَّةِ
حِينَ كَانَ كَالِيدَاسُ شَاعِرِ الْمَلِكِ
لَكُنْتُ سَأَتَعَرَّفُ عَلَى صَبِيٍّ مِنْ (مَلَوَى)
وَلَمَلَاتُ أَفْكَارِي بِصَدَى اسْمِهَا
وَلَأَلْقَتْ عَلَيَّ نَفْزَةً عَبْرَ الْإِظْلَالِ

مِنْ أَجْفَانِهَا، وَتَرَكْتَ إِزَارَهَا
 لِيَسْتَبِكَ فِي الْيَاسَمِينِ كَمُبرِّرٍ لِلْبَقَاءِ
 بِجِوَارِي
 كُلُّ هَذَا كَانَ يَقَعُ فِي مَاضٍ
 ضَاعَتْ أَثَارُهُ تَحْتَ أَوْراقِ الزَّمَنِ الْمَيِّتَةِ
 وَالْيَوْمَ يَبْحَثُ الدَّارِسُونَ عَنْ وَقَائِعِ
 تُمَارِسٍ مَعَهُمْ لُغَةِ الْاسْتِخْفَاءِ .
 فَلَنْ أَمُرَّقَ قَلْبِي فِي الْحُلُمِ بِأَزْمَانٍ
 غَابَرَتْ خَالِيَةً
 وَلَكِنْ أَوَاهُ
 إِنِّي أَسْأَلُ
 إِلَى أَيِّ سَمَاءٍ
 حَمَلْنَ فِي سِلَالِ الزُّهُورِ
 تِلْكَ الْأَيَّامُ، الَّتِي أَثَارَتِ الْقَصَائِدِ الْغِنَائِيَّةِ

لِشَاعِرِ الْمَلِكِ؟

هَذَا الصَّبَاحَ

إِنْ فِرَاقَ مَنْ وُلِدَتْ بَيْنَهُمْ مُتَأَخَّرًا جَدًّا

يُحْزِنُ قَلْبِي وَيُضَاقِقُهُ

وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنْ شَهْرَ ابْرِيلَ يَحْمِلُ الزُّهُورَ نَفْسَهَا

الَّتِي كُنَّ يُزَيِّنُ بِهَا شُعُورَهُنَّ

وَالنَّسِيمُ الَّذِي يُمَوِّجُ أَثَوَابَهُنَّ

هُوَ النَّسِيمُ نَفْسَهُ اللَّيْلِ يَهْمِسُ لِلْوُرُودِ .

وَفِي الْحَقِّ

إِنَّ هَذَا الرَّبِيعَ لَا يَفْتَقِرُ إِلَى الْفَرَحِ

وَإِنْ كَانَ (كَالِيدَاسَ) لَمْ يَعُدْ يُغْنِي

وَإِنِّي أَعْرِفُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ فِي وَسْعِهِ

أَنْ يَرْتُقِبَنِي مِنْ فِرْدَوْسِ الشُّعْرَاءِ

لَوْ جَدَّ الْمُبَرَّرَ لِأَنْ يَحْسُدَنِي حَظِّي .

لَا تَشْغُلْ بِقَلْبِهَا
يَا قَلْبِي
دَعُهُ فِي الظُّلْمَةِ
أَيُّ أَهْمِيَّةٍ إِذَا كَانَ جَمَالُهَا جَمَالًا جَسَدِيًّا فَحَسَبِ
وَابْتِسَامَتُهَا ابْتِسَامَةٌ خَارِجِيَّةٌ مُرْتَسِمَةٌ
عَلَى مُحْيَاهَا؟
دَعْنِي آخِذٌ، مِنْ غَيْرِ مُعْضِلَاتٍ
الْمَعْنَى الْبَسِيطَ لِنَظَرَاتِهَا
وَأَسْعِدْ بِذَلِكَ
لَا يَهْمُنِي أَنْ تَكُونَ شَبَكَةً مِنَ الْأَوْهَامِ
تِلْكَ الَّتِي تُطَوِّقُنِي بِهَا ذِرَاعَاهَا
ذَلِكَ أَنَّ الشَّبَكَةَ ذَاتَهَا لَيْمِينَةٌ وَنَادِرَةٌ
أَمَّا الْخِذَاعُ فَيُمْكِنُ أَنْ تَضْحَكَ مِنْهُ ثُمَّ تُنْسَاهُ

لَا تَنْشَغِلْ بِقَلْبِهَا، يَا قَلْبِي
وَلتَطْمَئِنَّ فَقَطْ إِلَى أَنْ الْمَوْسِيقَى حَقِيقَةً
وإنَّ وَجَبَ عَدَمُ الْإِيمَانِ بِالْكَلِمَاتِ .
وَاسْتَمِيعْ بِالنَّعْمَةِ الرَّاقِصَةِ
فَوْقَ تَمُوجِ السُّطْحِ الْخَدَّاعِ
مَهْمَا كَانَتْ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تُوجَدُ تَحْتَهُ

12

مِثْلَ الْجَدُولِ الْمُتَدَفِّقِ الْمُلتَوِي
تَضْحَكِينَ وَتُغْنِينَ
وَقَدَمَاكَ يُغْنِيَانِ حِينَ تَنْخَطِرِينَ
وَمِثْلَ ضِفَّةٍ وَعَرَّةٍ وَصَخْرِيَّةٍ
أَقِفْ أَنَا سَاكِنًا سَاكِنًا
أَرْقُبُكَ فِي الظَّلَامِ
وَمِثْلَ عَاصِفَةٍ هَوَاجَاءَ عَظِيمَةٍ

أَهْرَعَ فَجَاءَ
مُحَاوَلًا شَقَّ حَيَاتِي
وَتَبِيدَهَا شَطَايَا
فِي دَوَامَةِ الْعِشْقِ
وَمِثْلَ الْبَرْقِ الْخَاطِفِ، رَقِيقٌ وَقَاطِعٌ
سَأَشُقُّ قَلْبَ الظَّلَامِ الْمَضْطَرِبِ
لِكَيْ تَغِيْبِي فِي سِلْسَلَةٍ مِنَ الضُّحَكَاتِ .

14

إِنِّي سَعِيدٌ بِأَنَّكَ لَمْ تَعُودِي تَنْتَظِرِينَ
بِتِلْكَ النُّظْرَةِ الْمَتَأَثِّرَةِ الْمُلْحَاحِ .
إِنْ رَوْعَةَ اللَّيْلِ
وَكَلِمَاتِي التَّوْدِيعِيَّةِ
الْمُنْذِهِيَّةِ بِإِقَاعِهَا الْيَائِسِ
هِيَ الَّتِي تَسْكُبُ بَعْضَ الدُّمُوعِ مِنْ عَيْنِي

وَلَكِنَّ النَّهَارَ سَوْفَ يَظْهَرُ

وَسَتَجِفُّ عَيْنَايَ وَقَلْبِي

وَلَنْ يَكُونَ هُنَاكَ وَقْتُ لِمَزِيدٍ مِنَ الْبُكَاءِ

مَنْ الَّذِي يَقُولُ إِنَّهُ مِنَ الْعَسِيرِ أَنْ تُنْسَى؟

إِنْ رَحْمَةُ الْمَوْتِ تَحْفَرُ فِي قَلْبِ الْحَيَاةِ

مَا نِجْةٌ إِلَّا هَذِهِ

مِنْ رَغْبَتِهِ الْمَجْنُونَةِ فِي الْبَقَاءِ .

وَالْبَحْرُ الْعَاصِفُ سَوْفَ يَهْدَأُ فِي النُّهَايَةِ

فِي مَهْلِهِ الْمُتَأَرِّجِ .

وَنَارُ الْغَايَةِ سَتَغْفُو فِي سَرِيرِ رَمَادِهَا نَفْسِهِ

وَعَلَيْنَا أَنْ نَفْتَرِقَ

أَنَا وَأَنْتِ

إِنْ الْفُرْقَةُ سَتَكُونُ مَتَخَفِيَّةً تَحْتَ الْعُشْبِ النَّاصِرِ

وَالزُّهْرِ الَّتِي تَضْحَكُ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ .

نَسِيتُ بُرْهَةً ، وَجِئْتُ
 وَلَكِنْ اِرْفَعِي عَيْنَيْكَ
 وَدَعِينِي أَنْظُرَ إِذَا كَانَتْ مَا زَالَتْ تَسْمَهُ
 فِيهِمَا ظِلَالُ الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ
 مِثْلَ الْقَيْمَةِ الشَّاحِبَةِ ، السَّابِحَةِ
 فِي الْأَفْقِ ، بَعْدَ أَنْ سُرِقَتْ مِنْهَا أَمْطَارُهَا
 فَلْتَصْبِرِي عَلَيَّ قَلِيلًا
 إِذَا كُنْتُ أُنْسَى نَفْسِي
 فَالْوُرُودَ مَا تَزَالُ فِي بَرَاعِيجِهَا
 وَلَا تَدْرِي أَنَّنَا أَهْمَلْنَا قُطْفَ الزُّهُورِ
 فِي ذَلِكَ الصَّيْفِ .
 وَنَجْمَةُ الصَّبَاحِ .

لَهَا نَفْسٌ الصَّمْتُ الْخَافِقُ
وَالْأَنْوَارِ الْأُولَى قَدْ وَقَعَتْ فِي شِبَاكَ الْعُصُونِ
وَهِيَ تَحُفُّ بِنَافِذَتِكَ كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ
فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ
وَلِبُرْهَةٍ، نَسِيتُ أَنْ الْأَزْمَانُ قَدْ تَغَيَّرَتْ
وَجِئْتُ
نَسِيتُ إِذَا كُنْتُ قَدْ أَخَجَلْتَنِي
بِنَزْعِ نَظْرَاتِكَ عَنِّي حِينَ كُنْتُ
أَكْشِفُ لَكَ أَسْرَارَ قَلْبِي
أَذْكُرُ فَقَطِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَعَثَّرْتُ
فَوْقَ ارْتِجَافِ شَفَتَيْكَ
وَذَكَرْتُ فِي عَيْنَيْكَ السَّمَاوِينَ
ظِلَالاً عَابِرَةً مِنَ الْهَوَى
مِثْلَ جَنَاحِي طَائِرٍ يَبْحَثُ عَنْ وَكْرِهِ
عِنْدَ الظَّلَامِ

لَقَدْ نَسِيتُ أَنَّكَ نَسِيتَ
فَجِئْتُ

17

كَانَ الْمَطَرُ يَهْطِلُ بِغَزَارَةٍ
وَالنَّهْرُ يَتَدَفَّقُ هَادِرًا
وَلَعَقَ الْجَزِيرَةَ ثُمَّ ابْتَلَعَهَا
بَيْنَمَا كُنْتُ أَنْتَظِرُ وَجِيدًا، بِسَنَابِلِ قَمْحِي
عِنْدَ الضِّفَّةِ الَّتِي أَخَذْتُ فِي الانْخِفَاضِ .
وَمِنْ ظِلَالِ الضِّفَّةِ الْأُخْرَى
كَانَ يَبْدُو زَوْرَقٌ يُعْبِرُ النَّهْرَ
وَفَوْقَهُ امْرَأَةٌ عِنْدَ الْمِقْوَدِ
فَصَرَخْتُ فِيهَا
تَعَالِي إِلَى جَزِيرَتِي .
لَقَدْ أَحَاطَتْ بِهَا الْمِيَاهُ الْجَائِعَةُ

وَحُلِّيِّي حَصَادِي
فَجَاءَتْ إِلَيَّ، وَأَخَذْتُ كُلَّ مَا أَمْلِكُ
حَتَّى أَخْرَجْتَهُ مِنْ حَبَاتِ قَمِيحِي
فَسَأَلْتُهَا أَنْ تَأْخُذَنِي أَنَا أَيْضًا
وَلَكِنَّهَا قَالَتْ . . لَا
كَانَ الزُّورُ قَدْ مَشَحُونًا بِهَلِيئَتِي
وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مَكَانٌ لِي

7

أُورَفَاشِي
لَسْتُ أُمًّا، وَلَا ابْنَةً، وَلَا زَوْجَةً
وَلَكِنَّكَ امْرَأَةً خُلِقْتَ لِكَيْ تَسْلُبَ
رُوحَ الْفِرْدَوْسِ .
عِنْدَمَا يَهْبِطُ الْمَسَاءُ مُتَعَبًا
وَيُخَيِّمُ فَوْقَ حَظَائِرِ الْقُطْعَانِ الْعَائِدَةِ مِنَ الْمَرْعَى

لَا تُطْفِئِينَ أَنْوَارَ بَيْتِكَ
وَلَا تُتَجِّهِينَ إِلَى فِرَاشِ الزَّوْجِيَّةِ
بِقَلْبٍ خَافِقٍ، وَابْتِسَامَةٍ مُتَمَوِّجَةٍ
عَلَى شَفَتَيْكَ
سَعِيدَةً بِأَنَّ سَاعَاتِ اللَّيْلِ
أَمِينَةٌ جَدًّا عَلَى الْأَسْرَارِ .
أَنْتِ كَالْفَجْرِ بِلَا أَجْنِحَةٍ
يَا أَوْفَاشِي ، وَبِلَا خَجَلٍ .
مَنْ الَّذِي يُمَكِّنُهُ أَنْ يَتَصَوَّرَ
تِلْكَ الرُّوعَةَ الرَّهِيْمَةَ الَّتِي صَيَّغَ مِنْهَا
جَمَالَكَ ؟
لَقَدْ طَلَعْتَ مِنَ الْبَحْرِ الْمُزْبِدِ
فِي أَوَّلِ أَيَّامِ الرَّبِيعِ
وَكَأْسُ الْحَيَاةِ فِي يَمِينِكَ
وَكَأْسُ السُّمِّ فِي يَسَارِكَ

والشَّحُّ الْبَحْرِيَّ
 الْمُرُوضِ كَالثُّعْبَانِ الْمُنْدَهَشِ
 وَضَعَ عِنْدَ قَدَمَيْكَ
 آلَافَ رُؤُوسِهِ
 وَانْبَعَثَ بِرَيْقِكَ الطَّاهِرِ
 مِنْ رَعْوَةِ الْبَحْرِ
 أَبْيَضَ صَافِيًا عَارِيًا كَأَنَّهُ الْيَاسَمِينِ
 أَكُنْتُ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ
 صَغِيرَةً خَجَلِي أُمٌّ دَاخِلِ بُرْعَمِ
 يَا أَوْرَفَاشِي أَيُّهَا الشَّبَابُ الْخَالِدُ؟
 هَلْ نِمْتُ لَيْلًا
 مُهَذَّهَةً فِي أَعْمَاقِ اللَّيْلِ اللَّازِزِ
 حَيْثُ أَنْوَارُ الْجَوَاهِرِ الْعَجِيبَةِ
 تَعَبَّتْ بِالْمَرْجَانِ، حَيْثُ أَصْدَافُ
 الْحَلَّازِينِ وَالْمَخْلُوقَاتِ الْمُتَحَرِّكَةِ

لَهَا شَكْلُ الْحُلْمِ ، حَتَّى جَاءَ النَّهَارُ
 فَكَشَفَ عَنْ رَوْعَتِكَ؟
 أَنْتِ مَعْبُودَةُ الرِّجَالِ
 فِي كُلِّ الْعُهُودِ وَالْعُصُورِ
 أَوْ رَفَاشِي أَيْتِهَا الْمُعْجِزَةُ
 الَّتِي لَا حَدَّ لَهَا .
 يَخْفِقُ الْكَوْنُ بِأَلَمِ شَبَابِي
 لِنَظَرَتِكَ .
 وَالنَّاسِكُ يَضَعُ أَمَامَ قَدَمَيْكَ
 ثَمَرَةَ نَدَمِهِ
 وَأَغَانِي الشُّعْرَاءِ
 تَطِينُ وَتَتَجَمَّعُ حَوْلَ عِطْرِ حُضُورِكَ
 وَقَدَمَاكَ الرَّاقِصَتَانِ
 فِي مَرَحٍ عَابِثٍ ، تَجْرَحَانِ حَتَّى قَلْبَ
 الرِّيحِ الْغَامِضَةِ بِرَيْنِ خَلَاخِيلِكَ

المُذْهَبَةِ .

حِينَ تَرْقُصِينَ أَمَامَ الْإِلَهِةِ

تَرْسُمِينَ أَفْلَاكًا مِنَ الْإِيقَاعِ الْجَدِيدِ

فِي الْفَضَاءِ الْكَوْنِي

وَتَرْتَجِفُ الْأَرْضُ

يَا أَوْرَفَاشِي

وَالْأَوْرَاقُ وَالْعُشْبُ

وَالْحُقُولُ الْخَرِيفِيَّةُ

تَتَنَفَّخُ وَتَتَمَوَّجُ

وَالْبَحْرُ يَتَضَحَّمُ فِي فَوْرَةٍ مِنَ الْأَمْوَاجِ

وَالنُّجُومُ تَتَسَاقَطُ فِي السَّمَاءِ

كَالْعَقْدِ الَّذِي يَشْبُ حَتَّى يَنْفَرِطَ فَوْقَ نَهْدِكَ

وَالدَّمُ يَرْقُصُ فِي الْقُلُوبِ

فِي أَرْبَابِكَ مُفَاجِئًا

أَنْتِ الْيَقْظَةُ الْأُولَى

فِي ذُرُوءِ غُفُوءِ السَّمَاءِ

أُورْفَاشِي

دَعِي الْجَوَّ يَرْتَجِفُ مِنْ هَيْجَانِهِ

وَالْكَوْنُ يَغْسِلُ جَسَدَكَ بِدُمُوعِهِ .

إِنْ قَدَمَيْكَ حَمَرَاوَانِ

بِلَوْنِ دَمِ قَلْبِكَ

وَبِرَشَاقَةٍ تَتَمَایِلِينَ فَوْقَ زَهْرَةِ لُوتَسَ

زَهْرَةِ الشَّهْوَةِ الَّتِي تُبْرِئُهَا الْأَمْوَاجُ .

أُورْفَاشِي

أَنْتِ تَلْعَبِينَ أَبَدِيًّا

فِي تِلْكَ الذَّاكِرَةِ الَّتِي لَا حَدَّ لَهَا

حَيْثُ يَتَحَرَّكُ وَيَضْطَرِبُ حُلْمُ اللَّهِ .

1

يَا سَيِّدَةَ الرُّوعَةِ الْمُتَعَدِّدَةِ

أَنْتِ مُتَّوَعَّةٌ بِلَا حُدُودٍ
 فِي هَذَا الْكَوْنِ الْفَيَّاضِ .
 طَرِيقُكَ مَزْرُوعَةٌ بِالنُّورِ
 وَمَلَأْتَ قُتُبَكَ تَتَحَوَّلُ إِلَى زُهْرٍ
 وَتَوْبُكَ الْمَجْرُورُ يَكْسَحُ
 دَوَامَةَ الرُّقْصِ بَيْنَ النُّجُومِ
 وَانْغَامُكَ الْمُتَعَدِّدَةُ الطَّبَقَاتِ
 تُرَدِّدُ صِدَاَهَا الْكَلِمَاتُ الْعَدِيدَةُ
 عَبْرَ إِشَارَاتٍ وَأَلْوَانٍ .
 أَنْتَ وَحِيدَةٌ وَوَاحِدَةٌ فِي الصَّمْتِ
 الَّذِي لَمْ يُسَبِّرْ غَوْرَهُ فِي النَّفْسِ
 سَيِّدَةُ الصَّمْتِ وَسَيِّدَةُ الْوَحْدَةِ
 رُؤْيَا مُرْتَعِشَةً مِنَ النُّورِ
 وَزَهْرَةً لَوْتَسَ وَحِيدَةً مُنَوَّرَةً
 فَوْقَ غُودِ الْحُبِّ

إِنِّي لَأَذْكُرُ هَذَا الْيَوْمَ .
 هُطُولُ الْمَطَرِ الْغَيْفِ
 لَا يَكَادُ يَهْدَأُ مِنْ حِينَ إِلَى آخِرِ
 حَتَّى يَتَجَدَّدَ هُبُوبُ الرِّيحِ
 فَيُوقِظُهَا عِنْدَ أَوَّلِ وَقْفَةٍ .
 وَأُمْسِكَ بِمِعْزَنِي
 وَالْمَسْ أَوْتَارَهُ فِي كَسَلِ
 إِلَى أَنْ أَجِدَ - الْمَوْسِيقَى
 قَدْ قَلَّدَتْ الْإِبْقَاعَ الْمَجْنُونَ
 لِتِلْكَ الْعَاصِيفَةَ
 دُونَ أَنْ أَفْطَنَ إِلَى ذَلِكَ
 وَأَرَى شَخْصَكَ يَتَخَلَّى فِي عَجَلَةٍ
 عَنِ الْعَمَلِ
 وَيَقِفُ عِنْدَ بَابِي
 ثُمَّ يَنْسَجِبُ بِخُطُواتٍ مُتَرَدِّدَةٍ

ثُمَّ يَعُودُ مِنْ جَدِيدٍ .
 ثُمَّ يَظْلُ خَارِجَ الْبَابِ مَسْتَنِدًا إِلَى الْجِدَارِ
 ثُمَّ يَدْخُلُ يَهْدُوهُ إِلَى الْغُرْفَةِ وَيَجْلِسُ
 وَرَأْسُ خَافِضٍ يَنْكَبُ فِي صَمْتٍ
 عَلَى شُغْلِ الْإِبْرَةِ .
 ثُمَّ يَتَوَقَّفُ فَوْرًا عَنِ الْعَمَلِ
 وَيَتَأَمَّلُ خَارِجَ النَّافِذَةِ
 خِلَالَ الْمَطَرِ، صَفًّا حَائِرًا
 مِنَ الْأَشْجَارِ
 هَذَا هُوَ كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ .
 سَاعَةٌ مِنَ الظُّهَيْرَةِ الْمُمَطَّرَةِ
 الْمُفْعَمَةِ بِالظَّلَالِ وَالْغِنَاءِ وَالصَّمْتِ .

التفتت إليّ
وتركت لي نظرة وداع سريعة
كانت تلك آخر هداياها إليّ
ولكن أين يمكنني حفظها
أطفئ المساء وميض اللوعة هذه ،
كما تطفأ آخر ومضة في نار الغروب ؟
هل تغسلها الأمطار كما تغسل
اللاقوح المحفوظ كالكنز لدى الزهور
الممزقة القلب ؟
دع للموت أمجاد الملوك وثرورات
الأغنياء .
ألا يمكن للدموع أن تحتفظ بظراوة
الدكري لنظرة يلقيها العاشق
في لحظة حب ؟
يقول غنائي :

أَعْطَيْنِيهَا وَلَسَوْفَ أَحْفَظُهَا
لَنْ تَشْغَلَنِي أَمْجَادُ الْمُلُوكِ
وَلَا ثَرَوَاتُ الْغَنِيِّ
وَلَكِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الصَّغِيرَةُ
هِيَ مُلْكِي إِلَى الْأَبَدِ

6

كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَسَافِرَ
وَلَكِنَّكَ كُنْتَ سَاكِتَةً
غَيْرَ أَنِّي أَحْسَسْتُ
مِنْ رَجْفَةٍ بَسِيطَةٍ
أَنْ ذَرَأَعَيْكَ الْحُنُوتَيْنِ
تَهْمَانِ يَقُولِ (لَا . . لَمْ يَحِنْ الْوَقْتُ بَعْدُ)
لَقَدْ أَصْغَيْتُ كَثِيرًا إِلَى يَدَيْكَ
يَتَحَدَّثَانِ إِلَيَّ فِي تَوَسُّلٍ

مِنْ خِلَالِ تَجْمِيشَةٍ أَوْ مُلَاطَفَةٍ
 وَهُمَا تَجْهَلَانِ مَا أُرِيدُ أَنْ أَفْضِيَ بِهِ إِلَيْكَ
 وَشَعَرْتُ بِتَيْنِكَ الذَّرَاعَيْنِ تَرْتَجِفَانِ
 حِينَ أَرَادَتَا أَنْ تُكُونَا إِكْلِيلًا حُلُومًا
 يُطَوَّقُ عَنْقِي
 إِنْ حَرَكَاتِهِمَا تَعُودُ إِلَى ذَاكِرَتِي
 فِي عَزَلَةِ السَّاعَاتِ الصَّامِتَةِ
 مِثْلَ الشَّيَاطِينِ الَّتِي تَكْشِفُ لِي فِي فَرَحٍ
 أَشْيَاءَ أَخْفَيْتُهَا أَنْتِ عَنِّي
 إِنْ أَغْنِيَانِي كَالنُّحْلِ
 تُتَابِعُ فِي الْجَوِّ أَثَرًا مُعْطَرًّا مِنْ آثَارِكِ
 ذِكْرِي مِنْ ذِكْرِيَاتِكَ
 لَتَطِينَنَّ حَوْلَ عِزْلَتِكَ
 شَرِهَةً إِلَى كُنْزِهَا الْخَفِيِّ
 وَحِينَ تَذُوبُ طَرَاوَةُ الْفَجْرِ

فِي دِفْءِ الشَّمْسِ
 وَحِينَ يَصِيرُ الْهَوَاءُ ثَقِيلًا فِي الظَّهِيرَةِ
 وَتُصْبِحُ الْغَابَةُ سَاكِتَةً
 فَإِنْ أُغْنِيَا تَتَعَوَّدُ إِلَى مَا وَاهَا
 وَالْأَجْنِحَةُ الْوَاحِدَةُ قَدْ كُسِيَتْ
 بِغُبَارٍ ذَهَبِيٍّ

9

أَظُنُّنِي سَأَقِفَ مَذْهُولًا
 إِذَا قُدِّرَ لِي أَنْ أَلْتَقِيَ بِهَا فِي حَيَاةٍ أُخْرَى
 وَحِينَ أَمْشِي عَلَى ضَوْءِ الْعَالَمِ الْمَاضِي
 فَإِنِّي سَأَتَعَرَّفُ إِلَى تَيْنِكَ الْعَيْنَيْنِ
 السَّمَرَاوَيْنِ مِثْلَ نُجُومِ الصَّبَاحِ
 وَلَكِنِّي سَوْفَ أَحْسُ أَنَّهُمَا تَتَّصِمَانِ
 إِلَى سَمَاءٍ مَسَائِيَّةٍ مَنَسِيَّةٍ

تَعُودُ إِلَى حَيَاةٍ لَنَا سَابِقَةٍ
وَأَعْرِفُ أَنَّ سِحْرَ مُحَيَّاكِ
لَا يُخْصُصُكَ بِصِفَةٍ تَامَةٍ
وَلَكِنَّهُ سَرَقَ الْأَنْوَارَ الْمُتِمِّمَةَ
الَّتِي كَانَتْ تُؤْمِضُ فِي عَيْنِي
عِنْدَ ذَلِكَ اللَّقَاءِ الضَّائِعِ فِي النَّسْيَانِ
وَجَمَعَ مِنْ حُبِّي الْقَدِيمِ
سِرًّا نَسِيَ الْآنَ أَصُولَهُ

10

ضَعِي عُوْدَكَ يَا حَبِيبَتِي
وَأَطْلِقِي ذُرَاعَيْكِ لِمَعَانِقَتِي
وَدَعِي مُلَاطَفَتَكَ
تَحْمِلَ قَلْبِي الْمُفْتَعَمَ إِلَى الْحَاقَةِ الْعُلْيَا
مِنْ جَسَدِي

لا تُشِيحي بِرَأْسِكَ
ولا تَنْزعي مُحْيَاكَ
ولَكن قَدِّمي إِلَيَّ قَبْلَةَ كَانَتْ مَكْتُومَةً
بِئْسَ الْعِطْرُ الْمُقَيَّدُ فِي الْبُرْعَمِ
مُنْذُ آمَامِ طَوِيلَةٍ
لا تَخُنِّي هَذِهِ اللَّحْظَةَ فِي كَلِمَاتٍ عَاتِيَةٍ
ولَكن دَعِي قَلْبِنَا يَرْتَجِفَانِ
فِي نَهْرٍ مِنَ الصَّمْتِ يَكْسَحُ كُلَّ الْأَفْكَارِ
فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْفَرَحَةِ الَّتِي لَا
حَدَّ لَهَا . .

11

لَقَدْ جَعَلْتَنِي عَظِيمًا بِحُبِّكَ
وإن كُنْتُ لَسْتُ سِوَى وَاحِدٍ
مِنَ الَّذِينَ يَجْرُقُهُمُ النَّيَّارُ.

لَقَدْ أَعْطَيْتَنِي مَقْعَدًا
 حَيْثُ يُقَدَّمُ شُعْرَاءُ كُلِّ الْعُصُورِ هِيَاثِهِمْ
 وَالْعُشَاقُ مِنْ ذَوِي الْأَسْمَاءِ الْخَالِدَةِ
 يَتَبَادَلُونَ التَّحِيَّاتِ عِبْرَ الْأَحْقَابِ .
 كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْمُسْتَعْجِلِينَ
 يَمُرُّونَ قُرْبِي فِي السُّوقِ
 دُونَ أَنْ يُلَاحِظُوا أَنَّ جَسَدِي صَارَ
 شَيْئًا نَعِيمًا بِالنُّسْبَةِ لِمَلَأَ طَفَتِكَ
 وَأَنْتَنِي أَحْوَلُ فِي دَاخِلِهِ قُبُلَتَكَ
 كَمَا تَحْوِلُ الشَّمْسُ فِي فَلَكِهَا
 نَارَ الْمَلَأَ طَفَةِ الْمُقَدَّسَةِ
 وَتَتَأَلَّقُ بِهَا إِلَى الْأَبَدِ

12

قَلْبِي الْيَوْمَ

كَالطُّفْلِ الَّذِي يَغْتَمُّ وَيَرْفُضُ الْعَابَةَ
وَهُوَ يَهْزُ رَأْسَهُ رَافِضاً كُلَّ عِبَارَةٍ
أَقْتَرَحَهَا عَلَيْهِ

(لَا . . لَيْسَتْ هَذِهِ مَا أُرِيدُ)

وَمَعَ ذَلِكَ ، فَإِنَّ الْكَلِمَاتِ فِي وَجَعٍ
عُمُوضِيهَا تَعُودُ إِلَى فِكْرِي مِثْلَ الْغُيُومِ
الرَّاحِلَةِ ، الْمُعَلَّقَةِ فَوْقَ الْهَضَابِ
وَهِيَ تَنْتَظِرُ أَنْ تَهْبُ عَلَيْهَا رِيحُ عَابِرَةٍ
تُحَرِّرُهَا مِنْ أَمْطَارِهَا

وَلَكِنْ دَعِي هَذِهِ الْمُحَاوَلَاتِ الْعَابِثَةَ
يَا نَفْسِي دَعِي هَذِهِ الْمُحَاوَلَاتِ الْعَابِثَةَ
يَا نَفْسِي لِأَنَّ الصَّمْتَ سَوْفَ يُنْضِجُ
مُوسِيقَاهُ فِي الظَّلَامِ .
حَيَاتِي الْيَوْمَ مِثْلَ الدَّيْرِ

أَثْنَاءَ إِحْدَى التَّوْبَاتِ
 حَيْثُ يَخْشَى الرَّبِيعَ نَفْسَهُ
 أَنْ يَطُوفَ بِهِ أَوْ يَهْمِسَ إِلَيْهِ
 لَيْسَ هَذَا هُوَ الْوَقْتُ الْمَلَائِمَ لَكَ
 يَا حَبِيبَتِي
 لِكَيْ تَجْتَازِي الْبُؤَابَةَ
 فَبِمُجَرَّدِ الْفِكْرَةِ فِي رَيْنِ خَلَاخِيلِكَ،
 عَبْرَ الطَّرِيقِ سَتُضْرَجُ خَجَلًا
 أَصْدَاءُ الْحَلِيقَةِ
 فَلَتَعْلَمِي أَنْ أَغَانِي الْغَدَ
 مَا تَزَالُ الْيَوْمَ فِي بَرَاعِمِهَا
 فَإِذَا رَأَتْكَ تَحْطِرِينَ قَرِيبًا مِنْهَا
 فَإِنَّهَا سَوْفَ تُجَاهِدُ نَفْسَهَا
 حَتَّى تُمَرِّقَ قُلُوبَهَا الَّتِي لَمْ تَنْفَتَحْ بَعْدَ.

مِنْ أَيْنَ هَذَا الِهْمُ . . يَا حَيِّيتِي ؟
 دَعِي قَلْبِي يَلْمَسَ قَلْبَكَ
 وَاطْرُدِي بِقُبْلَةٍ أَلَمْ صَمْتِكَ .
 لَقَدْ أَخْرَجَ اللَّيْلُ مِنْ أَعْمَاقِهِ
 هَذِهِ السَّاعَةَ الْخَاطِفَةَ
 حَتَّى يَتِمَكَّنَ الْحُبُّ أَنْ يُشِيدَ كَوْنَهُ الْجَدِيدَ
 دَاخِلَ هَذِهِ الْأَبْوَابِ الْمُقْفَلَةِ
 وَأَنْ يُضَاءَ فَقَطْ بِهَذَا النُّورِ الْمُسْتَوْجِدِ
 أَمَّا الْمَوْسِيقَى ، فَلَدَيْنَا هَذِهِ الزَّمَارَةَ
 الَّتِي تَتَبَادَلُ شِفَاهُنَا الْعَزْفَ عَلَيْهَا
 بِالتَّنَاوُبِ
 وَلِلتَّنْوِيجِ لَدَيْنَا هَذَا الْإِكْلِيلُ الْوَحِيدُ
 تُطَوِّقِينَ بِهِ شَعْرِي ، بَعْدَ أَنْ تَكُونِي

قَدْ وَصَّعْتِهِ فَوْقَ جَبِينِكَ .
وَأَمَزَقُ حِجَابَ صَدْرِي
لَأَجْعَلَ مِنْهُ فِرَاشَنَا فَوْقَ الْأَرْضِ .
وَقُبْلَةً وَاحِدَةً
وَعَفْوََةً وَاحِدَةً مِنْ غَفَوَاتِ اللَّذَّةِ
سَتْمَلَأَ عَالَمَنَا الصَّغِيرَ اللَّامْحُدُودَ

15

لَقَدْ لَبِسْتُ الْيَوْمَ ثَوْبِي الْجَدِيدَ
حَتَّى يَشْعُرَ جَسَدِي بِالسَّعَادَةِ
لَا يَكْفِي أَنْ أَكُونَ قَدْ وَهَبْتُ نَفْسِي
لِحَبِيبَتِي إِلَى الْأَبَدِ
وَلَكِنْ عَلَيَّ أَنْ أَتَخَيَّلَ كُلَّ يَوْمٍ هَذَايَا
جَدِيدَةً .
أَلَا يَبْدُو هَدِيَّةَ جَدِيدَةٍ إِرْتِدَاءً

تُوبِ جَدِيد؟

إِنْ قَلْبِي كَسَمَاءِ الْمَسَاءِ

لَهُ عِشْقٌ غَيْرُ مَحْدُودٍ لِلْأَلْوَانِ

وَلِذَلِكَ فَلِنِي أُغَيِّرُ خُمُرِي

فَيَكُونُ لَهَا حِينًا لَوْنُ الْعُشْبِ النَضِيرِ ،

وَأَحْيَانًا لَوْنُ الْأُرْزِ الْخَرِيفِيِّ

وَالْيَوْمَ فَلِنْ تُوْبِي مَصْبُوغٌ بِالْأَزْرَقِ

لَوْنُ السَّمَاءِ الْمُطْرَرَّةِ حَوَافِيهَا بِالْمَطَرِ .

إِنَّهُ يُعْطِي لِجَسَدِي لَوْنَ اللَّامْحُدُودِ

وَهَضَابَ مَا وَرَاءَ الْبَحَارِ

وَفِي ثَنَائِهِ يَحْمِلُ فَرَحَةَ الْغُيُومِ .

الصَّبْفِيَّةُ الَّتِي تَطِيرُ مَعَ الرِّيحِ .

18

الْلَّيْلُ يَزْدَادُ عُمَقًا

واللهب المتضرم يرتجف في المصباح .
وقد نسييت أن ألاحظ
أن إحدى صبايا القرية
وللمرة الأخيرة في ذلك النهار
قد ملأت جررتها من النهر
ثم أغلقت باب كوخها
إني أتحدث إليك يا حبيبي
ولأ أكاد أعي صوتي إلا وعياً خفيفاً
قولي . . هل لهذا الصوت معنى ؟
أتحمل إليك بعض الرسائل الآتية
من وراء حُدود الحياة ؟
ومنذ توقف صوتي
أجس الليل ينفض بالأفكار
التي تخلق بدھشة
في هاوية صمتها

لَقَدْ أَعْطَيْتُكَ كُلَّ مَا أَمْلِكُ
وَاحْتَفَظْتُ فَقْطُ
بِذَلِكَ الْحَدَّ الْأَذْنَى مِنْ حِجَابِ التَّحَفُّظِ
وَهُوَ مِنَ الرَّهَافَةِ بِحَيْثُ كَانَ يَذْفَعُكَ
إِلَى الْإِبْتِسَامِ مِنْهُ فِي خَفَاءٍ
وَيَذْفَعُنِي إِلَى الْخَجَلِ وَالْحَيَاءِ .
إِنْ نَسِيمَ الرَّبِيعِ يُبْلِّدُهُ
عَلَى غَيْرِ قَصْدٍ .
وَحَفَقَانِ قَلْبِي يُحَرِّكُهُ
كَمَا تُحَرِّكُ الْأَمْوَاجُ رَعْوَةَ الْبَحْرِ .
يَا حَبِيبَتِي
لَا تَتَأَلَّمِي إِذَا احْتَفَظْتُ حَوَالِيَّ
بِهَذَا الضَّبَابِ الرَّهِيْفِ مِنَ الْبُعْدِ ،

فَهَذَا التَّحَفُّظُ الْهَشُّ

لَيْسَ هُوَ انْطَوَاءً عَنِ الْمَرَأَةِ فَقَطُّ

وَلَكِنَّهُ سَاقٌ رَفِيعَةٌ تَنْحَنِي مِنْ فَوْقِهَا

زَهْرَةٌ اسْتِسْلَامِي، لِتُطِلَّ عَلَيْكَ

بِلُطْفٍ كَثُومٍ .

16

ظَنَنْتُ

أَنْنِي كَتَبْتُ كَلِمَاتِ الْحُبِّ

بِأَلْوَانِهَا نَفْسِيهَا

وَلَكِنْ الْحُبُّ كَانَ يَسْتَلْقِي فِي أَغْوَارِ الْقَلْبِ

وَالدُّمُوعُ شَاحِبَةٌ

أَنْتِ وَحَذَلِكِ سَتَفْهَمِينَ

مَا إِذَا كَانَتْ الْكَلِمَاتُ خَالِيَةً مِنَ الْأَلْوَانِ .

وَفَكَّرْتُ فِي أَنْ أُغْنِي كَلِمَاتِ الْحُبِّ

بِالْحَانِهَا نَفْسَهَا
وَلَكِنْ هَذِهِ الْاَلْحَانُ كَانَتْ تَتَرَدَّدُ
فِي قَلْبِي وَحْدَهُ
وَعَيْنَايَ صَامِتَانِ
هَلْ سَتَفْهَمِينِي يَا صَدِيقَتِي
إِذَا خَلَّتْ مِنَ الْاَلْحَانِ الْمُصَاحِبَةُ؟

(17)

جَاءَتْنِي الْأَغْنِيَةُ عِنْدَ اللَّيْلِ
وَلَكِنَّكَ لَمْ تَكُونِي مَوْجُودَةً
لَقَدْ وَجَدْتُ الْكَلِمَاتِ الَّتِي بَحَثْتُ عَنْهَا
طَوَالَ النَّهَارِ
وَفِي السُّكُونِ، وَبَعْدَ لَحْظَةٍ مِنَ الظُّلْمَةِ
خَفَقَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ بِالْمُوسِيقَى
وَبِالذَّاتِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي بَدَأَتْ فِيهِ

النَّجْمُ تَنْبِضُ بِالنُّورِ
وَلَكِنَّكَ لَمْ تَكُونِي مَوْجُودَةً
وَكُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَغْنِيَهَا لَكَ عِنْدَ الصَّبَاحِ
وَرَعْمَ مُحَاوَلَاتِي الْمُسْتَوْرَةِ
وَرَعْمَ مَوَاتِنَةِ الْأَنْعَامِ الْمُسِيْقِيَّةِ
فَإِنْ الْكَلِمَاتُ ظَلَّتْ بَعِيدَةً عَنِّي
حِينَ كُنْتُ إِلَى جَانِبِي

19

حِينَ التَّقَيْنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ
نَحْنُ الْاِثْنَيْنِ
اِنْشَرَحَ قَلْبِي وَغَنَى فِي اِنْسَاطِ
(تِلْكَ الَّتِي كَانَتْ دَوَّامًا بَعِيدَةً عَنْكَ
تَقِفِ الْآنَ إِلَى جِوَارِكَ إِلَى الْاَبَدِ)
وَالْآنَ، خَفَّتْ تِلْكَ الْمُسِيْقَى

لَأَنِّي انْتَهَيْتُ إِلَى الْاِعْتِقَادِ أَن حَبِيبَتِي
قَرِيبَةٌ مِنِّي
وَنَسِيتُ أَنَّهَا حَتَّى عِنْدَمَا كَانَتْ بَعِيدَةً
بَعِيدَةً جِدًّا
كَانَتْ الْمَوْسِيقَى تَمْلَأُ الْفَرَاغَ الْهَائِلَ
بَيْنَ رُوحَيْنِ
لَقَدْ خَفَّفَ مِنْهَا حِجَابُ الْعَادَاتِ الْمَأْلُوفَةِ .
وَفِي لِيَالِي الصَّبِّفِ الْخَجَلَى
وَحِينَ كَانَ نَسِيمُ الصَّمْتِ
يَسْحَبُ غَمَغَمَةً رَحِيْبَةً
فَإِنِّي أُلْهَضُّ لِلْجُلُوسِ فِي فِرَاشِي
وَأَشْكُو الْخَسَارَةَ الْكَبِيرَةَ
خَسَارَتِي بِفَقْدَانِ هَذِهِ الَّتِي تُقُومُ
إِلَى جَانِبِي

وَأَسْأَلُ

مَتَى أَخْطِي مِنْ جَدِيدٍ بِتِلْكَ

الْفُرْصَةِ لِأَهْمِسَ إِلَيْهَا بِالْكَلِمَاتِ

الَّتِي تَحْمِلُ فِي أَعْمَاقِهَا إِيقَاعَ الْخُلُودِ؟

اسْتَيْفِظْ يَا نَشِيدِي مِنَ الْخُمُولِ

وَمَزَقْ سِتَارَ الْعَادِيِّ وَالْمَأْلُوفِ

وَحَلِّقْ مِنْ هُنَاكَ

مِنْ عِنْدِ حَبِيبَتِي

بِرَوْعَةِ الْمُفَاجِئَةِ الْعَظِيمَةِ

لِللِقَائِثِ الْأَوَّلِ.

22

لَقَدْ رَحَلْتُ

جَيْنَ أَوْشَكَ اللَّيْلِ عَلَى الرَّحِيلِ

وَحَاوَلْتُ فِكْرِي أَنْ يُعْزِيَنِي

قَائِلًا: كُلُّ شَيْءٍ بَاطِلٌ
فَأَحْتَفَنِي ذَلِكَ، وَقُلْتُ لَهُ
هَذِهِ الرِّسَالَةُ الْمُغْلَقَةُ، وَقَدْ كُتِبَ
اسْمُهَا فَوْقَهَا. وَهَذِهِ الْمَرْوَحَةُ
الْمَصْنُوعَةُ مِنْ سَعَفِ النُّخِيلِ
الْمَزِينَةُ حَوَافِيهَا بِالْحَرِيرِ الْأَحْمَرِ
مِنْ صَنْعِ يَدَيْهَا. أَلَيْسَتْ أَشْيَاءَ
حَقِيقَةً؟

وَمَضَى الْيَوْمَ وَجَاءَ صَدِيقِي
قَائِلًا: كُلُّ مَا هُوَ طَيِّبٌ وَحَقِيقِي
لَنْ يَضِيعَ سُدًى
فَأَجَبْتُهُ فِي صَبْرٍ نَافِدٍ.
وَكَيْفَ عَرَفْتَ ذَلِكَ؟
الْمَ يَكُنْ طَيِّبًا هَذَا الْجَسَدُ
الَّذِي ضَاعَ الْآنَ مِنَ الْحَيَاةِ؟

كُنْتُ كَالطُّفْلِ الْغَاصِبِ الَّذِي يَضْرِبُ
 أُمَّهُ، أَحَاوِلُ أَنْ أَدْمِرَ كُلَّ مَلَاذٍ
 فِي أَعْمَاقِي
 وَفِيمَا حَوَالِي . وَصَرَخْتُ:
 إِنَّ هَذَا الْكَوْنُ غَادِرٌ
 وَفَجْأَةً سَمِعْتُ صَوْتًا يَهْتِفُ:
 أَيُّهَا الْجَاحِدُ!
 وَتَأَمَّلْتُ الْمَشْهَدَ خَارِجَ النَّافِذَةِ
 وَمِنَ اللَّيْلِ الْمُرْصَعِ بِالنُّجُومِ
 بَدَأَ أَنَّهُ يَهْبِطُ عَلَيَّ لَوْحٌ:
 اسْكُبْ فِي فَرَاغِ غَيْبِي
 إِيمَانَكَ فِي حَقِيقَةِ أَنِّي جِئْتُ

23

النَّهْرُ كَانَ رَمَادِيًّا

والجو كان مكفهرًا بسبب الرمال التي تحولها الرياحُ.
 وفي صباحٍ من القلقِ الغامضِ
 حينَ نضمتُ الطيورُ
 وترتجفُ أوكارها بعصفِ الرياحِ
 كنتُ أجلسُ وحيداً وأتساءلُ
 أين هي؟
 لقد مضت الأيامُ التي كنّا نجلسُ فيها
 معاً متجاورينِ مُتقاربينِ
 نضحكُ ونسخرُ
 والرهبةُ من جلالِ الحبِّ لم تكنْ نجدُ
 كلماتٍ تُقضي بها في هذه اللقاءاتِ.
 وكنتُ افتعلُ طيش الصغر
 وكانت هي في كلِّ لحظةٍ
 تجودُ بالأحاديث التي لا معنى لها
 واليومُ، أرعبُ عبثاً

لَوْ كَانَتْ هِيَ بِجَانِبِي
فِي ظِلَامِ الْعَاصِفَةِ الْقَادِمَةِ
لِكَيْ نَجْلِسَ مَعًا فِي عَزَلَةِ الرُّوحِ
وَوَحْدَتِهَا.

24

إِنَّ الْأَسْمَ الَّذِي كَانَتْ تَدْعُونِي بِهِ
كَالْيَاسَمِينَ الْمُزْهِرِ
كَانَ يُغَطِّي سَبْعَةَ عَشَرَ عَامًا
مِنْ حُبِّنَا
وَفِي صَوْتِهِ، كَانَ يَمْتَزِجُ
ارْتِجَافُ النُّورِ بَيْنَ أَوْرَاقِ الشَّجَرِ
وَرَائِحَةُ الْعُشْبِ فِي لَيَالِي الْمَطَرِ
وَالصَّمْتُ الْحَزِينُ لِلْسَّاعَةِ الْأَخِيرَةِ
مِنْ بَعْضِ الْأَيَّامِ الْكَثِيرَةِ الْخَامِلَةِ.

إِنْ مَا يُطَاقُ هَذَا الْاسْمُ
 لَمْ يَكُنْ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَحْدَهُ .
 وَلَكِنَّهَا أَعَادَتْ خَلْقَهُ مِنْ جَدِيدٍ لِنَفْسِهَا
 فِي تِلْكَ الْأَعْوَامِ السَّبْعَةِ عَشَرَ الْعَذْبَةِ
 وَكَانَ عَلَى أَعْوَامٍ أُخْرَى أَنْ تَتَلَحَّقَ
 وَلَكِنْ أَيَّامَهَا الثَّانِيَةِ
 لَمْ تَعُدْ تَتَجَمَّعُ وَتَتَوَحَّدُ فِي حِضْنِ ذَلِكَ الْاسْمِ .
 فَمَا نَكَادُ نَنْطِقُ بِهِ حَتَّى تَتَلَأَشَى وَتَبْدُدُ
 وَهِيَ تَسْأَلُنِي (مَنْ الَّذِي سَيُعِيدُ تَوْحِيدَنَا)
 فَلَا أَجِدُ رَدًّا وَأَجْلِسُ فِي صَمْتٍ
 فَتَشْرُدُ وَتَتَلَأَشَى وَتَضْرُخُ فِي :
 إِنَّا نَبْحَثُ عَنْ رَاعِيَةٍ صَغِيرَةٍ
 وَلَكِنْ مِنَ الَّذِي سَيَبْحَثُ عَنْهَا ؟
 إِنَّهَا لَا تُعْرَفُ . إِنَّهَا كَالْغُيُومِ الْمَهْجُورَةِ
 الْمَسَائِيَةِ الَّتِي تَتَجَهَّ نَحْوَ مُنْحَدَرَاتِ

الظُّلْمَةُ الْخَالِيَّةِ مِنَ الدُّرُوبِ
وَهُنَاكَ تُفْقَدُ وَتُنْسَى .

(25)

أَشْعُرُ أَنَّ أَيَّامَ حُبِّكَ الْقَصِيرَةَ
لَمْ تَتْرُكْهَا وَرَاءَنَا
فِي تِلْكَ الْأَعْوَامِ الْقَلِيلَةِ
مِنْ حَيَاتِنَا الْمُشْتَرَكَةِ .
وَإِنِّي لَا بُحْثُ فِي أَيِّ مَكَانٍ بَعِيدٍ
عَنِ التُّرَابِ الَّذِي يَسْرِقُ بِطُغْمٍ
اِحْتَفَظَتْ بِهَا
وَفِي وَحْدَتِي
أَجِدُ بَعْضَ الْأَغْنِيَاتِ مِنَ الْأُمْسِيَّةِ
الَّتِي وَأَفَّاكَ الْمَوْتُ فِيهَا
وَلَكِنَّهَا تَرَكَتْ صَدَى خَالِدًا

وَزَفَرَاتِ سَاعَاتِكَ غَيْرِ الرَّاضِيَةِ
 أَجَدُّهَا مُنْطَوِيَّةٌ عَلَى نَفْسِهَا فِي الظُّهَيْرَةِ الْخَرِيفِيَّةِ
 الْهَادِئَةِ
 تَأْتِي رَعْبَاتُكَ
 مِنْ خَلِيَّةِ الْمَاضِيِ
 لِتُعَذِّبَ قَلْبِي
 وَأَنَا أَجْلِسُ فِي صَمْتٍ
 لِأَصْغِيَ إِلَى حَفِيفِ أَجْنِحَتِهَا

(27)

كُنْتُ أَمْشِي عَلَى طَرِيقٍ مُغَطَّاءٍ بِالْعُشْبِ
 حِينَ سَمِعْتُ فَجْأَةً صَوْتًا يَتَرَدَّدُ خَلْفَ ظَهْرِي
 (انْظُرْ . . هَلْ تَعْرِفُنِي)
 فَالْتَفْتُ، وَتَأَمَّلْتُهُ، وَقُلْتُ لَهُ:
 (لَا أَسْتَطِيعُ تَذَكُّرَ اسْمِكَ)

فَقَالَتْ :

(أَنَا أَوَّلَ أَلَمٍ عَظِيمٍ التَّقِيَّتِ

بِهِ فِي شَبَابِكَ)

عَيْنَاهَا تَبْدُوَانِ صَبَاحاً مَا تَزَالُ

أَجْوَاؤُهُ مُوشِحَةً بِالضُّبَابِ .

وَلَبِثْتُ بَرْهَةً صَابِئَةً ثُمَّ قُلْتُ :

لَقَدْ فَقَدْتُ كُلَّ حِمْلِكَ الْعَظِيمِ مِنَ الدُّمُوعِ .

فَضَحِكْتَ وَلَمْ تَقُلْ شَيْئاً

وَفَهِمْتُ أَنَّ دُمُوعَهَا قَدْ تَهَيَّأَتْ لَهَا

الزَّمَنُ لِتَتَعَلَّمَ لُغَةَ الْإِيْتِسَامِ

وَعَمُغَمَتِ قَائِلَةً :

فِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ كُنْتُ تَقُولُ إِنَّ أَلَمَكَ

سَيَكُونُ عَزِيزاً عَلَيْكَ دَوَماً

فَخَجَلْتُ وَقُلْتُ :

لَقَدْ مَضَّتْ أَغْوَامٌ ، وَنَسِيتُ

ثُمَّ أَخَذْتُ يَدَهَا فِي يَدَيَّ وَقُلْتُ:
لَقَدْ تَغَيَّرَتْ
فَقَالَتْ:

مَا كَانَ أَلَمًا ذَاتَ يَوْمٍ.
صَارَ الْآنَ سَلَامًا وَطُمَأْنِينَةً

(28)

حَيَاتُنَا كَانَتْ تَمْخُرُ بَحْرًا
لَمْ يُعَبِّرْ مِنْ قَبْلُ.
أَمْوَاجُهُ مُتَلَاحِقَةٌ
تَتَابِعُ فِيهِ الْمَوْجَةُ أَخْتَهَا
فِي لُغَبَةٍ اسْتِخْفَاءٍ خَالِدَةٍ.
إِنَّهُ الْبَحْرُ الَّذِي يُهَيِّجُهُ التَّغْيِيرُ
وَيَرْعَى قُطْعَانَهُ الْمُزِيدَ
وَيُضْيِعُهَا أَلْفَ مَرَّةٍ

وَيُصَفِّقُ يَدَيْهِ بِلا انْقِطَاعٍ
ضِدَّ هُدُوءِ السَّمَاءِ
وَفِي وَسْطِ هَذِهِ الرِّقْصَةِ الدَّوَامَةِ
مِنْ حَرْبِ النُّورِ وَالظُّلَامِ
فَأَنْتِ يَا حَبِيبَتِي
الْجَزِيرَةُ الْخَضِرَاءُ
حَيْثُ الشَّمْسُ تُقْبَلُ الظِّلُّ الْمُتَحَسِّرُ
وَالصَّمْتُ يُغَازِلُ بَتَغْرِيدِ الطُّيُورِ

30

كَانَ الْفَنَانُ يَبِيعُ لَوَحَاتِهِ فِي الْمَعْرِضِ
فَمَرَّ بِهِ، هُنَاكَ، ابْنُ الْوَزِيرِ
فِي مَوْكَبٍ مِنْ أَتْبَاعِهِ وَخَدَمِهِ
وَكَانَ وَالِدُهُ قَدْ خَدَعَ وَالِدَ الرَّسَّامِ
فِي شَبَابِهِ فَقَتَلَهُ يَأْسًا وَكَمَدًا

وَتَمَهَّلَ الشَّابُّ أَمَامَ اللُّوحَاتِ، ثُمَّ اخْتَارَ
وَاحِدَةً، وَلَكِنَّ الْفَنَّانَ غَطَّى اللُّوحَةَ
بِعِطَاءٍ، رَافِضاً بَيْعَهَا، وَحَطَّمَتُهُ
الرَّغْبَةُ فِي هَذِهِ اللُّوحَةِ فَمَرِضَ
وَاضْطَرَّ وَاللَّهُ لِلذَّهَابِ إِلَى الرُّسَامِ
وَقَدَّمَ إِلَيْهِ مَبْلَغاً كَبِيراً مِنَ الْمَالِ
وَلَكِنَّ الْفَنَّانَ رَفَضَ بَيْعَ اللُّوحَةِ
وَاحْتَفَظَ بِهَا مُعَلَّقةً عَلَى جُذْرَانِ مَرْسُومِهِ
وَكَانَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ وَهُوَ جَالِسٌ
أَمَامَهَا: هَذَا هُوَ انْتِقَامِي
وَكَانَ الشُّكْلُ الْوَحِيدُ لِلْعِبَادَةِ الَّتِي يُمَارِسُهَا
الرُّسَامُ هُوَ أَنْ يَوْسَمَ كُلَّ يَوْمٍ صُورَةً
لِمَعْبُودِهِ
وَلَكِنَّهُ اكْتَشَفَ أَنَّ هَذِهِ الرُّسُومَ
تَتَّخِذُ كُلَّ يَوْمٍ شَكْلاً مُخْتَلِفاً

عَنْ تِلْكَ الَّتِي اعْتَادَ أَنْ يَرْسُمَهَا
وَقَدْ أَفْلَقَهُ هَذَا الْوَاقِعُ ، وَحَاوَلَ
عَبَثًا أَنْ يَجِدَ لَهُ تَفْسِيرًا
حَتَّى انْتَفَضَ أَحَدَ الْأَيَّامِ مِنْ عَمَلِهِ
وَاکْتَشَفَ أَنْ عَيْنِي اللَّهُ اللَّتَيْنِ
رَسَمَهُمَا كَانَتَا عَيْنِي الْوَزِيرِ، وَكَذَلِكَ
الشُّفْتَيْنِ .
فَقَطَعَ الرَّسْمَ تَقْطِيعًا وَصَرَخَ
إِنْ انْتِقَامِي قَدْ عَادَ عَلَى رَأْسِي

(31)

حِينَ وَصَلَ الْقَائِدَ إِلَى مَحْضَرِ الْمَلِكِ
الْعَاضِبِ السَّامِكِ
حَيَّاهُ قَائِلًا :
لَقَدْ عُوِّبَتِ الْقَرْيَةُ

وَأَلْقَى الرِّجَالَ فَوْقَ التُّرَابِ
 أَمَا النِّسَاءُ فَقَدْ انْكَمَشْنَ فِي بُيُوتِهِنَّ
 وَأَطْفَانُ الْأَنْوَارِ
 وَهُنَّ يَخْفَنَ مُجَرَّدُ الشُّكُوى بِصَوْتِ عَالٍ
 فَتَنْهَضُ الْكَاهِنُ الْأَكْبَرُ وَاقِفًا
 وَبَارَكَ الْمَلِكُ ، مُعَلِّنًا
 أَنَّ بَرَكَتِ اللَّهِ سَتَكُونُ دَوْمًا مَعَكَ
 وَلَكِنَّ الْمُهْرَجُ مَا كَادَ يَسْمَعُ هَذِهِ
 الْكَلِمَاتِ حَتَّى انْفَجَرَ فِي ضِحْكَةٍ
 عَالِيَةٍ مُدَوِيَّةٍ جَعَلَتْ رِحَالَ الْبَلَاطِ
 الْمَلِكِيِّ كُلَّهُ يَنْهَضُونَ مِنْ مَكَانِهِمْ
 وَتَقْطُبُ جَبِينُ الْمَلِكِ
 فَبَادَرَ الْوَزِيرُ إِلَى الْقَوْلِ
 إِنَّ شَرَفَ الْعَرْشِ مُسْتَنْدٌ إِلَى شَجَاعَةِ
 الْمَلِكِ وَبَرَكَتِ اللَّهِ الْقَادِرِ

فَضَحِكَ الْمُهْرَجُ ضِحْكَةً أَقْوَى مِنَ الْأُولَى
 فَصَرَخَ الْمَلِكُ
 هَذَا ضَحِكُ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ
 فَقَالَ الْمُهْرَجُ
 إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَفَاضَ عَلَيْكَ مِنْ بَرَكَاتِهِ
 أَمَّا الْهَيْبَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي مَنَحَهَا لِي
 فَهِيَ مُوَهِّبَةٌ لِجَادَةِ الضَّحِكِ
 قَالَ الْمَلِكُ شَاهِرًا سَيْفَهُ
 إِنَّ هَذِهِ الْمُوَهِّبَةُ سَتَكِلُفُكَ
 حَيَاتَكَ
 وَلَكِنَّ الْمُهْرَجَ نَهَضَ
 وَظَلَّ يَضْحَكُ وَاقِفًا
 حَتَّى تَوَقَّفَ ضَحِكُهُ إِلَى الْأَبَدِ
 وَخَيَّمَ ظِلُّهُ مِنَ الرُّعْبِ عَلَى الْبِلَاطِ
 إِذْ سَمِعُوا جَمِيعًا صَدَى تِلْكَ

الضَّحَكَةُ يَتَرَدَّدُ فِي صَمْتِ
اللَّهِ الْعَمِيقِ .

33

بِوَحْشِيَّةٍ
كَأَنَّهُمْ يَقْطَعُونَ الْبَسَاطَ الَّذِي تُسَبِّحُ
عَبْرَ أَحْقَابٍ مِنَ الصَّلَاةِ وَالِدُّعَاءِ
لِيُرْحَبُوا بِأَعْظَمِ آمَالِ الْعَالَمِ .
وَاسْتِعْدَادَاتِ الْحُبِّ الْعَظِيمَةِ
كَأَنَّ مُرْتَبِعِيَّةً فِي كَوْمَةٍ مِنَ الْأَسْمَالِ الْبَالِيَةِ
وَلَا شَيْءَ فَوْقَ الْهَيْكَلِ الْمُتَدَاعِي
يُذَكِّرُ الْجَمَاهِيرَ الْمَجْنُونَةَ
بِأَنَّ إِلَهَهَا قَدْ جَاءَ .
وَفِي غَضَبَةٍ تَدْمِيرِيَّةٍ
بَدَوْا وَكَأَنَّهُمْ أَحَالُوا مُسْتَقْبَلَهُمْ إِلَى رَمَادٍ

وَمَعَهُ أَيْضًا مَوْسِمَ أَزْهَارِهِمْ
وَمِنْ الْجَوِّ كَانَ يَتَرَدَّدُ حَادًّا قَاسِيًا
الصُّرَاخُ :

إِنِ الرَّحْشَ يَنْتَصِرُ
وَكَانَ لِلْأَطْفَالِ مَظْهَرُ الشُّيُوخِ الضَّامِرِينَ
وَيَتَّبِعُونَ الْهَمْسَ
بِأَنَّ الزَّمْنَ يَدُورُ وَلَكِنَّهُ لَا يَتَقَدَّمُ أَبَدًا
وَأَنْتَا تُوْخِذُ لِلْعَدُوِّ
وَلَكِنْ لَيْسَ لَنَا شَيْءٌ نَصِلُ إِلَيْهِ
وَأَنَّ الْخَلْقَ كَالْأَعْمَى يَتَقَدَّمُ الرُّكْبَ مُتَرَنِّحًا
قَائِلًا لِي (تَوَقَّفْ عَنِ الْغِنَاءِ
إِنَّ الْغِنَاءَ لِمَنْ يَأْتِي ، أَمَّا الصُّرَاعُ الَّذِي
لَا حَدَّ لَهُ فَلِلْأَشْيَاءِ الَّتِي وَجِدْتَ فِعْلًا)
إِنَّ الطَّرِيقَ تَنْبَسِطُ دَوْمًا
وَقَدْ وَضَعَ أَحَدُهُمْ أُذُنَهُ فَوْقَ الْأَرْضِ

يَتَسَمَّعُ صَدَى الْخُطُواتِ
لَا يَجْمَعُ أَيُّ إشارَةٍ تَدُلُّ عَلَى
الضَّيْفِ الْقَادِمِ .
لَا شَيْءٌ يَأْتِي مِنْ بَيْتِهِ الْوَاقِعِ فِي الْأَقاصِي
وَقَالَ عُودِي :
لِتُدْسُنِي فَوْقَ الْأَرْضِ
وَتَأْمَلْتُ التُّرابَ عَلَى حَافَةِ الطَّرِيقِ .
كَانَتْ هُنَاكَ زَهْرَةٌ بَيْنَ الْخَرَابِ
فَصَرَخْتُ (إِنْ أَمَلَ الْعَالَمِ لَمْ يَمُتْ)
وَمَالَتِ السَّمَاءَ عَلَى الْأَفْقِ .
تَهْمَسُ لِلْأَرْضِ .
وَصُمْتُ مَلِيءٌ بِالْاِنْتِظَارِ وَالتَّوَقُّعِ أَفْعَمَ الْجَوِّ
وَرَأَيْتُ أَوْرَاقَ النُّخِيلِ .
تُصَفِّقُ عَلَى إِيقَاعِ مُوسِيقِي غَيْرِ مَسْمُوعَةٍ
وَالْقَمَرُ يَتَبَادَلُ نَظْرَةً مَعَ الصُّمْتِ الْمُتَأَلَّقِ .

فَوْقَ الْبُحَيْرَةِ

وَقَالَتْ لِي الطَّرِيقُ (لَا تَخَفْ)

وَقَالَ لِي عُودِي (أَعِينَاكَ)

1

تَعَالَ أَيُّهَا الرِّبْعُ

يَا عَشِيقَ الْأَرْضِ الْمُتَهَوَّرِ

اجْعَلْ قَلْبَ الْقَابِ

يَتَشَوَّقُ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ نَفْسِهِ

تَعَالَ مَعَ هَبَّاتِ الرِّيحِ الْقَلِيقَةِ

حَيْثُ تُزْهِرُ الْبَرَاعِمُ فَجْأَةً

وَفَتْحُ أَوْرَاقاً جَدِيدَةً

وَانْفِجِرْ كَثُورَةً مِنَ النُّورِ

عَبْرَ سَهْرِ اللَّيْلِ

عَبْرَ ظَلَامِ الْبُحَيْرَةِ

وَعَبَّرَ السُّجُونِ الْقَابِعَةَ تَحْتَ التُّرَابِ
 وَلْتُعْلِنَ حُرِّيَّةَ الْبُدُورِ الْمَشْدُودَةِ لِلْقُيُودِ
 وَمِثْلَ ضَحَكَةِ الْبَرْقِ
 وَمِثْلَ صَرْخَةِ الْغَابِ
 لِيَتَذَفِّعَ بِعُنْفِهِ فِي الْمَدِينَةِ الْحَافِلَةِ بِالضُّجُجِ
 وَحَرَّرَ الْكَلِمَاتِ الْمَخْنُوقَةَ
 وَلْتُعْطِ حَيَوِيَّةُ لِمَعْرَكَتِنَا الْخَامِلَةَ
 وَلْتَنْظُرَ بِالْمَوْتِ .

②

لَقَدْ رَاقَبْتُ هَذَا الْمَشْهَدَ الرَّيْفِيَّ
 فِي عِدَّةِ أَشْهُرٍ مِنْ مَارِسَ
 حِينَ يُزْهِرُ .
 وَهَذَا الْخَطُّ الْكَسُولُ مِنَ الْمَاءِ
 وَلَوْنُ الرُّمَالِ الرَّمَادِيِّ الَّذِي يَتَعَالَى

عَنْ بَعْدِ

وَالدَّرْبَ الْمُتَعَزِّلَ الْقَائِمَ عَلَى طُولِ ضَيْفَةِ النَّهْرِ

الَّذِي يَحْمِلُ زِمَالَةَ الْحُقُولِ

إِلَى قَلْبِ الْقَرْيَةِ.

وَحَاوَلْتُ أَنْ أَضَعُ فِي الشُّعْرِ

صَفِيرَ الرِّيحِ الْكَسُولِ فِي زَوْرَقٍ عَابِرٍ

وَحَفَقَاتِ الْمَجْدَافِ

وَذَهَلْتُ مِنْ بَسَاطَةِ مَا يَقَعُ أَمَامِي .

فِي هَذَا الْكَوْنِ الْعَظِيمِ .

بِأَيَّةِ سُهُولَةٍ مَائُوسَةٍ مَأْلُوفَةٍ مُحَبَّبَةٍ

مَلَأَ قَلْبِي

هَذَا اللَّقَاءُ مَعَ الْغَرِيبِ الْأَبْلَدِيِّ

5

فِي عَالَمِ الطُّفْلِ .

أَنَّ الْأَشْجَارَ تُحَرِّكُ أَوْرَاقَهَا تَحِيَّةً لَهُ
 وَتَهْمِسُ إِلَيْهِ بِأَشْعَارٍ مُصَاغَةٍ
 فِي لُغَةٍ قَدِيمَةٍ سَابِقَةٍ عَلَى عَهْدِ الْكَلِمَاتِ
 وَالْقَمَرُ يَتَظَاهَرُ بِأَنَّهُ يَرُبُّهُ
 الْمَتَمَثِّلُ فِي تِلْكَ الطُّفْلَةِ الْمُسْتَوْجِدَةِ فِي اللَّيْلِ .
 أَمَا فِي عَالَمِ الشَّيْخِ
 فَإِنَّ الزُّهُورَ تَحْمَرُّ خَجَلًا وَاجْتِلَالًا
 مِنْ تَصْنَعِ الْأَسَاطِيرِ
 وَالذُّمَى الْمَكْسُورَةَ تَعْتَرِفُ بِأَنَّهَا
 قَدْ صُنِعَتْ مِنَ الطِّينِ .

7

أَيْتُهَا الْأَرْضُ الْعَظِيمَةُ
 مَا أَكْثَرَ مَا أَحْسَسْتُ بِالرُّغْبَةِ
 لِلا نَصْهَارِ فِيكَ

مُشَاطِرًا شُعُورَ الْفَرَحِ
 كُلُّ عُودٍ نَحِيلُ مِنَ الْعُشْبِ
 يَرْفَعُ عَلَمَهُ إِشَارَةَ الْجَوَابِ
 عَلَى يَدَايِ الزُّرْقَةِ الدَّاعِيَةِ مِنَ السَّمَاءِ .
 وَيَبْدُو لِي أَنِّي كُنْتُ مُلْكًا لَكَ
 قَبْلَ أَحْقَابِ طَوِيلَةٍ مِنْ مِيلَادِي
 وَذَلِكَ هُوَ السَّبَبُ الَّذِي يَجْعَلُنِي
 خِلَالَ الْأَيَّامِ الَّتِي يَلْمَعُ فِيهَا نُورُ الْخَرِيفِ
 فَوْقَ سَنَابِلِ الْأَرْضِ النَّاصِجَةِ - أَبْدُو
 وَكَأَنِّي أَذْكُرُ مَاضِيًّا يَكُونُ مَعَهُ
 فِكْرِي فِي كُلِّ مَكَانٍ
 حَتَّى لِيُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنِّي أَسْمَعُ
 أَصْوَاتَ رِفَاقِ اللَّعِبِ
 يَتَرَدَّدُ صَدَاهَا قَادِمًا مِنْ مَاضٍ
 مُجَبِّبٍ سَجِيقٍ .

وَحِينَ تَعُودُ الْقُطْعَانُ فِي الْمَسَاءِ
إِلَى حَظَائِرِهَا، مُثِيرَةً خَلْفَهَا
سَحَابًا مِنَ الْعُبَارِ، فِي دُرُوبِ
الْمَرَاعِي

وَبَيْنَمَا يَرْتَفِعُ الْقَمَرُ فَوْقَ أَعْمِلَةِ
الدُّخَانِ الْمُتَصَاعِدَةِ فِي كَسَلٍ
مِنْ أَكْوَاحِ الْقَرْيَةِ
أَحْسُ حُزْنًا كَذَلِكَ الْحُزْنِ الَّذِي تَمُّ
لِذَلِكَ الْفِرَاقِ الْعَظِيمِ
فِي أَوَّلِ صَبَاحٍ مِنْ خَلْقِ الْكَوْنِ

3

الزُّورَقُ الْعَبَّارُ
يَقُومُ بِوُظَيْفَةِ الْمَكُولِ
بَيْنَ الْقَرْيَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ

عَلَى ضِفْطِي النَّهْرِ.
 وَالْمَجْرَى الْمَائِي لَيْسَ وَاسِعًا وَلَا عَمِيقًا
 مُجَرَّدُ فَاصِلٍ بِسَيْطٍ فِي الطَّرِيقِ
 يَزِيدُ مِنْ أَزْدِهَارِ الْمُغَامَرَاتِ الصَّغِيرَةِ
 فِي الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ.
 مِثْلَ الْوَقْفَةِ فِي كَلِمَاتِ الْأَعْيُنِ
 تَجْرِي عَبْرَهَا الْمَوْسِيقَى بِفَرَحٍ وَانْشِرَاحٍ.
 وَبَيْنَمَا تَرْتَفِعُ أَبْرَاجُ الثُّورَةِ
 عَالِيَةً شَامِخَةً ثُمَّ تَسْقُطُ فِي الدَّمَارِ
 فَإِنَّ هَاتَيْنِ الْقَرْيَتَيْنِ تَتَبَادَلَانِ
 الْحَلِيبُ عَبْرَ النَّهْرِ الْمِهْدَارِ
 وَيَسْتَمِرُّ الزُّورَقُ فِي أَدَاءِ مُهِمَّةِ الْمَكُوكِ
 فَصَلًّا بَعْدَ فَصْلٍ
 وَمِنْ مَوْسِمِ الْبَذْرِ إِلَى مَوْسِمِ الْحَصَادِ

الْغَيُومُ تَتَكَافَأُ
 حَتَّى لِيَبْدُو نُورُ الصَّبَاحِ
 وَكَأَنَّهُ خَيْمَةٌ بَلَّلَتْهَا لَيْلَةٌ مُمَطَّرَةٌ
 وَطِفْلَةٌ تَجْلِسُ إِلَى النَّافِذَةِ
 ثَابِتَةً كَأَنَّهَا قَوْسٌ قُرْحٌ
 عَلَى بَابِ عَاصِيفَةٍ مُدْبِرَةٍ
 إِنَّهَا قَرْنَتِي
 وَقَدْ جَاءَتْ هَلِيزِ الْأَرْضِ
 كَمَا تَجِيءُ ابْتِسَامَةُ أَيِّ إِلَهٍ عَاصٍ
 نَقُولُ أُمُّهَا فِي حَالَاتِ الْغَضَبِ
 إِنَّهَا لَا يُمَكِّنُ إِصْلَاحُهَا
 وَيَتَسَيَّمُ وَالِدُهَا وَيَقُولُ:
 إِنَّهَا مَجْنُونَةٌ

إِنَّهَا كَالسَّلَالِ الْهَادِرِ
 الَّذِي يَقْفِزُ وَيَثْبُ فوق الصُّخُورِ
 وَمِثْل ذَرَى أَشْجَارِ الْبَامْبُو
 الَّتِي يَتَعَالَى حَفِيفُهَا مَعَ الرِّيحِ الثَّائِرَةِ .
 إِنَّهَا تَجْلِسُ إِلَى نَافِذَتِهَا
 وَتُحَلِّقُ فِي السَّمَاءِ
 وَتَأْتِيهَا أُخْتُهَا قَائِلَةً
 تَعَالَيْ، إِنْ أَمَكِ تُنَادِيكِ
 وَلَكِنَّهَا تَهْزُ رَأْسَهَا
 وَيُحَاوِلُ أَخُوهَا الصَّغِيرُ أَنْ
 يُغْرِبَهَا بِاللَّعِبِ مَعَهُ بِزَوْقِهِ الصَّغِيرِ
 فَتَنْزِعُ يَدَهَا مِنْهُ
 وَحِينَ يُصِيرُ، تَضْرِبُهُ ضَرْبَاتٍ
 خَفِيفَةً عَلَى كَفْلِهِ .
 إِنْ أَوَّلَ الْأَصْوَاتِ الْعَظِيمَةِ

عِنْدَ بَدَايَةِ الْخَلْقِ
كَانَ عَزِيفُ الرِّيحِ وَهَدِيرُ الْمَاءِ .
هَذَا الصَّوْتُ الْعَرِيقُ فِي الطَّبِيعَةِ
وَيَدَاؤُهُ الصَّامِتُ لِلْحَيَاةِ الَّتِي لَمْ تُوَلَدْ
قَدْ بَلَغَ قَلْبَ هَذِهِ الطُّفْلَةِ
وَحَمَلَهَا وَحَدَّهَا إِلَى أُبْعَدَ
مِنْ حُدُودِ زَمَانِنَا
وَهِيَ لِذَلِكَ تُقِيمُ هُنَاكَ فِي الْأَعَالِي
وَقَدْ تَمَلَّكَتْهَا الْأَبَدِيَّةُ

10

الطَّاوِرُ النَّهْرِي
قَدْ حَطَّ عَلَى مُؤَخَّرَةِ الْقَارِبِ الْفَارِغِ .
وَفِي مُتَخَفِضِ ضِيقَةِ النَّهْرِ
يَرْبُضُ جَامُوسٌ مُتَتَعِّمًا بِغَفْوَتِهِ

مُتَذَوِّقًا لَذَّةَ طَرَاوِئِ الطَّيْنِ .
 وَبِقَرَّةٍ تَرَعَى عِنْدَ الضَّمَّةِ
 فَرِزَةً مِنْ عَوَائِ كَلْبِ الْقَرْيَةِ
 يَتَّبِعُهَا فَرِيقُ حَوَامٍ مِنْ (السَّالِيكِسِ)
 الْمُطَارِدِ لِلْحَشَرَاتِ .
 كُنْتُ جَالِسًا فِي غَابَةِ ثَمَرِ الْهِنْدِ الصَّغِيرَةِ
 حَيْثُ تَتَجَمَّعُ صَرَخَاتُ الْحَيَاةِ غَيْرِ النَّاطِقَةِ
 خُورِ الْبَقَرِ، وَزُقْرَقَةُ الْعَصَافِيرِ
 وَتَصْفِيرُهُ الصَّقْرِ الْحَادَّةِ،
 وَبَرِيقُ السَّمَكِ السَّابِحِ فِي الْمَاءِ .
 وَأَنَا أَرْقُبُ كُلَّ ذَلِكَ
 فِي الْمَهْدِ الْأَوَّلِ لِلْحَيَاةِ
 حَيْثُ الْأُمُّ الْأَرْضُ تَحْفَقُ
 لِأَوَّلِ تَعْشِيشَةِ حَيَّةٍ حَوْلَ
 نَهْدِهَا .

فِي الْقَرْيَةِ الْغَافِيَةِ
 كَانَتْ الظُّهَيْرَةُ هَادِثَةً
 مِثْلَ سَائِرِ سَاعَاتِ الزُّوَالِ الْمُتَوَهِّجَةِ .
 وَفِي هَذَا الرُّقْتِ انْتَهَتْ إِجَازَتِي
 وَابْتَدَتْ التِّي كَانَتْ فِي عَامِهَا الرَّابِعِ
 ظَلْتُ تَتَّبِعُنِي طَوَالَ الصَّبَاحِ
 مِنْ عُرْفَةٍ إِلَى عُرْفَةٍ
 مُلَاحِظَةً فِي صَمْتٍ عَمِيقٍ اسْتِعْدَادَاتِي لِلرَّحِيلِ
 حَتَّى إِذَا أَحَسْتُ بِالتَّعَبِ
 جَلَسْتُ جُلُوسَةً غَرِيبَةً هَادِثَةً
 قُرْبَ عَتَبَةِ الْبَابِ وَهِيَ تُغْمِغِمُ بَيْنَهَا
 وَبَيْنَ نَفْسِهَا
 أَبِي لَا تَذْهَبْ

كَانَتْ سَاعَةُ الْغَدَاءِ ، وَكَانَ يَغْلِبُهَا
 النَّعَاسُ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ
 مِنْ كُلِّ الْأَيَّامِ السَّابِقَةِ .
 وَلَكِنْ أُمُّهَا نَسِيَتْهَا
 وَكَانَتْ الطُّفْلَةُ حَزِينَةً إِلَى دَرَجَةٍ
 لَمْ تَقْدِرْ مَعَهَا عَلَى الشُّكْوَى
 وَأَخِيرًا ، حِينَ بَسَطَتْ ذِرَاعَيْ لُودَاعِهَا
 لَمْ تَتَحَرَّكَ مِنْ مَكَانِهَا ، وَلَكِنَّهَا نَظَرَتْ
 إِلَيَّ فِي حُزْنٍ وَقَالَتْ
 أَبِي . . يَتَّبِعُنِي أَلَا تَذْهَبُ
 وَابْتَسَمْتُ حَتَّى دَمِعتَ عَيْنَايَ
 حِينَ فَكَّرْتُ كَيْفَ أَنْ هَذِهِ الطُّفْلَةُ
 الصَّغِيرَةَ تَجْرُؤُ عَلَى مُصَارَعَةِ
 كَوْنِ الضَّرُورَةِ الْعِمْلَاقِ ، دُونَ
 سَنَدٍ سِوَى هَذِهِ الْكَلِمَاتِ

يَا أَبِي - يَنْبَغِي الْأُتَذَّهَب .

12

خُذْ إِجَارَةً
يَا طِفْلِي الصَّغِيرِ
هُنَاكَ السَّمَاءُ الزُّرْقَاءُ
وَالْحُقُولُ الْجَرْدَاءُ
وَمُسْتَوْدَعُ التَّنِّ
وَأَطْلَالُ الْهَيْكَلِ تَحْتَ شَجَرَةِ ثَمَرِ الْهِنْدِ الْعَنِيْقَةِ .
إِنْ إِجَارَاتِي سَاءَتْ مَتَّعُ بِهَا
مِنْ خِلَالِ إِجَارَاتِكَ
وَاجِدْهُ الثَّوْرَ فِي رَقْصَةِ عَيْنَيْكَ
وَالْأَنْعَامَ فِي صَرَخَاتِكَ الصَّاخِبَةِ .
إِنْ الْحَرِيفُ يَحْمِلُ إِلَيْكَ
طَلَاةَ الْإِجَارَاتِ الْحَقِيقِيَّةِ

أَمَا أَنَا فَيَحْمِلُ إِلَيَّ اسْتِحَالَةَ الْعَمَلِ
فَهَا أَنْتَ تَنْدْفِعُ إِلَى عُرْفَتِي
أَجَلٌ، إِنْ إِجَازَتِي هِيَ الْحُرِّيَّةُ الَّتِي لَا حَدَّ لَهَا
فِي أَنْ أَحِبَّ إِزْعَاجَكَ لِي .

13

ذَاتَ مَسَاءٍ
أَصْنَعْتُ طِفْلَتِي الصَّغِيرَةَ
إِلَى نِدَاءٍ رَفِيقَاتِهَا مِنْ تَحْتَ النَّافِذَةِ
فَهَبَطَتِ السَّلَمَ الْمُظْلِمَ مُسْرِعَةً خَائِفَةً
تَحْمِلُ فِي يَدِهَا وَصَبَاحًا تَحْمِيهِ
بِإِزَارِهَا مِنَ الْإِظْفَاءِ .
كُنْتُ جَالِسًا فِي الشَّرْقَةِ
فِي لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي مَارِسِ الْمُرْصَعَةِ بِالنُّجُومِ
حِينَ سَمِعْتُ فُجَاءَةً بُكَاءٍ

فَهَرَعْتُ لِكَيِّ أَقِفَ بِنَفْسِي عَلَى مَصْدَرِهِ
لَقَدْ انْطَفَأَ وَصْبَاحُهَا عِنْدَ فَرْجَةِ
السُّلَمِ الْمُظْلِمَةِ
فَسَأَلْتُهَا لِمَذَا تَبْكِينَ ؟ يَا مِي
فَأَجَابَتْنِي مِنْ أَسْفَلِ السُّلَمِ فِي لَوْعَةٍ :
أَبْتَاهُ . . إِنِّي ضِيعْتُ
وَحِينَ عُدْتُ إِلَى مَكَانِي مِنَ الشَّرْفَةِ
تَحْتَ لَيْلٍ مَارِسِ الْمُرْصَعِ بِالنُّجُومِ
نَظَرْتُ إِلَى السَّمَاءِ
وَبَدَأَ لِي أَنْ طِفْلَةٌ تَمْشِي هُنَاكَ
حَامِيَةً أَنْوَارَهَا الْعَلِيدَةَ بِإِزَارِهَا
فَإِذَا انْطَفَأَتْ أَنْوَارُهَا فَجَاءَتْ
فَسَتَّقِفُ فَجَاءَتْ وَيَتَرَدَّدُ
صُرَاخُهَا فِي السَّمَاءِ
أَبْتَاهُ . . لَقَدْ ضِيعْتُ

المَسَاءُ حَاضِرٌ

بَيْنَ فَوَانِيسِ الشَّارِعِ

وَذَهَبُهُ مُلَوِّثٌ بِغُبَارِ الْمَدِينَةِ

وَامْرَأَةٌ مُتَبَرِّجَةٌ مُتَزَيِّنَةٌ بِطَرِيقَةٍ

صَارِخَةٌ تُطِلُّ مِنَ النَّافِذَةِ

نَارٌ مُوقَدَةٌ فِي انْتِظَارِ فَرَاشَاتِهَا اللَّيْلِيَّةِ .

وَبَغْتَةٌ ، تَجْمَعُ النَّاسَ فِي الطَّرِيقِ

حَوْلَ مُتَشَرِّدٍ سَحَقَتْهُ عَجَلَاتُ

إِحْدَى الْعَرَبَاتِ

وَسَقَطَتِ الْمَرْأَةُ الْمُطِيلَةُ مِنَ الشُّرْفَةِ

عَلَى الْأَرْضِ ، وَهِيَ تُعَوِّلُ عَرِيْلًا

يَأْسًا مُتَأَثِّرَةً بِأَلَمِ الْأُمِّ الْعُظْمَى

المُرْتَدِيَةِ اللَّوْنِ الْأَحْمَرِ
الَّتِي تَجْلِسُ فِي الْمَعْبَدِ الدَّاخِلِي لِلْكُونِ .

(15)

إِنِّي أَذْكُرُ
مَشْهَدَ الْأَرْضِ الْبُورِ
وَصِيَّةَ تَجْلِسَ وَحْدَهَا فَوْقَ الْعُشْبِ
أَمَامَ مُخَيِّمٍ لِلْعَجَرِ
مُنْصَرِفَةً إِلَى ضَفْرِ شَعْرِهَا
فِي ظِلَالِ الْقَبِيلَةِ
وَكَلْبُهَا الصَّغِيرِ يَقْفِزُ وَيَنْبَحُ
أَمَامَ يَدَيْهَا الْمَشْعُولَتَيْنِ
كَمَا لَوْ كَانَ انْشَغَالَهَا بِضَفْرِ شَعْرِهَا
شَيْئًا لَا أَهَمِّيَّةَ لَهُ فِي نَظَرِهِ .
وَحَاوَلَتْ عَبَثًا أَنْ تُؤَبِّهَ

وَتُسَمِّيهِ (طَاعُونًا) مُعْبَرَةً عَنْ ضَجَرِهَا
 وَضَرْبَتَهُ عَلَى خَيْشُومِهِ بِإِبْهَامِهَا
 مُلَوِّحَةً بِتَهْدِيدِهِ
 وَقَدْ بَدَأَ لَهُ أَنْ ذَلِكَ كُلُّهُ
 لِرِيَادَةِ تَسْلِيَتِهِ
 ثُمَّ نَظَرَتْ إِلَيْهِ مُتَجَهِّمَةً
 مُهْدِّدَةً لَهُ بِعِقَابٍ قَرِيبٍ
 ثُمَّ تَرَكَتْ خُصَلَاتَ شَعْرِهَا تَنْسَابُ
 وَفُجْأَةً أَخَذَتْهُ فِي أَحْضَانِهَا
 ضَاحِكَةً
 وَضَمَّتْهُ إِلَى قَلْبِهَا .

17

لَوْ قُدِّرَ لِسَاكِنِ الْقَرْيَةِ ذِي الْأَسْمَالِ الْبَالِيَةِ
 الَّذِي يَجْرُ سَاقِيهِ نَحْوَ بَيْتِهِ عَائِدًا مِنْ

السُّوقِ

أَنْ يُرْفَعَ بَعْتُهُ إِلَى قِمَّةِ إِحْدَى الْعُصُورِ

السَّحِيقَةِ

فَإِنْ النَّاسَ سَوْفَ تَتَوَقَّفُ عَنْ أَعْمَالِهَا

وَتُتَهَرَّعُ إِلَيْهِ صَارِخَةً بِفَرْحَتِهَا الْغَامِرَةِ

لَأَنَّهُ لَمْ يَعُدْ مُجَرَّدَ فَلَاحٍ

وَلَكِنَّهَا تَرَى فِيهِ سِرًّا

عَصْرِهِ وَرُوحَهُ

وَفَقْرَهُ وَالْمَهْ يُصْبِحَانِ أَشْيَاءَ عَظِيمَةً

مُتَحَرِّرَةً مِنْ إِهَانَاتِ الْحَاضِرِ

التَّافِهَةِ

وَالْأَشْيَاءَ الْبَائِسَةَ الَّتِي تَحْتَوِيهَا سَلْتُهُ

تَكْتَسِبُ جَلَالاً مُؤَثَّرًا.

18

فِي الصَّبَاحِ

خَرَجَ لِلتَّنَزُّهِ فِي الطَّرِيقِ الْمُظْلَلِ
يَصِفُ مِنْ أَشْجَارِ الدُّودَارِ الَّذِي يُطَوِّقُ الْهَضْبَةَ
كَأَنَّهُ حُبٌّ مُتَطَفِّلٌ .

كَانَ يُمَسِّكُ فِي يَدِهِ أَوَّلَ رِسَالَةٍ
جَاءَتْهُ مِنْ زَوْجَتِهِ الَّتِي احْتَفَلَ بِزَفَافِهِ
عَلَيْهَا مُنْذُ قَلِيلٍ . إِنَّهَا تَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ أَنْ
يَحْضُرَ إِلَيْهَا فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ .
إِنْ مُلَاطَفَةً يَدِ غَائِبَةٍ عَنْهُ

كَأَنَّتْ تُبِيرُهُ ، بَيْنَمَا كَانَ يَتَنَزَّهُ
وَبَدَا كَأَنَّ الْجَوَّ كُلَّهُ يَسْتَلِيمُ صَرَخَةَ
تِلْكَ الرُّسَالَةِ

يَا حَبِيبِي ، إِنْ سَمَائِي مَلِيئَةٌ بِالْدُمُوعِ
وَسَأَلَ نَفْسَهُ فِي دَهْشَةٍ :
كَيْفَ اسْتَحَقَّ هَذَا ؟
وَبَدَتْ الشَّمْسُ فَجَاءَتْ فَوْقَ خَطِّ

الهَضَابِ الزُّرْقَاءِ
 وَأَرْبَعُ صَبَايَا قَادِمَاتٍ نَحْوَهُ
 مِنْ شَاطِئِ مَجْهُولٍ، بِخُطَوَاتٍ خَفِيفَةٍ،
 يَتَحَدَّثْنَ بِصَوْتٍ عَالٍ، وَيَتَّبِعُهُنَّ
 كَلْبٌ يَنْبَحُ.
 أَمَا الْكَبِيرَتَانِ فَقَدْ أَدَارَتَا وَجْهَيْهِمَا
 لِتُدَارِيَا اسْتِمْتَاعَهُمَا
 بِشَيْءٍ غَرِيبٍ يَبْدُو فِي مَظْهَرِهِ .
 أَمَا الصَّغِيرَتَانِ فَقَدْ انْضَمَّتَا إِلَى
 بَعْضِيهِمَا ضَا حِكَّتَيْنِ بِصَوْتٍ عَالٍ
 ثُمَّ هَرَبَتَا فِي بَهْجَةٍ طَائِفَةٍ .
 وَتَوَقَّفَ هُوَ خَافِضَ الرَّأْسِ
 ثُمَّ فَجَاءَهُ لَمَسَ رِسَالَتِهَا
 وَفَتَحَهَا، وَقَرَأَهَا مِنْ جَدِيدٍ

لَقَدْ جَاءَ الْيَوْمَ

الَّذِي يُحْمَلُ فِيهِ تِمَثَالُ الْهَيْكَلِ

فَوْقَ الْعَرَبَةِ، لِلطَّوَافِ بِهِ فِي الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ.

قَالَتِ الْمَلِكَةُ لِلْمَلِكِ

لِنَذْهَبَ لِلْمُشَارَكَةِ فِي الْإِحْتِفَالِ.

وَمِنْ كُلِّ الْعَائِلَةِ، لَمْ يَتَخَلَّفْ

سِوَى رَجُلٍ وَاحِدٍ عَنْ هَذَا

الْحَجِّ

لَقَدْ كَانَ عَمَلُهُ يَتِمَثَلُ فِي جَمْعِ

أَعْوَادِ السَّعْفِ لِصُنْعِ الْمَكَائِسِ

الْخَاصَّةِ بِقَصْرِ الْمَلِكِ.

وَشَعَرَ رَئِيسُ الْخَنَمِ بِالِإِشْفَاقِ

عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ:

يُمْكِنُكَ أَنْ تَأْتِيَ مَعَنَا
 وَلَكِنَّهُ حَتَّى رَأْسَهُ قَائِلًا:
 كَلَّا... مُسْتَحِيلٌ
 إِنَّهُ يَسْكُنُ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي سَيَسْلُكُهَا
 مُوَجِّبُ الْمَلِكِ .
 وَحِينَ مَرَّ الْوَزِيرُ، مُمْتَطِئاً فِيهِ
 قُرْبَ دَارِهِ، دَعَاهُ قَائِلًا:
 تَعَالَ مَعَنَا، لِنَرَى الْإِلَهَ
 وَقَدْ حِيلَ فَوْقَ عَرَبَتِهِ .
 فَأَجَابَهُ:
 لَسْتُ مُعْتَادًا أَنْ أُبْحَثَ عَنِ الْإِلَهِ
 بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي يَتَّبِعُهَا الْمَلِكُ
 فَسَأَلَهُ الْوَزِيرُ
 مَتَى سَيُتَّاحَ لَكَ الْحِظُّ لِمُشَاهَدَةِ
 الْإِلَهِ فَوْقَ الْعَرَبَةِ؟

فَأَجَابَهُ الرَّجُلُ:

حِينَ يَأْتِي إِلَهُ نَفْسِهِ إِلَى بَابِي .

فَضَحِكَ الْوَزِيرُ مِنْهُ ضِحْكَةً عَالِيَةً

ثُمَّ قَالَ :

يَا لَكَ مِنْ غَيْبٍ ، حِينَ يَأْتِي اللَّهُ إِلَى بَابِكَ ؟ !

حَتَّى الْمَلِكُ يَتَّبِعُنِي أَنْ يَرْحَلَ لِمُشَاهَدَتِهِ !

فَأَجَابَهُ الرَّجُلُ :

وَمَنْ غَيْرُ إِلَهُ يَزُورُ مَنَازِلَ الْفُقَرَاءِ ؟

(20)

الْأَيَّامُ أَخَذَتْ تَطُولُ

حِينَ أَوْشَكَ الشِّتَاءُ عَلَى الْإِنْتِهَاءِ

وَكَلْبِي يَلْعَبُ فِي الشَّمْسِ

بِطَرِيقَتِهِ الْوَحْشِيَّةِ

الْمُفَضَّلَةِ

وكانَ الناسَ الذينَ يَتَوَجَّهونَ إلى السُّوقِ
يَتَوَقَّفونَ أَمامَ السَّيَّاحِ ضاحِكينَ
مِنْ رُؤْيَهِ هَذا الحُبِّ الَّذي يَقومُ
بَيْنَ رَفيقَينِ يَتَتَمَيَّانِ إلى لُغَتَينِ .
مُخْتَلِفَتَينِ جِدًّا الاختِلَافُ .
الرَّبيعُ كانَ يَبْدُو في الجَوِّ
وَالأوراقُ الغَضَّةُ تَتَمَاجُ كأنَّها اللَّهَبُ
وَبَرِيقُ يَرْقصُ في عَينَي الكَلْبِ الصَّغيرِ
حينَ يَقفُزُ ، أو يَثنِي رَقَبَتَهُ
عِندَ تَحَرُّكِ ظِلِّهِ
أو أَذُنَيْهِ مَتَسَمِعاً
شَيْئاً مِنَ الهَمَسِ تَحْمِلُهُ الرِّيحُ
وَجاءَتِ الرِّسالةُ مُتَدَفِّقَةً
مَعَ النِّسيمِ الشَّارِدِ
أو مَعَ وَمِيزِ البَرَقِ في سَماءِ أَبريلِ .

إِنَّهُ يُغْنِي الْأَلَمَ الْأَوَّلَ
 فِي شَبَابِ الْكَوْنِ
 حِينَ تَفْتَحُ أَوَّلُ زَهْرَةٍ
 وَخَرَجَ الْحُبُّ يَبْحَثُ عَمَّا لَا يَعْرِفُهُ
 تَارِكًا كُلَّ مَا عَرَفَهُ .
 إِنَّهَا أُمْسِيَّةٌ ، بَيْنَ أَشْجَارِ «الأملاك»
 حِينَ تَتَكَاثَفُ الظُّلَالُ
 وَتُصْبِحُ عَذْبَةً بِمَدَاعِيهَا
 لِلنُّورِ .
 وَرَحَلَتْ تَعْدُو كَمَا لَوْ كَانَتْ
 نَيْزَكًا عَاشِقًا لِلْمَوْتِ .
 وَخَيَّمَ الظُّلَامُ ، وَفِي الْبَيْتِ
 أُوقِدَتِ الْمَصَابِيحُ
 وَظَهَرَتِ النُّجُومُ ، وَهَبَطَ اللَّيْلُ عَلَى الْحُقُولِ
 وَلَكِنْ لَمْ تَعُدْ

فَأَسْرَعَ كَلْبِي يَعْدُو نَحْوِي
وَهُوَ يَعْوِي ، وَيَسْأَلُنِي بِعَيْنَيْهِ
الرَّحِيمَتَيْنِ اللَّتَيْنِ يَدُّوهُمَا
كَأَنَّا تَقُولَانِ . . لَا أَفْهَمُ
وَلَكِنْ مَنْ الَّذِي يُمَكِّنُهُ أَنْ يَفْهَمَ؟

(21)

زُقَاقُنَا مُلْتَوِي
كَمَا لَوْ كَانَ قَدْ رَحَلَ مِنْذُ أَحْقَابِ
بَاحِثًا عَنْ هَدَفِهِ
مُتَرَتِّحًا بَيْنَ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ
وَوَظِلٌّ مُضْطَرِبًّا إِلَى الْأَبَدِ .
وَبَيْنَ الْمَبَانِي الَّتِي تَحْفُ بِهِ
يَدُّو مِنْ السَّمَاءِ خَيْطُ كَأَنَّهُ الشَّرِيطُ الْمُعَلَّقُ
وَيُسَمِّيهِ زُقَاقُنَا

أَخَاهُ فِي الْمَدِينَةِ السَّمَاءِيَّةِ .
لَا يَرَى الشَّمْسُ إِلَّا لَحَظَاتٍ قَلِيلَةً
فِي الظُّهَيْرَةِ ، وَيَتَسَاءَلُ
بِحِكْمَةٍ مُتَشَكِّكَةٍ . . هَلْ هِيَ
حَقِيقَةٌ ؟

وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ
يُعْتَمُ مَطَرُ يُونِيوِ
هَذَا الشَّرِيطِ مِنَ الثُّورِ
فَيَبْدُو كَأَنَّهُ خَطٌّ بِقَلَمِ الرُّصَاصِ
وَيُصْبِحُ الزُّقَاقُ زَلَقًا بِسَبَبِ الْوَحْلِ
وَالْمِظَلَّاتُ تَتَنَاطَحُ فِيهِ
وَتَدْفُقُ الْمِيَاءُ مِنَ الْمِيَاذِبِ
فَوْقَ أَرْضِيَّتِهِ الْمَبْهُورَةِ .
وَفِي دَهْشَتِهِ يَأْخُذُ هَلِوِ
الْأُمُورِ كَمَا لَوْ كَانَتْ سُحْرِيَّةً

مِنْ مُؤَامَرَةٍ غَيْرِ لَائِقَةٍ
 حُكِّتْ ضِلَّةً
 مُنْذُ خَرَجَ إِلَى الْوُجُودِ .
 وَنَسِيمُ الرِّبْعِ
 فِي دَائِرَةِ الْإِتِّوَاعِ
 يَتَعَثَّرُ وَيَتَرَنَّحُ كَمُتَشَرِّدٍ ثَمِلٍ يَتَعَثَّرُ
 ضِدَّ الزَّوَايَا وَالْأَرْكَانِ ،
 مَالِيئاً
 الْهَوَاءَ الْمُغْبَرَّ
 بِكَمِّيَّاتٍ مِنَ الْوَرَقِ وَالْخَرَقِ .
 أَيْةُ غَضَبَةٍ هَوَّجَاءَ
 هَلْ جُنَّتِ الْأَلْهَةُ ؟
 يَتَسَاءَلُ الزُّفَاقُ
 وَلَكِنْ الْفَضَلَاتِ الْيَوْمِيَّةِ
 الْمَطْرُوحَةِ مِنَ الْمَنَازِلِ عَلَى جَانِبِي الزُّفَاقِ

قَشَرَ الْأَسْمَاكَ الْمُخْتَلِطَةَ بِالرَّمَادِ
فَاكِهَةً فَاسِيدَةً ، وَفَنَرَانٍ مَيِّتَةً
لَا تَدْفَعُ الزُّقَاقَ إِلَى أَنْ يَتَسَاءَلَ
لِمَذَا يَحْدُثُ كُلُّ هَذَا؟
إِنَّهُ يَقْتُلُ كُلَّ صَخْرَةٍ مِنْ أَرْضِيهِ الْمُبْلُطَةِ
وَلَكِنْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ يَنْبُتُ
بَيْنَ شُقُوقِهَا عُودٌ مِنَ الْعُشْبِ
فَيَبُتُّ فِيهِ الْحَيْرَةُ .
كَيْفَ يُمَكِّنُ لِلْوَقَائِعِ الصَّلْدَةَ
أَنْ تَسْمَحَ بِهَذَا التَّطَفُّلِ؟
وَفِي صَبَاحِ يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ
وَعَلَى مُلَاطَفَةِ أَنْوَارِ الْخَرِيفِ
اسْتَيْقَظَتْ مَنَازِلُ الزُّقَاقِ
مِنْ أَحْلَامِهَا اللَّامِعُوقَةِ
وَهَتَفَ قَائِلًا لِنَفْسِهِ :

هُنَاكَ رَوْعَةٌ لَا حَدَّ لَهَا
 فِيمَا وَرَاءَ هَذِهِ الْمَبَانِي !
 وَلَكِن السَّاعَاتِ كَانَتْ تَمْضِي .
 وَالْعَائِلَاتِ نَهَضَتْ مِنْ نَوْمِهَا
 وَالْحَادِمَةُ تَعُودُ مِنَ السُّوقِ
 وَهِيَ تَتَرَنَّحُ ، فِي ذِرَاعِهَا الِيمْنَى
 سَلَّةُ التَّمْرِينِ
 وَتَسْنُدُ خَاصِرَتَهَا بِيَدِهَا الْيُسْرَى
 وَيَمْتَلِئُ الْجَوُّ بِرَائِحَةِ
 الْمَطَايِخِ وَدُخَانِهَا
 وَيَبْدُو وَاضِحًا لِرُقَاقِنَا
 أَنَّ الْوَاقِعِيَّ وَالْعَادِيَّ أَشْيَاءُ
 مِنْ صُنْعِهِ هُوَ ذَاتُهُ وَمِنْ
 صُنْعِ مَنَازِلِهِ وَأَكْوَامِ
 قِمَامَتِهِ ..

فِي أَعْمَاقِ الْغَابِ
 وَبُعَيْنِ مَغْمَضَتَيْنِ عَنْ عَزْمِ وَإِصْرَارِ
 كَانَ النَّاسِكُ يَقُومُ بِفَرَائِضِ التَّوْبَةِ وَالتَّكْفِيرِ .
 وَفِي قَصْدِهِ أَنْ يَكُونَ جَدِيرًا بِالْفِرْدَوْسِ
 وَلَكِنَّ الصَّبِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ تَجْمَعُ الْأَعْصَانُ
 كَانَتْ تَحْمِلُ إِلَيْهِ الْفَاكِهَةَ عَلَى أَطْرَافِ تَنُورِهَا
 وَمَاءَ تَغْرِفِهِ مِنَ الْجَدُولِ
 فِي كُؤُوسٍ مَصْنُوعَةٍ مِنَ الْأُورَاقِ .
 وَمَضَتْ الْأَيَّامُ ، وَتَفَكِيرُهُ يَزْدَادُ
 قَسْوَةً
 وَظَلَّتِ الْفَوَاحِشُ وَالْمِيَاهُ لَمْ تُنَمَسْ
 وَاسْتَبَدَّ الْحُزْنُ بِتِلْكَ الصَّبِيَّةِ
 وَسَمِعَ إِلَهُ الْفِرْدَوْسِ

أَنِ إِنْسَانًا كَانَ يَتَّطَلَعُ
 إِلَى أَنْ يَصِيرَ فِي مُسْتَوَى الْإِلَهِ .
 وَلَقَدْ قَاوَمَ الْمَرَدَّةَ
 الَّذِينَ كَانُوا يُوَاظُّونَهُ، مِرَارًا
 وَاسْتَطَاعَ إِبْعَادَهُمْ عَنْ مَمْلَكَتِهِ
 وَلَكِنَّهُ كَانَ يَخْشَى إِنْسَانًا تَتَجَلَّى
 كُلُّ قُوَّتِهِ فِيهِ تَحْمِلُ الْعَذَابَ .
 وَلَكِنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ الْوَسَائِلَ الَّتِي يَنْقُذُ
 بِهَا إِلَى الْبَشَرِ الْفَائِينَ .
 وَرَسَمَ خُطَّةً تَصْرِفُ هَذَا
 الْمَخْلُوقَ التَّرَائِيَّ عَنْ مُغَامَرَتِهِ
 فَهَبَّتْ نَسْمَةً مِنَ الْفِرْدَوْسِ
 وَقَبِلَتْ جَسَدَ تِلْكَ الصَّبِيَّةِ
 الَّتِي كَانَتْ تَجْمَعُ الْأَعْصَانِ
 وَمَسَّتْ شَبَابَهَا فُجَاءَةً

مَسْحَةً مُذْهِلَةً مِنْ جَمَالٍ
 وَأَخَذَتْ أَفْكَارُهَا تَطْنُ طَيْنِ النَّحْلِ
 الَّذِي تُهَيَّتْ خَلِيلَتُهُ .
 وَجَاءَ الْوَقْتُ الَّذِي تَحْتَمُّ فِيهِ عَلَى النَّاسِكِ
 أَنْ يُغَادِرَ الْغَابِ
 وَالْأَنْسِحَابَ إِلَى كَهْفٍ
 لِيُسَمَّ تَفْكِيرُهُ
 وَحِينَ فَتَحَ عَيْنَيْهِ لِلرُّحِيلِ إِلَى هَذَا الْكَهْفِ
 بَدَتْ لَهُ الصَّبِيَّةُ كَقِطْعَةٍ مُوسِيقِيَّةٍ
 مَأْلُوفَةٍ، وَلَكِنَّهَا مَنَسِيَّةٌ،
 وَأَنْ هُنَاكَ لَحْنًا جَدِيدًا جَعَلَهُ غَرِيقًا . .
 فَتَنَهَضَ النَّاسِكُ مِنْ مَضْجَعِهِ
 وَقَالَ لَهَا: إِنْ الْوَقْتُ قَدْ حَانَ
 لِأَنْ يُغَادِرَ الْغَابَ
 فَقَالَتْ لَهُ دَائِمَةً الْعَيْنَيْنِ:

لِمَاذَا تَحْرُمُنِي مِنْ إِمْكَانِيَّةِ خِدْمَتِكَ
فَعَادَ النَّاسِكُ إِلَى الْجُلُوسِ
وَاسْتَعْرَقَ فِي التَّأَمُّلِ طَوِيلًا
وَلَبِثَ مَكَانَهُ .

وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ
جَعَلَهَا تَأْنِيْبُ الضُّمِيرِ
تَسْهَرُ طَوَالَ اللَّيْلِ
وَأَخَذَتْ تَحْشَى قُوَّتِهَا
وَحَقَّدَتْ عَلَى انْتِصَارِهَا
وَكَانَ فِكْرُهَا يَسْبَحُ فِي أَمْوَاجٍ
مِنَ الْفَرَحِ الْمُضْطَّرِبِ .
وَفِي الصَّبَاحِ ، جَاءَتْ لِتَحْيِيَّتِهِ
وَطَلَبَتْ بَرَكَتَهُ ، وَقَالَتْ : إِنَّهَا
سَتَرْكُهُ وَتَرْحَلُ
فَحَدَّقَ فِي عَيْنَيْهَا ، فِي صَمْتٍ

ثُمَّ قَالَ لَهَا :
 ارْحَلِي . . إِنْ رَغَبْتِكَ سَتَحَقِّقُ .
 وَطَوَالَ أَعْوَامٍ
 ظَلُّ جَالِسًا وَحْدَهُ
 حَتَّى تَمُتَ فَرَأَيْضُ التَّوْبَةِ
 وَنَزَلَ إِلَهُ الْخَالِدِينَ عَنْ عَرْشِهِ
 لِيَقُولَ لَهُ بِأَنَّهُ قَدْ غَنِمَ الْفِرْدَوْسَ
 بِهَذِهِ التَّوْبَةِ .
 فَقَالَ النَّاسِيكُ :
 لَمْ أُعِدْ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْفِرْدَوْسِ
 فَسَأَلَهُ الْإِلَهِ عَنْ جَزَاءِ أَعْظَمَ
 مِنْ ذَلِكَ ، يَرْغَبُ فِيهِ
 فَأَجَابَ النَّاسِيكُ :
 الصَّبِيَّةُ جَامِعَةُ الْغُصُونِ

يُقَالُ:

إِنَّ (كَبِيرًا) النَّسَاجَ
يَحْظَى بِعَطْفِ الْإِلَهِ
وَالنَّاسُ يَتَجَمُّعُونَ حَوْلَهُ
يَلْتَمِسُونَ الشِّفَاءَ وَتَحْقِيقَ الْمُعْجَزَاتِ
وَلَكِنَّهُ كَانَ مُتَضَافًا
وَأَصُولُهُ الْمُتَوَاضِعَةُ
حَقَّقَتْ لَهُ أَثْمَنَ مَا يَطْمَحُ إِلَيْهِ مِنْ عَزْلَةٍ
وَكَانَ يُلَطِّفُهَا بِأَغَانِيهِ
وَحُضُورِ اللَّهِ إِلَى جَانِبِهِ
وَكَانَ يُصَلِّي مِنْ أَجْلِ أَنْ تُعَادَ إِلَيْهِ
هَذِهِ الْهَيْبَةُ
وَحَسَدَ الْكَهَنَةِ الشُّهُرَةَ الَّتِي ظَفِرَ بِهَا هَذَا

الْمَبْنُودُ

فَانْتَفَقُوا مَعَ عَاهِرَةٍ

حَتَّى تَوَقَّعَهُ فِي كَارِئَةٍ

وَحِينَ ذَهَبَ (كَبِير) إِلَى السُّوقِ لِيَبِيعَ

مَنْسُوجَاتِهِ

أَمْسَكَتِ الْمَرْأَةُ بِيَدِهِ

مُتَّهِمَةً إِيَّاهُ بِالْخِيَانَةِ

وَلَحِقَتْ بِهِ إِلَى بَيْتِهِ وَهِيَ تَقُولُ :

إِنَّهَا لَنْ تَسْمَعَ لَهُ بِالتَّخَلِّي عَنْهَا

فَقَالَ (كَبِير) فِي نَفْسِهِ

(إِنْ لِلَّهِ طُرُقُهُ الْخَاصَّةُ فِي الْاسْتِجَابَةِ

لِلدَّعَوَاتِ) .

وَسَرَّعَانَ مَا شَعَرَتْ الْمَرْأَةُ بِرَجْفَةِ

خَوْفٍ يَسْرِى فِي كَيَانِهَا

وَوَقَّعَتْ عِنْدَ قَدَمَيْهِ صَارِخَةً :

أَنْقِذْنِي مِنْ خَطِيئَتِي
 فَأَجَابَهَا
 افْتَحِي حَيَاتَكَ لِثَوْرِ اللَّهِ .
 كَانَ يَعْمَلُ (كَبِير) فِي مَنْسَجِهِ
 وَهُوَ يُعْنِي . وَكَانَتْ أَعَانِيهِ
 تَغْسِلُ قَلْبَ هَذِهِ الْمَرَأَةِ وَتُطَهِّرُهُ
 مِنْ خَطَايَاهَا الَّتِي وَجَدَتْ مَلَاذًا
 فِي هَذَا الصَّوْتِ الْعَذْبِ .
 وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ
 رَكِبَتِ الْمَلِكُ نَزْوَةً مِنْ نَزَوَاتِهِ
 فَبَعَثَ رَسُولَهُ إِلَى (كَبِير)
 وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَأْتِيَ لِلْغِنَاءِ
 بِمَجْلِسِهِ .
 فَهَزَّ النَّسَاجُ رَأْسَهُ اسْتِخْفَافًا
 وَلَكِنَّ الرُّسُولَ لَمْ يَجْرُؤْ

عَلَى مُغَادَرَةِ الْبَابِ دُونَ أَنْ تَتَحَقَّقَ مَشِيئَةُ الْمَلِكِ .

حِينَ دَخَلَ (كَبِير) الْقَاعَةَ

نَهَضَ الْمَلِكُ وَرِجَالُ الْحَاشِيَةِ

مُتَنَفِّضِينَ

لِأَنَّ (كَبِير) لَمْ يَكُنْ وَحْدَهُ

بَلْ كَانَ مَصْحُوبًا بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ .

فَاسْتَعْرَقَ بَعْضُهُمْ فِي الضَّحِكِ

وَتَجَهَّمُ الْبَعْضُ الْآخَرَ وَقَطَّبُوا جَيْبَهُمْ

وَتَجَهَّمُ وَجْهَ الْمَلِكِ

بِسَبَبِ فُجُورِ هَذَا الرَّجُلِ وَخِلَاعَتِهِ

وَعَادَ (كَبِير) إِلَى بَيْتِهِ مُهَانًا

وَسَجَدَتِ الْمَرْأَةُ عِنْدَ قَدَمَيْهِ

هَاتِفَةً بِهِ :

لِمَاذَا تَتَحَمَّلُ هَذِهِ الْإِهَانَةَ بِسَبَبِي

يَا سَيِّدِي ؟ دَعْنِي أَعُودُ

إلى عَارِي السَّابِقِ .

فَأَجَابَهَا (كَبِير) :

لَيْسَ مِنِّي عَادَتِي أَنْ أُطْرُدَ رَبِّي

حِينَ يَتَعَرَّضُ لِلشَّتْمِ وَالتَّحْقِيرِ .

26

لَمْ يَكُنْ لِلرَّجُلِ أَيُّ عَمَلٍ نَافِعٍ

وَكُلُّ مَا يَتَمَيَّزُ بِهِ غَرَابَةُ أَطْوَارِهِ

وَعَجَائِئِهِ الْمُتَعَدِّدَةُ

فَكَانَتْ مُفَاجَاةً كَبِيرَةً لَهُ

أَنْ يَجِدَ نَفْسَهُ فِي الْفِرْدَوْسِ .

بَعْدَ حَيَاةٍ أَتَفَقَّهَا فِي التَّفَاهَاتِ .

وَشَاءَتْ الصُّدُفُ أَنْ يَقُودَهُ الْمُرْشِدُ

إِلَى فِرْدَوْسٍ آخَرَ مُخَصَّصٍ .

لِلأَرْوَاحِ الْعَامِلَةِ الطَّيِّبَةِ .

وَفِي هَذَا الْفِرْدَوْسِ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ
 يَجُوبُ الشَّوَارِعَ مُتَسَكِّعًا بِلاَ غَايَةٍ
 مُعْرِقًا فَوْرَةَ الْحَمَاسِ لِلْعَمَلِ .
 وَتَقَرَّرَ عَزْلُهُ ، وَتَوَجَّيْهُ الْإِنْذَارِ
 إِلَيْهِ لِأَنَّهُ يَدُوسُ الْأَرْضَ الْمَزْرُوعَةَ
 فَإِذَا هُتِفَ بِهِ نَهَضَ وَاقِفًا
 وَإِذَا دُفِعَ بِهِ مَشَى إِلَى الْأَمَامِ
 وَصَبِيَّةً مَشْغُولَةً
 جَاءَتْ إِلَى الْبِثْرِ لِسَحْبِ الْمَاءِ
 وَكَانَتْ قَدَمَاهَا تَجْرِيَانِ فَوْقَ الْأَرْضِ
 الْمُبْلُطَةِ كَمَا تَجْرِي الْأَصَابِعُ فَوْقَ
 أَوْتَارِ الْقِيثَارِ
 وَعَقَدَتْ شَعْرَهَا فِي عَجَلَةٍ
 وَبَقِيَتْ مِنْهُ خُصَلَاتٌ مُبَدَّدَةٌ

فَوْقَ جَبِينِهَا تَتَجَسَّسُ
 عَلَى حَوْرِ عَيْنَيْهَا .
 فَقَالَ لَهَا الرَّجُلُ :
 أَتُعِيرِينَنِي جَرَّتَكَ ؟
 قَالَتْ فِي اسْتِغْرَابٍ
 جَرَّتِي ؟ لِكَيْ تَعْرِفَ الْمَاءَ ؟
 قَالَ : كَلَّا . وَلَكِنْ لِأَزِينَهَا
 بِبَعْضِ الرُّسُومِ .
 فَأَجَابَتْهُ فِي اسْتِخْفَافٍ :
 لَيْسَ لَدَيَّ وَقْتُ أَضْيَعُهُ
 رُوحٌ عَامِلَةٌ عَزَلَاءُ
 ضِيدٌ رُوحٌ بَلَغَتْ أَقْصَى دَرَجَاتِ الْخُمُولِ
 وَكَانَتْ تُقَابِلُهُ كُلَّ يَوْمٍ عِنْدَ الْبُيْرِ
 وَكُلَّ يَوْمٍ يَطْرَحُ عَلَيْهَا السُّؤَالَ نَفْسَهُ ،
 حَتَّى أَذْعَنْتَ فِي النَّهْيَةِ

وَرَسَمَ الرَّجُلُ فَوْقَ الْجَرَّةِ
بِالْوَانِ غَرِيْبَةً مَتَاهُ غَرِيْبَةً
يَحْبُوْطُ مُلْتَوِيَةً
فَأَخَذَتِ الْفَتَاةُ الْجَرَّةَ وَأَدَارَتْهَا
وَسَأَلَتْهُ:

مَا مَعْنَى هَذَا الرَّسْمِ؟
فَأَجَابَ:

لَيْسَ لَهُ أَيْ مَعْنَى!
وَحَمَلَتِ الْفَتَاةُ الْجَرَّةَ إِلَى بَيْتِهَا
وَتَأَمَّلَتْهَا فِي مُخْتَلَفِ الْأَضْوَاءِ
مُحَاوِلَةً أَنْ تَفْهَمَ مَعْنَاهَا الْخَفِيَّةَ
وَكَانَتْ تَنْهَضُ فِي اللَّيْلِ مِنْ فِرَاشِهَا
وَتُوقِدُ الْمِصْبَاحَ وَتَتَأَمَّلُ الْجَرَّةَ
مِنْ مُخْتَلَفِ الْجِهَاتِ .
هَذِهِ هِيَ الْمَرَّةُ الْأُولَى الَّتِي تُصَادِفُ

فِيهَا شَيْئًا لَا مَعْنَى لَهُ .

وفي اليومِ التَّالِيِ كَانَ صَاحِبُنَا

مِنْ جَدِيدٍ إِلَى جَانِبِ الْبَيْتِ

فَسَأَلَتْهُ الْفَتَاةُ :

مَاذَا تُرِيدُ؟

أُرِيدُ أَنْ أَقْدِمَ إِلَيْكَ عَمَلًا آخَرَ

فَسَأَلَتْهُ مُتَرَدِّدَةً :

أَيَّ عَمَلٍ؟

أُرِيدُ أَنْ أُنْسِجَ بِخُيُوطِ مَلَوْنَةٍ

شَرِيطًا تَعْقِدِينَ بِهِ شَعْرَكَ .

فَسَأَلَتْهُ :

هَلْ هُنَاكَ لُزُومٌ لِذَلِكَ؟

فَأَقْرَأَهَا قَائِلًا :

أَبَدًا . . عَلَى الْإِطْلَاقِ

وَنَسَجَ الشَّرِيطَ . وَمِنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ

صَارَتْ تُنْفِقُ وَقْتًا طَوِيلًا فِي تَرْتِيبِ
شَعْرِهَا.

إِنْ رَتَابَةُ الزَّمَنِ الْمُوَحَّدِ
الَّذِي أَحْسِنُ تَوْظِيفُهُ وَاسْتِخْدَامُهُ
فِي ذَلِكَ الْفِرْدَوْسِ أَخَذَ يُعْطِي
نَتَائِجَ شَاذَةً.

وَقَدْ انشَغَلَ كِبَارُ الْقَوْمِ
وَاجْتَمَعُوا فِي نَدْوَةٍ لِلتَّشَاوُرِ فِي الْأَمْرِ.
وَاعْتَرَفَ الْمُرْشِدُ بِخَطِيئِهِ قَائِلًا:
إِنَّهُ جَاءَ بِالرَّجُلِ غَيْرِ الْمُنَاسِبِ
فِي الْمَكَانِ غَيْرِ الْمُنَاسِبِ
وَدُعِيَ الرَّجُلَ غَيْرُ الْمُنَاسِبِ
وَكَانَتْ عِمَامَتُهُ الزَّاهِيَّةُ
الْمُبْهَرَجَةُ كَافِيَةً لِلدَّلَالَةِ
عَلَى فِدَاحَةِ الْخَطَا الَّذِي جَاءَ

بِهِ إِلَى الْفِرْدَوْسِ .
 وَأَعْلَنَ كَبِيرُهُمْ قَرَارَهُ :
 عَلَيْكَ بِالْعَوْدَةِ إِلَى الْأَرْضِ
 فَتَنْفَسَ الرَّجُلُ الصُّعْدَاءَ
 وَقَالَ : إِنِّي جَاهِزٌ
 وَانضَمَّتْ إِلَيْهِ الْفَتَاةُ
 ذَاتُ الشَّرِيطِ الْمُلَوَّنِ
 قَائِلَةً : . . . وَأَنَا أَيْضًا .
 وَلِلْمَرَّةِ الْأُولَى فِي حَيَاتِهِ وَجَدَ
 زَعِيمُ الْكِبَارِ نَفْسَهُ أَمَامَ وَضْعٍ
 لَا مَعْنَى لَهُ .

27

قَالُوا إِنْ فِي الْغَابِ
 حَيْثُ يَنْتَهِي النَّهْرُ بِالْبَحِيرَةِ

تَعِيشُ بَعْضُ الْحُورِيَّاتِ الْمُتَنَكَّرَاتِ
وَلَا يَعْرِفُ أَنَّهُنَّ حُورِيَّاتٌ
إِلَّا عِنْدَ اخْتِفَائِهِنَّ عَنِ الْأَنْظَارِ .
وَخَطَرَ لِأَحَدِ الْأَمْراءِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى هَذَا الْغَابِ
وَحِينَ بَلَغَ الْمَكَانَ الَّذِي يَلْتَقِي فِيهِ
النَّهْرُ بِالْبُحَيْرَةِ ، أَبْصَرَ فَتَاةً قَرَوِيَّةً ،
جَالِسَةً عِنْدَ الضِفَّةِ ، وَهِيَ
تُرْجِي الْمِيَاهَ لِكَيْ تُرْقِصَ فَوْقَهَا أَزْهَارَ
الرِّبْقِ .
فَسَأَلَهَا الْأَمِيرُ هَامِسًا :
خَبِّرِينِي ، أَيُّهُ حُورِيَّةٌ أَنْتِ ؟
فَضَحِكَتْ الْفَتَاةُ لِهَذَا السُّؤَالِ
وَرَدَّدَتْ الْهَضَابُ صَدَى ضَحِكَاتِهَا
وَوَظَنَ الْأَمِيرُ أَنَّهَا حُورِيَّةٌ الشَّلَالِ
الضَّاحِكَةِ

وَأُبْلِغَ الْمَلِكُ بِخَبَرِ زَوَاجِ الْأَمِيرِ
 مِنْ إِحْدَى الْحُورِيَّاتِ
 فَبَعَثَ فِي إِثْرِهِ فُرْسَانًا وَخَيُْولًا
 وَأَعَادَهُ إِلَى قَصْرِهِ .
 وَرَأَتْ الْمَلِكَةُ عَرُوسَ ابْنِهَا
 فَأَشَاحَتْ عَنْهَا فِي إِشْمِزَازٍ وَتُفُورٍ
 وَتَضَرُّجَتِ أَخْتُ الْأَمِيرِ سُخْطًا عَلَيْهَا .
 أَمَّا الْوَصِيفَاتُ فَقَدْ تَسَاءَلْنَ إِذَا
 كَانَتِ الْحُورِيَّاتُ يَرْتَدِينَ مَلَابِسَهُنَّ بِهَذِهِ
 الطَّرِيقَةِ .
 وَلَكِنْ الْأَمِيرُ أَسْكَنْتَهُنَّ قَائِلًا :
 إِنْ حُورِيَّتِي جَاءَتْ إِلَى قَصْرِنَا مُتَّكِرَةً .
 وَفِي يَوْمِ الْاِحْتِفَالِ بِالْعَامِ الْجَدِيدِ
 قَالَتِ الْمَلِكَةُ لِابْنِهَا :
 قُلْ لِرُؤُوسِكَ إِلَّا تُعْطِيَ صُورَةَ

سَيِّئَةُ أَمَامَ أَقَارِبِنَا الَّذِينَ سَيِّئُونَ
لِرُؤْيَةِ الْحُورِيَّةِ .
قَالَ الْأَمِيرُ لِزَوْجَتِهِ :

اسْتَحْلِفْكَ بِحُبِّي ، أَنْ تَظْهَرِي
عَلَى حَقِيقَتِكَ أَمَامَ أَقْرِبَائِي
فَجَلَسَتْ فِي صَمْتٍ ، فَتَرَةً طَوِيلَةً
ثُمَّ تَضَجَّرَتْ بَيْنَمَا كَانَتْ الدُّمُوعُ
تَجْرِي عَلَى خَدَّيْهَا
وَكَانَ الْبَدْرُ يَتَأَلَّقُ فِي السَّمَاءِ
وَدَخَلَ الْأَمِيرُ بِثَوْبِ الزَّفَافِ
إِلَى عُرْفَةِ زَوْجَتِهِ
وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا
لَا أَحَدَ سِوَى شَرِيطٍ مِنْ شُعَاعِ الْقَمَرِ
يَنْسَابُ مِنَ النَّافِذَةِ لِيَتَعَكِسَ عَلَى
السَّرِيرِ

وَدَخَلَ الْأَقَارِبُ، زُمْرَةً وَاحِدَةً،
 صُحْبَةَ الْمَلِكِ وَالْمَلِكَةِ وَالْأَمِيرَةِ
 أُخْتِ الْأَمِيرِ الَّذِي كَانَ وَاقِفًا
 قُرْبَ الْبَابِ
 وَسَأَلُوهُ
 جَمِيعًا
 أَيْنَ الْخُورِيَّةُ الْعُرُوسُ؟
 فَأَجَابَ الْأَمِيرُ.
 لَقَدْ تَلَّاشَتْ إِلَى الْأَبَدِ حَتَّى
 يُمَكِّنَكُمْ التَّعَرُّفَ عَلَيْهَا

(29)

حين السيل الدافق من الهضاب
 في ظلامِ الليل
 كما يُغمدُ السيفُ الساطعُ في عُمدِهِ

انْطَلَقَ فَجَاءَهُ، هُنَاكَ، سِرْبُ
 مِنَ الطُّيُورِ، بِأَجْنِحَةٍ تَضْحَكُ
 لِصَوْتِ عَالٍ، مُنْدِفَعَةً بِطَيْرَانِهَا
 كَالسَّهْمِ نَحْوَ النُّجُومِ.
 وَفِي قَلْبِ كُلِّ الْمَخْلُوقَاتِ السَّاكِنَةِ
 كَانَتْ تُوقِظُ حُبًّا لِلسَّرْعَةِ
 وَالْانْدِفَاعِ
 وَكَانَتْ الْهَضَابُ تَبْدُو وَهِي
 تَشْعُرُ فِي صَدْرِهَا بِلُوعَةِ الْغَيْومِ
 الْعَاصِفَةِ، وَالْأَشْجَارِ كَانَتْ
 تَتَطَلَّعُ إِلَى أَنْ تَنْتَرِعَ جُدُوعُهَا
 مِنْ جُدُورِهَا.
 أَمَا بِالنِّسْبَةِ لِي
 فَإِنْ تَحْلِقُ تِلْكَ الطُّيُورُ
 حِجَابًا مِنَ الْخُمُولِ

كَشَفَ لِي عَنْ رَجْفَةِ عَظِيمَةٍ
 فِي هَذَا السُّكُونِ الْعَمِيقِ
 فَكُنْتُ أَرَى هَذِهِ الْهَضَابَ
 وَالْغَابَاتِ تُحَلِّقُ فِي الزَّمَنِ نَحْوَ
 الْمَجْهُولِ
 وَالظَّلَامِ يَتَحَوَّلُ فِي ارْتِعَاشٍ إِلَى نَارٍ
 بَيْنَمَا تَطِيرُ الشُّجُومُ رَاحِلَةً
 وَأَحْسَسْتُ فِي كَيْانِي
 الطُّيُورَ الَّتِي تَعْبُرُ الْبَحْرَ
 سَالِكَةً طَرِيقًا يَتَجَاوَزُ حُدُودَ
 الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ
 بَيْنَمَا الْكَوْنُ النَّازِحُ
 يَهْتَفُ بِآلَافِ الْأَصْوَاتِ
 لَيْسَ هُنَا، وَلَكِنْ فِي بَعْضِ
 الْأَمَاكِينِ الْأُخْرَى، فِي حُضْنِ

عَيْنَايَ تَقْطَنَانِ
 إِلَى الْهُدُوءِ الْعَمِيقِ
 لِهُلُوهِ السَّمَاءِ
 وَيَتَحَرَّكُ فِي نَفْسِي مَا تُجِسُّهُ الشَّجَرَةُ
 حِينَ تَمُدُّ أَوْرَاقَهَا كَكُؤُوسٍ
 يَتَّبِعِي أَنْ يَمْلَأَهَا نُورُ الشَّمْسِ
 وَفِكْرَةٌ تَنْهَضُ فِي خَاطِرِي
 مِثْلَ الرَّائِحَةِ السَّاخِنَةِ الَّتِي تَتَّبِعُ
 مِنَ الْعُشْبِ الْمَنْشُورِ تَحْتَ الشَّمْسِ
 وَيَمْتَرِجُ بِقَرَقَرَةِ الْمَيَّاءِ

وَأَنْفَاسِ الرِّيحِ الْمُتَعَبَةِ فِي طُرُقِ
الْقَرْيَةِ
فِكْرَةً أَنَّنَا عِشْنَا مَعًا طَوَالَ هَذِهِ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَوِيَّةِ
وَأَعْطَيْتَهَا حُبِّي نَفْسَهُ
وَالْأَمِي . .

(37)

أَعْطَيْتَنِي شَجَاعَةَ الْحُبِّ الْمُثْلَى
هَذَا هُوَ دُعَائِي
شَجَاعَةَ أَنْ أَتَحَدَّثَ ، وَأَنْ أَتَصَرَّفَ
وَأَنْ أَتَأَلَّمَ لِأَرَادَتِكَ
أَنْ أَتْرَكَ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ
وَأَنْ يَتْرُكَنِي الْغَيْرُ وَخَلِي
قَوْلِي بِالْمَهَامِ الْخَطِيرَةِ

وَشَرَّفَنِي بِالْأَلَمِ
 وَسَاعِدَنِي عَلَى الْارْتِفَاعِ
 إِلَى تِلْكَ النَّفْسِ الْعَسِيرَةِ
 الَّتِي تُضْحِي كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أَجْلِكَ
 أَعْطِنِي يَقِينَ الْحُبِّ الْأَسْمَى
 هَذَا هُوَ دُعَائِي
 الْيَقِينُ الَّذِي يَخُصُّ الْحَيَاةَ فِي الْمَوْتِ
 وَالنَّصْرَ فِي الْهَزِيمَةِ
 وَالْقُدْرَةَ الْخَفِيَّةَ
 فِي أَشَدِّ مَظَاهِيرِ الْجَمَالِ رِقَّةً وَرَهَافَةً
 وَإِلَى التَّرَفُّعِ فِي الْأَلَمِ الَّذِي يَقْبَلُ
 الْإِسَاءَةَ، وَلَكِنَّهُ يَتَعَفَّفُ عَنْ مَجَازَاتِهَا
 بِالْإِسَاءَةِ.

* * *

رايداس الكناس

رَايْدَاسُ الْكَنَّاسِ كَانَ جَالِسًا فِي صَمْتٍ
 ضَائِعًا فِي وَحْدَةِ رُوحِهِ
 وَبَعْضُ الْأَغْنِيَاتِ الَّتِي انْبَثَقَتْ مِنْ رُؤَاهِ الصَّامِتَةِ
 وَجَدَتْ مَدْخَلًا لَهَا فِي قَلْبِ رَانِي
 رَانِي جَهَالِي مِنْ كَيْثُورِي
 وَكَانَتْ الدُّمُوعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهَا
 وَأَفْكَارُهَا تَجُوبُ فِيمَا وَرَاءَ وَاجِبَانِهَا الْيَوْمِيَّةِ
 حَتَّى التَقَتْ بِرَايْدَاسِ اللَّيْلِ قَادَهَا
 إِلَى الْحُضُورِ الْإِلَهِيِّ
 وَقَدْ لَامَهُ الْبَرْهَمِيُّ الْعَجُوزُ الَّذِي يَعْمَلُ فِي الْقَصْرِ الْمَلَكِيِّ
 عَلَى تَذْنِيسِهِ لِلشَّرِيعَةِ الْمُقَدَّسَةِ
 حِينَ كَرَّمَ امْرَأَةً مَبْهُوَذَةً لَا تَسْمِي إِلَى طَائِفَةٍ

وَاتَّخَذَ مِنْهَا مُرِيدَةً
 فَاجَابَتْهُ رَانِي
 أَيُّهَا الْبَرْهَمِي حِينَ كُنْتَ مُسْتَفْرِقًا
 فِي زِيَادَةِ تَوْثِيقِ خِيُوطِ حَقِيبَةٍ
 الْعَادَاتِ، تَزَحَلَقَ ذَهَبُ الْحُبِّ
 خَفِيفَةً، فَوْقَ الْأَرْضِ، وَتَقَلَّمَ
 مُعَلِّمِي بَتَوَاضُعِهِ الْمُقَدَّسِ لِالْتِقَاطِهِ
 مِنْ فَوْقِ التُّرَابِ .
 فَلْتَنْعَمَ بِكِبَرِيَاءَ رَوَابِطِكَ الْعَدِيدَةِ
 الْخَالِيَةِ مِنْ كُلِّ مَعْنَى وَلْيُقَسِّ قُلُوبُكَ
 وَلَكِنِّي أَنَا الْمُسَوَّلَةُ
 سَعِيدَةً بِأَنْ أَسْتَقْبِلَ ثُرُوءَ الْحُبِّ
 عَطِيَّةَ التُّرَابِ الْبَسِيطِ
 مِنْ مُعَلِّمِي
 الْكُنَّاسِ .

كريشنا كالي

إني أَسْمِيها زَهْرَتِي

زَهْرَةُ الْكِرِيشَنَّا

رَغِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّا بَشَرْتَهَا سَمَرَاءَ

أَذْكُرُ يَوْمًا مُلَبَّدًا بِالْغَيْثِ

وَنَظَرَةً خَاطِئَةً مِنْ عَيْنَيْهَا

وَرِثَاءَ مَا اللَّيْلِي يَنْسَابُ حَتَّى قَدَمَيْهَا

وَعُدَائِزَهَا الْمُرْسَلَةَ فَوْقَ كَتِفَيْهَا .

تَقُولُونَ إِنَّا بَشَرْتَهَا سَمَرَاءَ

فَلْيَكُنْ ذَلِكَ .

لَقَدْ رَأَيْتُ عَيْنَيْهَا الْحَوْرَاوَيْنِ

عَيْنِي الْغَزَالَةَ

كَانَتْ بَقَرَاتُهَا تَحْوَرُّ فِي الْمَرْعَى

حِينَ تَحَوَّلَ النُّورُ إِلَى اللَّوْنِ الرَّمَادِيِّ الشَّاحِبِ
 وَخَرَجَتْ بِحُطُوتٍ مُسْرِعَةٍ
 مِنْ كَوْنِهَا الْوَاقِعِ قُرْبَ غَابَةِ الْبَابُو
 وَرَفَعَتْ إِلَى السَّمَاءِ عَيْنَيْهَا الْمُتَقَدِّتَيْنِ
 نَحْوَ الْيَوْمِ الْمُثْقَلَةِ بِالْأَمْطَارِ.
 أَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنْ بَشَرْتَهَا سَمَرَاءُ
 فَلَيْكِنْ ذَلِكَ.
 لَقَدْ رَأَيْتُ عَيْنَيْهَا الْحَوْرَاوَيْنِ
 عَيْنِي الْغَزَالَةَ.
 رِيحَ الشَّرْقِ بِهَبَاتِهِ الْمُثْقَلَةِ
 كَانَ يُمَوِّجُ حُقُولَ الْأَرْضِ
 وَكُنْتُ قَرِيباً مِنَ السِّيَاحِ الْفَاصِلِ
 وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَحَدٌ غَيْرِي
 فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْقَفْرَاءِ
 فَإِذَا كَانَتْ قَدْ انْتَبَهَتْ لَوْجُودِي سِرّاً

أَوَلَمْ تَنْتَبِهْ
 فَذَلِكَ شَيْءٌ تَعْرِفُهُ هِيَ وَأَنَا
 أَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّ بَشَرَتَهَا سَمَرَاءُ
 فَلْيَكُنْ ذَلِكَ .
 لَقَدْ رَأَيْتَ عَيْنَيْهَا الْحَوْرَاوَيْنِ
 كَعَيْنِي الْغَزَالَةَ
 هِيَ الْمُفَاجَاةُ الَّتِي تُحَدِّثُهَا الْغَيْمَةُ
 فِي صَحِيمِ شَهْرِ مَآيُو الْمُسْتَعِيرِ .
 هِيَ ظِلٌّ رَقِيقٌ عَلَى الْغَابِ
 فِي سَكُونِ سَاعَةِ الْغُرُوبِ
 هِيَ سِرٌّ مُتَعَةٍ صَائِمَةٍ
 فِي اللَّيْلَةِ الْمُمَطَّرَةِ مِنْ شَهْرِ يُونِيُو
 أَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّ بَشَرَتَهَا سَمَرَاءُ
 فَلْيَكُنْ ذَلِكَ
 لَقَدْ رَأَيْتُ عَيْنَيْهَا الْحَوْرَاوَيْنِ

كَمَيْتَنِي الْغَزَالَةَ
 إِنِّي أَسْمِيهَا زَهْرَتِي، زَهْرَةَ كَرِيشَتِنَا
 وَلِلْآخَرِينَ أَنْ يَقُولُوا مَا يَشَاءُونَ
 وَفِي حَقْلِ الْأَرْضِ بِقَرْيَةِ (مَابِنَا)
 شَعَرْتُ بِأُولَى نَفَرَاتٍ عَيْنَيْهَا
 لَمْ تَكُنْ تَضَعُ خِمَاراً عَلَى وَجْهِهَا
 وَلَمْ يَكُنْ لَهَا الْوَقْتُ الْكَافِي لِلانْسِحَابِ.
 أَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّهَا سَمَرَاءُ الْبَشَرَةِ
 فَلْيَكُنْ
 لَقَدْ رَأَيْتُ عَيْنَيْهَا الْحَوْرَاوَيْنِ
 كَمَيْتَنِي الْغَزَالَةَ.

* * *

أغنية سانتينكتان

هِيَ عَزِيزَتُنَا سَانْتِيكْتَان
الْأَثِيرَةُ لَدَيْنَا
أَحْلَامُنَا هُدِهَدَتْ فِي أَحْضَانِهَا
وَبَيْنَ ذِرَاعَيْهَا
وَمُحْيَاهَا رَوْعَةُ نَاصِرَةِ الْحُبِّ
كُلَّمَا رَأَيْنَاهُ .
لِأَنَّهَا لَنَا ، لِأَنَّهَا عَزِيزَتُنَا
نَلْتَقِي فِي ظِلَالِ أَشْجَارِهَا
وَفِي حُرِّيَّةِ سَمَائِهَا الْمَفْتُوحَةِ
إِصْبَاحَاتُهَا تَأْتِي إِلَيْنَا
وَأَمْسِيَّاتُهَا تَحُولُ قَبْلَ السَّمَاءِ
مُسْعِرَةً إِيَّانَا مِنْ جَدِيدٍ

أَتُنْهَا لَنَا، وَأَتُنْهَا الْأَيْبَةُ لَدَى
قُلُوبِنَا.

صَمَتَ ظِلَالِهَا

يُوقِظُهُ مَمْسُ الْغَابَاتِ

وَعَابَاتُهَا الصَّغِيرَةُ مِنْ شَجَرِ (الْمَلَائِكِي)

تَرْتَجِفُ بِرَوْعَةِ الْأَوْرَاقِ.

إِنُّهَا تَسْكُنُ فِينَا، وَحَوْلَنَا

مَهْمَا أَوْغَلْنَا فِي الْبُعْدِ عَنْهَا

إِنُّهَا تَضْفِيرُ قُلُوبِنَا فِي أَغْنِيَةٍ

وَتُوَحِّدُنَا فِي الْأَنْغَامِ

وَتَضْبِطُ أَوْتَارَ حُبِّنَا

بِأَصَابِعِهَا الرُّقِيقَةِ

وَنَحْنُ نَذْكُرُ دَوْمًا

أَتُنْهَا لَنَا، هَذِهِ الْحَبِيبَةُ

إِلَى قُلُوبِنَا

و. و. بېرسون

إِنَّكَ لَتَنَسَىٰ نَفْسَكَ بِطَبْعِكَ
وَلَكِنَّا نَحْنُ نَذْكُرُكَ
إِنَّكَ تَتَأَلَّقُ فِي تَحَجُّبِكَ
الَّذِي يَكْشِفُهُ حُبُّنَا
إِنَّكَ تُعِيرُ نُورَ رُوحِكَ
لِأُولَئِكَ الْمَغْمُورِينَ
وَلَا تَبْحَثُ لَا عَنِ الْحُبِّ
وَلَا عَنِ الشُّهُرَةِ
وَلَكِنِ الْحُبَّ يُظْهِرُكَ

* * *

إِشْبَاع

إِن الثَّرْوَةَ الْوَافِرَةَ
لِيُنْعِمَتِكَ الْغَامِرَةَ
تَنْزِلُ مِنْ سَمَائِهَا
بَحْثًا عَنْ رُوحِي الَّتِي يُمَكِّنُ
أَنْ تَحْتَوِيَ فِيهَا نَفْسَهَا
وَالنُّورَ الْهَاطِلُ مِنْ الشَّمْسِ وَالنُّجُومِ
يُشْبِعُ رَغْبَاتِهِ حِينَ يَبْلُغُ حَيَاتِي
وَاللَّوْنُ يُشْبِهُ النُّعَاسَ
الْمَشْدُودَ بِقُوَّةِ إِلَى الزُّهْرَةِ
الَّتِي تَنْتَظِرُ لِمَسَمِيِّ لِكُمِّي تَسْتَقِظُ

وَالْحُبُّ الَّذِي يُنْسِقُ أَوْتَارَ الْوُجُودِ

يَنْفَجِرُ فِي مُوسِيقَى

حِينَ يَقْهَرُ الْقَلْبُ

* * *

ابن الإنسان

مِنْ عَرْشِهِ الْخَالِدِ
هَبَطَ الْمَسِيحُ إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ
حَيْثُ سَكَبَ ، مُنْذُ أَحْقَابٍ بَعِيدَةٍ
حَيَاتِهِ الْخَالِدَةِ
فِي كَأْسِ الْمَوْتِ الْمُرِّ
مِنْ أَجْلِ أَوْلِيكَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِنِدَائِهِ
وَأَوْلِيكَ الَّذِينَ ظَلَمُوا بَعِيدِينَ عَنْهُ
وَتَأْمَلُ حَوْلَهُ
فَرَأَى أَسْلِحَةَ الشَّرِّ
تُخْنِ فِي زَمَانِهِ حَتَّى الْمَوْتِ .
الْجِرَابُ وَالسَّهَامُ الْمُتَعَجِّرَةُ

وَالْخَنَاجِرُ الْحَادَّةُ الرَّهِيْفَةُ
 وَالسُّيُوفُ ذَاتُ الْأَعْمَادِ الْمَاكِرَةِ
 السُّيُوفُ الْمُقَوَّسَةُ الْبَايِرَةِ
 تَقْدَحُ كُلُّهَا الشَّرَّ
 حِينَ كَانَتْ تُسَنُّ
 عَلَى مِسْنَاتٍ مُخَيِّفَةٍ
 وَلَكِنَّ أَفْظَعَهَا جَمِيعًا
 فِي أَيْدِي أُولَئِكَ الْجَزَّارِينَ
 كَانَتْ تِلْكَ الَّتِي تُقَشَّ عَلَيْهَا
 إِسْمُهُ هُوَ.
 وَنُصُوصٌ مَنَقُولَةٌ
 مِنْ كَلِمَاتِهِ هُوَ نَفْسُهُ
 صُهِرَتْ فِي نَارِ الْحَقْدِ
 وَطَرَقَهَا الْجَشْعُ الْمُنَافِقُ.
 وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى قَلْبِهِ

وَشَعَرَ بِأَن السَّاعَةَ الْمَاضِيَةَ
 لِيُوفَاتِهِ لَمْ تَنْتَهُ بَعْدُ .
 وَأَن مَسَامِيرَ جَدِيدَةً
 صُنِعَتْ بِأَعْدَادِ ضَحْمَةٍ
 مِنْ قَبْلِ رِجَالِ مَاهِرِينَ مَآكِرِينَ
 سَتَطْعَنُهُ وَتَخِزُهُ فِي كُلِّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ .
 الَّذِينَ جَرَحُوهُ فِي الْمَاضِي
 وَأَقْفَيْنَ فِي ظِلِّ مَعْبَدِهِمْ
 قَدْ وُلِدُوا مِنْ جَدِيدٍ
 فِي زَمَرٍ عَدِيدَةٍ
 وَأَمَامَ هَيْكَلِهِمُ الْمُقَدَّسِ
 يَصْرُخُونَ فِي الْجُنْدِ
 اضْرِبُوهُ .
 وَابْنُ الْإِنْسَانِ
 يَصْرُخُ فِي أَوْجَاعِهِ

يَا إِلَهِي .. يَا إِلَهِي ، لِمَذَا تَخَلَّيْتَ
عَنِّي ..

* * *

حرية

التَّحَرُّرُ مِنَ الْخَوْفِ
هُوَ التَّحَرُّرُ الَّذِي أَطْلَبُهُ لَكَ
يَا وَطَنِي الْعَزِيزِ
الْخَوْفُ، ذَلِكَ الْمَارِدُ الْخَيَالِي
الَّذِي صَاغَتْهُ أَحْلَامُكَ الْمُعْجِزَةُ،
التَّحَرُّرُ مِنْ أَثْقَالِ السِّنِينَ
الَّتِي تَحْنِي رَأْسَكَ
وَتَكْسِرُ ظَهْرَكَ
وَتُعْمِي عَيْنَيْكَ
عَنْ نِدَاءِ الْمُسْتَقْبَلِ السَّاحِرِ.
التَّحَرُّرُ مِنْ جُذُوعِ الْكَسَلِ وَالْخُمُولِ

التي تُقَيِّدُ بِهَا نَفْسَكَ إِلَى جُمُودِ

الَلَّيلِ

مُرْتَابًا فِي نَجْمَةِ اللَّيْلِ الَّتِي تُشِيرُ

إِلَى طَرِيقِ الْمَغَامَرَةِ فِي سَبِيلِ الْحَقِيقَةِ .

التَّحَرُّرِ مِنْ فَوْضَى مَصِيرِ

مَا تَزَالَ أُسْتَارُهُ الْمُحْجَبَةُ

مَوْكُولَةً إِلَى الرِّيَّاحِ الْعَمِيَاءِ الْغَامِضَةِ

وَالْمِقْوُودُ مَوْكُولًا إِلَى يَدِ بَارِدَةٍ ، جَامِدَةٍ

كَالْمَوْتِ .

التَّحَرُّرِ مِنْ نَقِيصِهِ الْإِقَامَةِ فِي

عَالَمٍ مِنَ الدُّمَى تُوجَّهُ حَرَكَاتُهَا

خُيُوطٌ بِلَا عَقْلِ ، وَمَكْرَرَةٌ بِلَا مَعْنَى

يُحْكَمِ الْعَادَةُ وَالْمَأْلُوفُ

حَيْثُ الشُّخُوصُ

تَقِفُ فِي طَاعَةِ سُلْبِيَّةٍ

مُنْتَظَرَةٌ مُحَرَّكَ الدُّمَى
يُوقِظُهَا بُرْهَةٌ قَصِيرَةٌ
مِنْ غَفَوَاتِهَا ، لِتَقْلُدَ الْحَيَاةَ تَقْلِيدًا هَزِيلًا .

30

كَانَ الْجُمْهُورُ يُصْغِي فِي إِعْجَابٍ إِلَى كَاشِيِ
الْمُعْتَنِي الشَّابِّ الَّذِي كَانَ صَوْتُهُ كَالسَّيْفِ الْبَتَّارِ
يَرْقُصُ بَيْنَ الْعَقْدِ الْيَائِسَةِ
فَيَقْطَعُهَا أَجْزَاءً ثُمَّ يَنْشُرُ الْفَرْحَ .
وَكَانَ بَيْنَ السَّامِعِينَ
يَجْلِسُ الْعَجُوزُ (رَاجَا بِرَاتَابِ) ، مُتَفَجِّرًا .
فَلَقَدْ غَنَّى حَيَاتِهِ وَأَحَاطَ بِهَا صَوْتُ (بِرَاجِلَالِ)
كَمَا يُحِيطُ النَّهْرُ بِجَمَالِهِ بَلَدًا سَعِيدًا .

فَامَسِيَّاتِهِ الْمُمَطَّرَةُ
وَسَاعَاتِهِ الْهَادِئَةُ مِنْ أَيَّامِهِ الْخَرِيفِيَّةِ
وَلَيَالِي أَعْيَادِهِ
كَانَتْ تَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ عَبْرَ صَوْتِ (براجلال)
وَلَيَالِي أَعْيَادِهِ
كَانَتْ تُخَفِّفُ مِنْ أَضْوَاءِ مَصَابِيحِهَا
وَتَقْرَعُ أَجْرَاسَهَا
عَلَى مُوسِيقَى أَغْنِيَاةِهِ .
وَحِينَ تَوَقَّفَ (كاشي) عَنِ الْغِنَاءِ
عَمَزَ (بَارَاتَاب) بِاسْمِ (براجلال)
وَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ هَمْسًا :
أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ ، الْآنَ أَسْمِعْنَا الْمَوْسِيقَى الْحَقِيقِيَّةَ
وَلَيْسَ هَذِهِ الْأَغْنِيَاةِ الْحَدِيثَةُ
الَّتِي تَبْدُو كَأَنَّهَا قِطْعٌ وَثَابَةٌ تُطَارِدُ
فِتْرَانًا مَشْلُوكَةً .

وَاُنْحِنِ الْمُغْنَى الْعَجُوزُ
 بِعِمَامَتِهِ الْبَيْضَاءِ النَّاصِعَةِ
 أَمَامَ الْجُمْهُورِ ، وَأَخَذَ مَكَانَهُ لِلْغِنَاءِ
 وَلَمَسَتْ أَصَابِعُهُ الرُّقِيقَةَ
 أَوْتَارَ الْأَلَّةِ
 وَبَعِثْنِ مُغْمَضَتَيْنِ ، تَرَدَّدَ قَلِيلًا
 فِي شَيْءٍ مِنَ الْحَجَلِ ، ثُمَّ شَرَعَ فِي الْغِنَاءِ .
 كَانَتْ الْقَاعَةُ كَبِيرَةً ، وَصَوْتُهُ وَاهِنًا ضَعِيفًا
 وَهْتَفَ بِهِ بِرَاتَابٍ : (أَحْسَنْتَ) بِإِصْرَارٍ
 وَلَكِنَّهُ هَمَسَ فِي أُذُنِهِ :
 يَا صَدِيقِي ، ارْفَعْ صَوْتَكَ قَلِيلًا
 وَلَكِن الْجُمْهُورُ كَانَ مُتَضَجِّرًا
 وَبَعْضُهُمْ كَانَ يَتَشَاءَبُ
 وَبَعْضُهُمْ أَخَذَ يَنْعَسُ
 وَآخَرُونَ كَانُوا يَتَذَمَّرُونَ مِنَ الْحَرِّ

وَأَخَذَ جَوْ الْقَاعَةَ يَطِنُ بِضَجِيجِ
 مِنْ مُخْتَلَفِ الْإِيقَاعَاتِ
 وَكَانَ الْغِنَاءُ، كَالزُّورْقِ الْهَشِّ
 يُحَاوِلُ عَبَثًا أَنْ يَبْقَى عَلَى السُّطْحِ
 حَتَّى لَا يَغْرُقَ تَحْتَ الضَّجِيجِ .
 وَأَحْسُ الْعَجُوزُ بِحَرَجٍ فِي قَلْبِهِ
 وَتَسِي إِحْدَى الْفَقَرَاتِ الْغَنَائِيَّةِ
 وَتَرْنَحُ صَوْتُهُ مُتَوَجِّعًا
 كَمَا يَتَرْنَحُ أَعْمَى فِي مَعْرَضٍ يَبْحَثُ
 عَنْ مُرْشِدِهِ الضَّائِعِ .
 حَاوِلُ أَنْ يَسُدَّ الْفَجْوَةَ
 بِأَوَّلِ مَقْطَعٍ يَرِدُ عَلَى ذَهْنِهِ
 وَلَكِنَّ الْفَجْوَةَ زِدَادَاتِ اتِّسَاعًا
 وَالْأَنْغَامُ الْمُعْدَّبَةُ رَفَضَتْ
 أَنْ تَلْمِي رَغَبَاتِهِ

وفجأةً غَيَّرَتْ إِيْقَاعَهَا
وَمَالَ المَعْلَمَ بِرَأْسِهِ
فوق آلِيهِ
وَعَوَظًا عن الأَلْحَانِ المنسَبَةِ
طَفَّرَ من عَيْنَيْهِ
الدمْعُ الَّذِي يَحْمِلُهُ
الطفْلُ إلى العَالِمِ
فَرَبَّتْ «بِرَاتَان» بِلُطْفٍ
على كَتِفَيْهِ
قَائِلًا :

تعال، إن اجتماعنا في غَيْرِ
هذا المكان، يا صديقي إن
الحَقِيقَةَ عَزَلَاءُ بِغَيْرِ الحُبِّ
والجمالَ لا يُقِيمُ بَيْنَ السَّوَادِ
الأعظم ولا في الوقتِ الحاضرِ

الْبَحُورُ يَذُوبُ لِيَتَحَلَّلَ فِي الْعِطَرِ
 وَالْعِطَرُ يَذُوبُ لِكَيْ يَلْتَحِمَ بِالْبَحُورِ
 وَالتَّحْمُ يَسْمَى لِمُعَانَقَةِ الْإِيقَاعِ
 يَتَنَا يَمُودُ الْإِيقَاعُ مَتَدَفِّقًا فِي النِّعَمِ
 وَالْفِكْرَةُ تَبْحَثُ عَنْ هَيَاتِهَا فِي الصُّورَةِ
 وَالصُّورَةُ تَبْحَثُ عَنْ حُرِّيَّتِهَا فِي الْفِكْرَةِ
 وَاللَّائِيهَاتِي يَبْحَثُ عَنْ لَمَسَةِ النَّهَائِي
 وَالنَّهَائِي يَبْحَثُ عَنْ انْعِتَاقِهِ فِي اللَّائِيهَاتِي
 أَيُّ مَأْسَاةٍ هَذِهِ تَجْرِي بَيْنَ الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ
 وَهَذِهِ الْحَالَةُ بَيْنَ الْفِكْرَةِ وَالصُّورَةِ
 الْعُبُودِيَّةُ تُصَارِعُ الْحُرِّيَّةَ
 وَالْحُرِّيَّةُ تَبْحَثُ عَنْ رَاحَتِهَا فِي الْعُبُودِيَّةِ

الجوانب العربية في الفكر

الفكر العربي : شارع هومة الموسوي - ص. ب. : 3185 طرابلس - الجمهورية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية
 - الماتن : 30384 - 47287 - تلکس : 20003 الكتاب
 الفكر العربي : 4 ، نج 7101 - الماتن 2 ص. ب. : 1104 القنينة الأميلة 1000 تونس - الجمهورية التونسية
 - الماتن : 236600 - 236025 - تلکس : 14966 كتاب